سولت له نفسه

اسم الرواية: سولت له نفسه

اسم المؤلف:أسد الدين أحمد

تدقيق لغوي:دعاء فرج

تصميم الغلاف: ضياء إبراهيم

تنسيق داخلي: أسماء عطا

رقم الإيداع: ٢٠٢١/٢٣١٧

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٨٤٤-١٠٩-٧

جميع الحقوق محفوظة للناشر

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يعرض صاحبه للمساءلة القانونية والآراء والمادة الواردة .وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير

إبهار
للنشر والتوزيع

E.mail;EBHARPUPLISHING@GMAIL.COM

MOBILE:01060167401

أسر الرين أحمد

سولت له نفسه

روايـة

إهداء

إلى كل الذين تقبلونا برغم كل ما سولت لنا نفوسنا فعله، على ما يبدو أنَّ البقاء لم يكن يومًا للأفضل ولا للأروع ولا للأجمل، لقد كان البقاء لمن يتقبل نزعات نفس الآخر، ويتعايش معها ويقومها برفق.

وإلى كل الذين تقبلناهم مهما سولت لهم نفوسهم فعله. نحبكم جدًا ونتمنى أن تظلوا للأبد، فعلى ما يبدو أنَّ النفس البشرية تحتاج لأكثر من فرصة.

ولا أدري ماذا يفعل بي ولا بكم... آدم عليه السلام؟!

١

يوم القيامة

ما الذي جاء بي إلى هنا؟! هل نجونا؟ هل حقا نحونا؟
هل نحن على السطح أم غرقنا في القاع من تصرفات ذلك العربي الغبي؟! لماذا لا أسمع صوته؟!

لقد كان يصرخ عاليا جدا: يوم القيامة... يوم القيامة!

* * * *

في مكان ما داخل قبو مظلم عاشوا أيامًا صعبة، بالتحديد الأيام الأخيرة كانت صعبة للغاية، درجة الحرارة تجاوزت الخمسين درجة مئوية.

وفي غرفة مظلمة عاش مهند أسوأ أيام حياته، اشتاق لأهله ولكن لا سبيل للذهاب أو للخروج، ربما لا سبيل للبقاء فانتظر الليل، انتظره طويلًا جدًا حتى لم يعد هناك سوى الليل، لا يوجد في الخارج نهار أو ليل، منذ النهار الأخير الذي ظهرت فيه الشمس لم يعد هناك نهار، ولم يعد هناك ليل أيضًا، فتوقفت الأرض تمامًا عن الدوران، ونحن في انتظار الحريق الكبير بعد أن تخرج الشمس من المغرب وتحرقنا جميعًا، نحن نموت ولا ندري!

أو ربما متنا، هاتان الجملتان تترددان على أذنيه طويلًا جدًا.

يدخل عليه ذاك الأربعيني ضخم الجثة يسمى جون والتر، يحدثه بتلك اللهجة الحادة أن يتبعه.

يخرج من سريره الذي ظن أن العالم ينته عنده.

يدخل غرفة مظلمة، ويتسرب العرق من جسده، فهناك طبقة رقيقة من العرق بلغت حوالي عشر سنتيمترات يسيرون فيها، إنه يسير في قبو المكان إذ لدرجة أن السوائل تتسرب إلى هنا، على جانبي الغرفة يوجد شيء يشبه الأنابيب كان يستخدم لتبريد الجو وشفط تلك السوائل، ثم توقفت هذه الأنابيب تمامًا، في الأيام الأخيرة توقفت.

لم يعرف أن كان هذا نوع من التعذيب أم ماذا؟

لماذا يعذبونه؟!

هل عرفوا سره حقا؟!

إلى متى سيطيق تعذيبهم؟!

الأوغاد وسط كل ما يحدث مازالوا يقتلوننا

اللعنة!

أدخله الغرفة. لماذا لا يعصبون عينيه؟!

لماذا يتركونه يراهم؟!

في العادة لا يجب أن يحدث هذا، إنه لا يعرف ما الذي أصبح عادة ولكن هذا الذي يعرفه منذ آخر صورة ذهنية، ولكن هذه الصورة التي لم تحدث منذ أعوام طويلة، لم يخرج أحد من سجونهم السرية قط، لولا أن هناك أناس تختفي دون سبب كنا بالفعل شككنا في وجود هذه الأقبية.

أيها العالم نحن لم نفعل شيئًا. لماذا يجبروننا على أن نرحل بكل تلك القوة!

أدخله جون والتر إلى حيث مكتب في غاية من الأناقة، الهواء فيه بارد إلى حد ما، هناك نوع من الضوء في المكان.

هذا الضوء الذي يصدر عن الكهرباء، حقا مازال موجودًا، نحن لم نره منذ الكثير. كم مضى من الوقت دون أن نراه؟!

نحن لا نعرف.

يقف إليه رجل يرتدي زي عسكري واضعًا شعار القوات العالمية جي... يصافحه،

يحدثه بلهجة عربية: السلام عليكم.

لا يعرف إن كان عليه أن يجيبه بنفس اللهجة أم لا.

إنه لم يسمع لهجته العربية بنفس تلك الدرجة من الوضوح منذ أن ولد.

وفق القانون: الحديث بالعربية حرام والكتابة بها حرام. الدين والكتابة يجب أن يكون باللغة العالمية، لغة الحضارة والتمدن وحسب. أما اللغة العربية فهي لغة الفجار المنبوذين الذين تم قتلهم في الشوارع.

فقط يسمعها حينما يقوم أبيه بتعليمه تلك الأشياء عن الدين.

لم يكن يعرف الإسلام إلا من أبيه في ليالٍ شديدة السواد لم يكن يعرف فيها عن الموت شيء ولا عن الحياة

مع ذلك آمن بوجود الله بشكل ما، ربما ليس الشكل الذي علمه إياه أباه ولكنه آمن بطريقة ما بوجود الله وبالصلاة وبأشياء أخرى وصلت إليه.

لم يكن يعرف هل يجيب على الرجل نفس التحية أم لا يجيبها؟

قرر أن يكون صريحًا إلى حد الموت

أجاب التحية بنفس الطريقة التي أراد أن ينهي بها الغرض منها: ماذا تريدون مني؟!

-نريد منك أخبار الله يا مهند، هذا كل شيء!

- أستغفر الله العظيم

-حسنا نريد أن نعرف كل شيء عن العظيم، بمنتهى البساطة نحن نعتقد أن كل ما يحدث في العالم تم ذكره عندكم في ذلك الكتاب المقدس الذي كان أبوك يقرأه عليك بالليل في ذلك القبو المفروش بالسجاد الأحمر الذي صنعه أبيك في منزله.

إنهم يعرفون كل شيء إذن. فلماذا لا يعرفون الذي في الكتاب المقدس؟!

لماذا لم يحصلوا بعد على هذا الاختراع الذي يقرأ ما في الصدور. هكذا قال في نفسه.

نظر إليه، لم ينطق ببنت شفة

استردف يخبره: اطمئن نحن لسنا هنا لكي ننزع منك اعترافًا... الاعترافات لا تُنزع هكذا

فقط نريد أن نعرف الخطوة التالية للذي سيحدث؟

- عن أي شيء تتحدث؟

- كتابكم المقدس المسمى القرآن الكريم، وجدنا فيه أحاديث عن قوم يأكلون الأخضر واليابس.

- نعم إنهم يأجوج ومأجوج؟!

- هل هما شخصان فقط؟!

- لا إنهم قوم، عددهم كثير جدًا، أكثر مما يتخيل أحد، سيأكلون الأخضر واليابس على الأرض كما قلت.. لقد كانوا وراء الجبال وسيتحررون في نهاية الزمان.

- ماذا تعني بنهاية الزمان؟!

- يوم القيامة يوم الميعاد، اليوم الذي تنتهي فيه حياة الأرض.

- في النهاية الأولى لقد كان الناس يقولوا أنه يوم القيامة أيضًا، وأخذوا يصلون في المنطقة الخضراء بأعداد كثيرة.. لدرجة أن الرحلة للمنطقة الخضراء بلغت ضعف ثمن الرحلة للسفن العالمية.

- لا يوجد شيء ولا أحد في هذه الأرض يستطيع التكهن بهذا اليوم، ولا معرفة هل هذه الدلائل هي الدلائل الحقيقية أم لا، حينما حدثت النهاية الأولى ظن الناس إإن تلك الكائنات ذات الحراشف الزرقاء هم قوم يأجوج ومأجوج، ولكنهم بمنتهى البساطة كانوا نتاج التجارب الكيميائية التي قاموا بإجرائها للحفاظ على شباب البشرة.

- كُتب التاريخ العالمي لا تقول هذا.

- لأنكم لا تريدون أن يكون هذا موجود.

- لا تُجادل.

- هل هناك علامات أخرى لهذا اليوم لم تحدث بعد؟!

- سوف تشرق الشمس من المغرب بدلًا من المشرق، وسوف يظهر شيء يسمى المسيح الدجال، وربما يكون قد ظهر، ومكتوب على جبهته كافر بعين واحدة، ويفتن الناس بدينهم؛ لدرجة أنه يحي ويميت ويـــ...

- مهلا، أنت تقصد قائد العالم؟!

- لا أعلم، ولكنه يشبهه.

- خطأ آخر ولن تصبح مصدر معلومات بقدر ما ستمتلئ تلك الأوراق التي أمامك بفص مخك الصدغي، ولكن كيف تشرق الشمس من مغربها؟

- لا نعلم ولكن هذا ما علمني إياه أبي.

- هل هناك أشياء أخرى؟

- نعم سيظهر رجل في بلاد الحجاز يسمى المهدي المنتظر.

- بلاد الحجاز تلك هي المنطقة الخضراء؟

- نعم، قبل النهاية الأولى كانت تسمى مكة والمدينة.

- ماذا سيفعل هذا المهدي؟!

- سيقتل المسيخ الدجال.

- الأشياء مبعثرة جدًا، وماذا يفعلون بيأجوج ومأجوج، وهناك أشياء تسمى عهود الرخاء وعهود الجدب، أريد التفاصيل كاملة، هذه الأشياء التي تتحدث عنها تحدث بالفعل، يمكننا تجنبها أن حكيتها بتفصيل أكثر.

- ما أعرفه أقوله لكم، هذه الأشياء كانت مدونة بالتفصيل في كتب المسلمين التي محوتموها من العالم، ماتبقى هو ما نحفظه.

- هل هذا القرآن تحفظونه؟

- نعم نحفظه، حينما حولتم كل المصاحف إلى مصاحف ضوئية وإلكترونية بحجة الحفاظ على الورق والنباتات وعدم إهداره قمنا بحفظه حفظًا كاملًا، وحينما قمتم بمسحه هو وكل الكتب من الشبكة العالمية حفظنا ونقلنا ما استطعنا في ألواح سفينتنا التي نجونا عليها.

- لا يهمني كل هذا، هل ما تحفظونه يحتوى على تفاصيل أكثر؟

- لا، ما لدينا أخبرتك إياه.

- يمكنك أن تغادر بعد أن تقسم بحياة القائد العالمي على صدق كلامك.

- نحن لا نقول الكذب، هناك شيء آخر

- ماهو؟!

- إن كان هذا هو يوم القيامة، لا يمكنك منعه!

- منعناه سابقًا.

- لم يحدث من الأساس لكي تمنعه، لا تقنع نفسك أنك قتلت الشبح لكي تتخلص من خوفك.

- مجموعة من المخرفين الباقيين في نهاية التاريخ.

هل سيتوقفوا عن قتلنا ويفكرون في قتل هؤلاء القوم، لم يعد لديهم سلاح بعد أن فنيت أسلحتهم ومع ذلك مازالوا يقتلون فينا.

أين سيذهبون بي؟ وماذا سيفعلون بي؟!

كيف يمكن أن أكون في نهاية التاريخ هكذا.

لا يوجد منقذ هنا سوى الإيمان كما علمني أبي.

الإيمان وحسب هنا هو السبيل للبقاء، أو ربما قليل من الأمل.

الله واحد أحد، الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، الدين عند الله الإسلام، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا حول ولا قوة إلا بالله.

ظل يردد في قرارة نفسه، يسحبونه ويضعونه في قبر مظلم.

هل سأموت هنا؟!

لا يستطيع أن يقيم ذاته للصلاة، وقرر الصلاة وهو في وضع الجلوس، وتذكر أخاه القعيد الذي استخدموه كحطب لأحد الآلات لأنه به تشوه ولا يستطيع الوقوف.

أمسكوه يومها زحفًا حتى ألة تعليب الخبز.

أخبره مدير خط الإنتاج أن يقف ليقوم بالتعليب، ولم يستطع فلكزه بكعب سلاحه، ولم يكن السلاح قد فرغ بعد.

مرة ومرة و مرة لم يستطع فبكى، أخبره أنه عالم لا يتسع لبقايا البشر وحطامهم.

جمعه وألقاه في مخزن وقود الألة، لكي يشتعل مع الفحم وبقايا الأشياء التي تشتعل.

توسلوا إليه أن يطلق عليه الرصاص قبل أن يلقيه، أخبرهم أنهم بحاجة للطلقات وأن سياسات الترشيد لا تنصح بإطلاق النار على مثل هذا، توسلوا إليه أن يذبحه بالسكين لم يفعل، ألقى السكين أمامه وأخبره أن يفعل إن كان يريد، أمسك السكين وقتل أخيه، قتله حتى يرحمه من آلام الحريق ويعيش هو بالحريق في نفسه ما تبقى من عمره.

المشاعر هي آخر ما يمكن التفكير فيه عندهم.

أخذ يتلو من آيات كتاب الله في قوقعته.

في غرفة التحقيقات استجوب والتر آخر وآخر وآخر.

بعد أن انتهى جلس يسمع التسجيلات مرة ثانية ويُفرغ ما فيها.

في ثانية ارتجت الغرفة وتحولت كل الأضواء إلى اللون الأزرق، كان هذا يعني أن حدث ما حدث على السطح، فحاول الخروج إلى السطح وجاءت التعليمات بالبقاء حيث أنت.

الأمر لم يكن يعني له شيء، في مرحلة ما من مراحل اليأس ستكون فكرة الانتهاء لك أعظم من فكرة البقاء، كان شقاء البقاء أصبح أصعب ألف مرة من شقاء الانتهاء، وفي ثانية أصبح هناك ارتجاج آخر وآخر وآخر.

تحول اللون الأزرق إلى لون أصفر درجة عالية، وأكبر من درجات الخطورة، هذا يعني أن السفينة أصبحت رأسًا على عقب.

دخلت عليه الطبيبة سوالكوفا وفي يدها شيء أشبه بالضمادات، سألته هل ستحتاج إلى تلك؟

- لم يحدث شيء.

في الثانية التالية تمامًا كانت سوالكوفا في سترتها الخضراء المرسوم عليها شعار المنظمة العالمية كيفاد فوق جون والتر الذي بدوره حاول حماية نفسه ولكن لم يستطع إلا حينما انفتحت شفته السفلى وغرقت دماء.

سأل في ألم بعد أن اعتدل من وضعية السقوط: ما الذي يحدث؟

أجابته: نصطدم بجبل من الأروز.

الأروز هو سائل جيلاتيني تكون بعد النهاية الأولى، ولكن لم يفهم أحد كنيته، له ميوعة الماء وصلابة الفولاذ بمجرد الاصطدام به يغرق المصدوم فيه ثم يخرج ملقى به إلى مكان آخر بقوة دفع غريبة تعاند كل قوانين التصادمات الفيزيائية حاولوا التخلص منه بكل الطرق الممكنة.

حينما قاموا بتجميده انتفخ حجمه جدًا لدرجة بلغت حوالي عشرين ضعفًا، وحينما حاولوا تخفيض درجة حرارته تسامى إلى غاز خانق تسرب في كل المركبات المحيطة وأذاب كل

الموجودين.

هذا الأروز انتشر بقوة في كل المحيطات التي تكونت بعد النهاية الأولى.

حاولوا وضع خرائط كثيرة له ولكنهم لم يتمكنوا، لونه يشبه لون الثلج وملمسه وجميع خصائصه الظاهرية، لا تستطيع التفريق بينه وبين جبال الثلج إلا حينما تصطدم به، ولو بمقدار درجة واحدة.

وفي ذلك المكتب كانت تلك الأضواء هي مراحل الاصطدام بالأروز، يبتلعك ثم يلعكك ثم يلفظك،

لقد اختل هذا العالم.

ليست هذه أول مرة يحدث فيها هذا، لكن الانتهاء هذه المرة مختلف بعض الشيء.

هذه هي نهاية النهاية نفسها، هل ستشرق الشمس من المغرب كما يقول الكتاب المقدس؟

الغيوم تغطي السماء ولا يوجد أي وسيلة للاستطلاع، فجميع الأقمار الصناعية انفجرت أو خرجت عن مدارها.

في قوقعته التي سجنوه فيها سمع صوتًا ما يناديه، هل أحد هنا؟!

تردد قبل أن يجيب أو هكذا ظن نفسه أنه سيتردد ولكن في الحقيقة أنه أجاب بصوت واحد على السؤال أنا هنا، أنا مازلت أستطيع الكلام، أنا حي وهناك إنسان آخر حي يتحدث إليّ حتى لو كانت طريقة جديدة في الاستطلاع، حتى لو كانت خديعة من أجل استخراج المزيد من المعلومات، نحن لا نُخفي عليهم شيء، نحن مسلمون سُنه لا تقاه في الدين.

إنهم لن يقتلوننا على أية حال، انتهى زمن القتل منذ أمد بعيد.

قبل أن يجيب كان باب الكُوَّة التي فيها انفتح

أخرجوه بسرعة شديدة وسط أصوات الإنذار تخترق الآذان.

أين هم الآن؟

أخرجوه إلى السطح مع مجموعة من المساجين الآخرين،

صرخ بالشهادة وتمتم بها آلاف المرات والمرات

وللمرة الأولى منذ أمد بعيد أخذ يرى الضوء، ضوء حقيقي حتى لو كان مليء بالبخار

الجميع يجب أن يتواجد في كبسولات الأمان الآن.

هناك قرص لامع في السماء.

هل هو الشمس، أخيرا سنرى الشمس!

أنا لا أصدق

هكذا هتف والتر: سوالكوفا ووالتر وهذان الاثنان إلى الكبسولة كيفاد ٢.

هكذا صرخ قائد السفينة جاروكي.

في الكبسولة صرخ الفتى الثاني بالعربية إلى مهند، لو كانت هذه الشمس فهي قد أشرقت من المغرب وليس من المشرق وليكن هذا هو يوم القيامـــة

قبل أن يتكلم كانت الكبسولات تطير في الهواء تفر من شظايا السفينة جاروكي

لا يعرف أحد سر الانفجار، هل هي الغواصة "هرميجدون" ثانية؟!

لا أحد يعرف.

ولا يمكن لأحد أن يعرف.

فقط سوالكوفا كانت تصيح في قرارة نفسها:

ما الذي جاء بي إلى هنا؟!

هل نجونا؟

هل حقًا نجونا؟

هل نحن على السطح أم غرقنا في القاع من تصرفات ذلك العربي الغبي؟!

لماذا لا أسمع صوته؟!

لقد كان يصرخ عاليًا جدًا:

- يوم القيامة... يوم القيامة!

٢

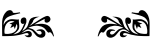

إني ذاهبٌ لكي أجدني

لكن الحقيقة التي لا مفر منها، أن لا أحد يملك الصواب الكامل، ولا أحد يملك الحقيقة الكاملة. بل هناك البعض يصل إلى تلك الحقيقة عن طريق اجتهاده في مطالعة كل ما حوله من أفكار.

*****

في ثانية وجدوا أنفسهم خارج العالم. انطلقت الكبسولة في فلكها غير عابئة بالمسارات ولا غير المسارات.

فقط تاهت في الوجود.

شاهدوا عالم يحترق، سمعوا أصوات استغاثات كبيرة، صغيرة منها وقليل.

كل ما توقعوه أن يموتوا كما مات الجميع.

خرج جون والتر من الكبسولة، وحاول الاتصال كثيرًا بالقاعدة وبكيفاد وبكل السفن والجزر والقيادات، كانت النتيجة أن لا أحد يجيب.

هل أصبح العالم نحن وحسب؟!

صرخ جون والتر يشق السماء في جنون كأن صوته سيسمعه أحد، فلم يسمعه أحد.

تحدثت سوالكوفا في منطقية:

-وماذا لو أجابونا؟! ماذا سيفعلوا بنا؟!

لا يوجد أي طريقة سيفعلونها لكي ينقذوا بها شخصان.

نظر مهند إلى الشخص العربي، من يقصدا بالشخصان نحن أربعة؟!

أردفت سوالكوفا:

-نحن مجرد أرقام أنت تعرف ذلك، ربما يكونوا يسمعوننا بالفعل ولكن لا جدوى من إنقاذنا وربما يكونوا ماتوا أو انتهت كل السفن في النهاية النتيجة سواء. نحن سنكمل بقية عمرنا هنا. أنا حواء وأنت آدم كتلك الأسطورة التي وجدناها في كتب هؤلاء العرب!

حاول والتر استدراك الموقف وحاول أن يجيبها، ولكن العالم انتهى بالنسبة إليه، لم يفهم شيء سوى الصمت الذي التزم به، ويخبرها به أنها هي الآن القائد.

توحشت سوالكوفا وجرجرت مهند والعربي من الوثاق الحديدي، وضعتهم في بقايا الكبسولة. ألقتهم في البحر تدفعهم في البحر بكل ما أوتيت من قوة حتى بلغ الماء منها مستوى أنها لم تعد تلمس القاع بقدمها. سبحت قدر الإمكان حتى يتبقى في طاقتها ما يمكنها الرجوع، تركتهما يستغيثا بكل علامات الاستفهام. لماذا... نحتاج لكل شخص لكي نبقى!

حينما عادت كان نفس السؤال موجه من جون والتر إلى الحجرية سوالكوفا:

-لماذا تلقي بنصف العالم إلى الغرق؟

ردت سوالكوفا في لهجتها الحجرية الشديدة:

- لماذا أنت غبي إلى هذا الحد؟ نحن الآن نمثل العالم في البدائيات ولا توجد قوة سوى القوة البدنية وهما اثنان وأنت واحد، يستطيعون قتلك في ثانية لو فككنا وثاقهما وأُصبُح جارية لديهم، كما إنهم أصغر منك سنًا، كبيرهم هذا لديه عشرون عامًا وأنت لديك خمس وأربعون عامًا، أي يستطيعون البقاء لدرجة أنَّ أحدهم يستطيع أن ينجب من ابنة لي لو أنجبت.

امتعض والتر وهو يجيب:

-على الأقل كان من الممكن أن تجعلينا نأسرهم لعلنا نجد لهم نفعًا

إجابته في حدتها القاسية:

- غبي... غبي لدرجة الجنون، الموارد قد لا تكفي لإطعام الآخرين يا هذا، ألا تفهم؟!

وتركتهما.

*****

مقيدان في البحر داخل قوقعة ترميها الأمواج حيث ترميها، لا يملكا من أمرهما شيئًا.

ظلا يجلسان في قوقعتها يحاولان دفعها بأجسادهما. وجدا أن الأمر قد يهلكهما، كيف السبيل إلى النجاة؟! هل يمكنك أن تنجو من كل هذه الظلمات؟

*****

علينا في البداية أن نضع القانون الذي يحكمنا، قالت سوالكوفا قبل أن يعلق عليها والتر:

-نحن اثنان أيها الغبي أي قانون يجب أن يحكمنا.

أردفت:

- نحن سنتزوج... أنت ستتزوجني وسننجب.

أجابها:

-وهذا أسوأ ما في الأمر.

*****

برغم كل شيء شعرت أن الجملة أصابت شيئا ما في كبد أنوثتها التي سقطت منها منذ زمن طويل، ولكنها لم تكترث لرده، مع ذلك أردف: أتعلمين؟ أتمنى

حقا الزواج منكِ، لكن آخر ما أتمناه أن أجبر على الزواج منكِ، أن يكون الزواج منكِ هو الخيار الوحيد، هذا مالا أريده ولا أتمناه.

يتزوجان ويقرران أنهم وحدهم في العالم. الحياة لا تعطينا حق التصرف كثيرًا، ولا يمكن أن تفعل في قرارة نفسه قام بالتفكير.

شعر والتر بالغضب وشعر بالحاجة للثأر ولم يعرف مما يثأر ومما يغضب، المنطق يقول أن الحياة تستمر ونفسه تقول غير ذلك.

*****

لماذا يا صديقي فعلوا بنا هكذا؟

أي ذنب ولدنا به لكي تكون النهاية هكذا.

لماذا لم يقتلونا؟

لم يجيبه وكل ما فعله هو أن أخذ في ترديد جملة واحدة: لا حول ولا قوة إلا بالله.

لا حول ولا قوة إلا بالله تُنجينا، لا حول ولا قوة إلا بالله تُحيينا، لا حول ولا قوة إلا بالله نعيش بها حينما تنته الأسباب.

أحقا انتهت الأسباب؟

هل تحتاج أكثر من ذلك لكي لا تنته الأسباب.

شخصان مقيدان في شيء طاف في بحر لا نعرف له نهاية وكل ما نعرفه أن تلك الأمواج ستأخذنا.

ذات يوم سمعت قصة نبي في العهد التقليدي كان يسمى يونس حينما حبس في بطن الحوت كان يردد " لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ".

أترديد الكلمات يكفينا أم لا يكفينا؟

هل حينما نردد كلمات معينة في أوقات معينة هذا سيفعل شيء؟!

الأمر لا يتعلق بالترديد يا أخي بقدر ما يتعلق بما في القلوب عند الترديد، هكذا أخبرني أبي، الأحاديث والأهازيج وزلازل القلوب طافت بهم كما لم تطف بأحد. بلغت القلوب الحناجر

هنا أخذ العربي يحدث مهند: اسمع يا رفيق كل الأمور التي تحدث في هذه الحياة تنقسم إلى قسمين:

- أما القسم الأول فهو الأخذ بالأسباب وأما القسم الثاني فهو مشيئة الله

ما هي الأسباب المتاحة لنا الآن غير اللسان الحر لنذكر به الله.

طرأت لدى مهند أثناء الحديث فكرة ثم صاح:

-والعقل الحر أيضا. عقل ولسان هذا جيد. اسمع حاول أن تستدير حتى تجعل الحبل الذي يقيد يديك هذا مواجها لأسناني.

هاتفه العربي في صوته المطمئن الذي لم يتنازل عنه برغم كل ما فيه من هلع:

-أي حركة تخل بتوازن ذلك الشيء ستنقلب وسنمت غارقين.

مهند: ولو ارتفع هذا الموج في الليل فنحن غارقون، وإن جاءت رياح قوية بعض الشيء نحن غارقون وإن خرج من هذا البحر أي من أعماقه فاهتز ذاك القارب فنحن غارقون، فإن كنا غارقون؛ لنغرق على الأقل ونحن نحاول.. أرجوك افعل في حرص.

تحرك مهند والعربي؛ فاختل توازن فقاعتهم قليلا، فتداركا الموقف، واجهت أسنان مهند قيد العربي وأخذ يقرضها قرضًا. كان القيد متين للغاية ولكن شظف العيش الذي عاشه مهند طوال حياته مكنه من تدمير القيد.

يدان حرتان، وفقدمان حرتان، فأربعة أيادي، وأربعة أقدام. لقد أصبحوا أحرار،

ولكنهم مقيدون باتساع الحر. ضالان بغياب الشمس على الأقل سنموت بحرية أيها العربي هكذا أخبره مهند.

اسمي طلال لو أردت نداء غير تلك العربي.

مهند: وأنا اسمي مهند من أصول عربية أيضًا ومسلم.

شعر الاثنان بشيء لم يشعرا به من قبل هذه أول مرة منذ أن ولدا على سطح هذه الأرض يستطيعان التحدث بالعربية والتصريح بإسلامهما على الملئ. نحن مسلمون نستطيع تلاوة القرآن، ونستطيع التحدث بالعربية بل نستطيع تدوين القرآن، وأمسكا بشيء من القيد وقاما بلفهما حتى صنعا مدببًا منه وأخذا ينحتان على قاربهما الصغير آيات من كتاب الله.

حتى لو كانا هذا هو العالم كله مجرد قارب ولكنه يتسع الآن لكل ما نريد. قام طلال على متن القارب وأخذ يصيح بالأذان. غرده عاليًا جدًا... غرده بأعلى صوته. ما إن فعل حتى وجد شيء يطير. أسراب من طائرات صغيرة ولكنها طائرات في غاية المرونة والصغر.

صاح فيه مهند:

-أيها الأحمق يبدو أنها طائرات استطلاع لكيفاد، لو وجدونا سيقتلوننا

رد طلال:

- ليست طائرات استطلاع. هذه أشياء لم نرها في حياتنا من قبل

مهند: وهل رأينا كل الأشياء التي صنعتها كيفاد؟

طلال: قلبي يُحدثني أن تلك الأشياء الرائعة ليست من صنع كيفاد. ما يهمنا الآن أن هذه الأشياء انطلقت من اليابسة. فاتجه إلى ما انطلقت منه.

صنعا من أيديهما مجاديف. قاوما البحر لكي يقهرا أمواجه التي سجنتهما أيامٍ وليالٍ.

أكثر من مسيرة يوم يتتبعا الطائرات الصغيرة في حذر. صاما عن الكلام لأيامٍ وليالٍ مخافة أن تكون الطائرات تابعة لكيفاد.

وقد لا تكون.

ولكن الرعب الذي صنعته كيفاد كان كفيل أن يزرع الرعب في قلوب الجميع.

السجن لم يعد في يوم من الأيام هو سجن الجدران، فهناك سجن أكبر يصنعه الطغاة.

أن يجعلوا جدران السجن هي عقلك نفسه أسوأ أنواع السجون هو سجن العقول.

لم يتحدثا فقط بحثا عن اتجاه الطائرات في غير اتجاه.

لم يكن هناك اتجاهات. لم يكن هناك ضوء شمس من الأساس. كانت الغيوم تلبد كل الأماكن

بعد مسيرة النصف يوم لمح اليابسة.

هتف مهند في لكنة اللغة العالمية التي علمته إياها كيفاد: أرض... هناك أرض هناك.

بلغت الصدمة أن اختل توازن القارب. كادا أن يغادراه ويبلغا الأرض سباحة لولا خوفهما أن يكون هذا أزور وليس أرض.

أعادا التوازن للقارب الذي طالما لفحته الأمواج في ذلك المحيط البعيد. وأخيرًا وصلا إلى اليابسة.

لم تكن جزيرة بل كانت ساحل ممتد. ساحل كبير لم يكن بصرهم يبلغ نهايته ولا بدايته.

زادت الريبة في عقولهم أكثر وأكثر. ينظر كلاهما للآخر فلا يجد غير الحيرة والشك.

هل تكون الأمواج قذفتهم إلى حيث سوالكوفا ووالتر مرة أخرى.

من لا يتوه في البحر فأين يتوه؟

وقد تكون قاعدة أخرى لكيفاد.

وقد يكون نوع أخر من الموت لا يعرفوه.

أشار مهند إلى العربي بالصمت.

ذهب إلى ورقة من أوراق الشجر، ويصنع منه قرطاس سنه مدبب، ليكتب به على الرمال بتلك اللغة العالمية:

- يجب أن نبحث عن الطعام أولًا ثم نستريح قليلًا ثم نفكر أي شيء نفعله.

أجابه طلال بالكتابة: دع أمر الطعام لي.

قطع حديثهما وجود كائن أمامهم كانا كل ما يعرفوه عنه أنه انقرض منذ عصور الإنسان البدائي كما يقولوا، يشبه ذلك الذي كان في كتب علوم الأحياء يسمى بالأرنب وهو كائن صالح للطعام.

ولكنهم لا يعرفون شيء عن كيف كان يتناوله البشر الأوائل.

حاول الاقتراب منه بحذر، لا يعرف إن كان هو أصلًا ما يتحدثون عنه أم أنه شيء آخر، اقترب منه أكثر، بحركة خاطفة أمسكه.

سأله مهند:

- كيف تعلمت الإمساك به؟!

طلال:

-حدثني جدي عن الكثير من الأشياء عن حياة البشر الأولى، أنا أعرف حياة البشر الأولى أكثر مما أعرف عن حياتنا تلك.

مهند: ألا تستطيع أن تخفض صوتك أكثر ؟!

طلال: لا أشعر أننا في حاجة إلى ذلك.

مهند: هل تستطيع أن تعد هذا الشيء للطعام؟

طلال: نعم، إنه يُذبح ثم إعداد النار، ثم يوضع عليها حتى شواءه.

مهند: هذا مخالف للقانون الدولي.

طلال: لا يوجد قانون هنا... ألا تحفظ كتاب الله؟! هذا من طيبات ما رزقنا الله.

مهند: لو علموا أننا هنا سيقتلوننا على تلك الجرائم!

طلال: هل سيسجوننا وهم غير موجودين؟! يا رفيق دعنا نعيش هذه الأيام دعنا نعيش يوم واحد في ما نحب!

مهند: ليكن الله عون ومعين.

ربط الأرنب في أحد الأشجار ببقايا قيده، ثم استل شيء من حجر وأخذ بتحفيفه حتى أصبح له حواف فاستحد، فعل ذلك في مهارة فائقة أذهلت مهند.

سأله مهند أن يعلمه تلك الأشياء فبدأ بتعليمه، هذا سيكون سلاحنا وسندافع به عن أنفسنا لقد حصلنا على حريتنا الآن، وإن بدئوا في قتلنا فلن نموت هباءً يا أخي. صنع كل منهما لنفسه سكين، ذبحا الأرنب وصنعا النار من شرر الاحتكاك بين كبير الحصى، أخبر طلال مهند أن هذه كانت طريقة الحياة في بداية هبوط الإنسان على الأرض، والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: ما طبيعة تلك الأرض التي وصلنا إليها؟ هل حقا هم بالقرب؟ سأل طلال وهو ينظر إلى السماء!

مهند: هناك شيء مميز على تلك الأرض، هذه الأرض لا يوجد فيها أي شيء من ملامح كيفاد، كيفاد حرقوا الأخضر واليابس وجعلوا كل شيء صناعي لم نكن نأكل في كيفاد إلا الأدوية المصنعة، لم يكن هناك أخضر ولا شجر، كل تلك الأشياء أنت تعلم جيدًا أنها لا تنتمي إلى كيفاد.

طلال: إذا نحن أمام خيارين لا ثالث لهما: إما أن نكون على أرض لم تكن تعلم كيفاد عنها شيء، وإما أن نكون على أرض أبقتها كيفاد على فطرتها الأولية.

مهند: لنفعل شيء نصنع علامة هنا ثم نسير بمحاذاة الشاطئ ما تيسر لنا من الأرض، فإن عدنا إلى نفس النقطة نعلم أن هذه جزيرة، بالإضافة إلى ذلك نصنع خريطة لما نحن عليه من الأرض، وما نستطيع أن نكتشفه بطول الساحل أولًا ثم نتوغل عمقًا بعد ذلك حينما نعود إلى تلك النقطة.

طلال: لنؤمن حاجتنا من الطعام مسيرة يوم.

صنعا سكينًا وتعلما صناعة الرماح وصنعا قوسًا ولكن دون وتر ولكنهما حملا ذلك القوس معهما على أمل أن يجدوا ما يصنعا منه وترًا له واستحدا الكثير من السهام.

كان عمل شاق لمدة يومين ثم استراحا في اليوم الثالث، ثم انطلقا.

بدأ في السير مع أخيه، لا يعرفا أين المنطلق؟! ولكنهم يسيروا يقوما برسم العلامات والمميزات، كأنه عالمهم وحدهم، وكأن كيفاد لم تخلق من الأساس، لا يعرفا كيف تخلصا من خوفهما، ولكنهما يعرفان جيدًا أنهما ذاقا طعم الحرية، ومن يذق طعم الحرية، لا يستطيع أن يعيش خائفًا بعد ذلك، كل الذين خافوا لم يعيشوا أحرار ذات يوم.

كانا يستغربان كل شيء، هذه الجزيرة بمياهها لا تنتمي إلى العالم الذي عاشوا فيه، هذه الجزيرة تنتمي إلى العالم الذي قرأوا عنه ورأوه في المتاحف الجيولوجية ومتاحف الأحياء التي شاهدوها.

في اليوم التالي وهم يسيران رأى مهند وردة تكثف عليها شيء من قطر الندى، كان منظرها مبهر إلى الحد الذي أوقف مهند أمامها وقت لا يعلمه ولا يفقهه، وقف أمامها وحسب

كانا يعرفان الوقت من لون الغيمات، فالغيمات الرمادية تعني أن هذا ليل والغيمات البيضاء كانت تعني أن هذا نهار.

تساءل طلال: من المفترض أن تلك النباتات تحتاج إلى الشمس بشكل أساسي لكي تنمو، كيف تنمو برغم أن السماء هنا مثل سماء كيفاد لا يوجد فيها شمس؟!

لم تمهلهم الأرض مساحة للتساؤل في غضون دقائق كانت الغيوم قد انفرجت عن ثقب ما بدأ في الاتساع رويدًا رويدًا، ثم تسربت أشعة الشمس من خلاله كأنها تتدفق من بئر ذهب سائل.

لم يستطيعا الحديث!

تركا جلدهما يتنفس مما حُرِما منه طوال الشهور الطويلة.

لم يصدقا إنها الشمس من جديد وأن الحياة عادت إليهما، لديهم شمس من أين جاءت الشمس؟!

كيف لم تعرف كيفاد أن هناك أرض فيها مازالت تطل عليها الشمس؟!

كانت كيفاد تتغلب على ذلك بالطعام الصناعي الذي يصنع من المركبات الكيميائية فلم تعد بحاجة إلى النبات، حتى كان الأطفال يحقنون بمركب فيتامين د الصناعي حتى تحفيزهم لتصنيعه بتلك الطرق فلا يحتاجون للشمس لنمو عظامهم، كيفاد صنعت بديل لكل شيء، حتى في أشد لحظات إيمانهم كانوا يشكوا في كل إيمانهم ويشكون أن تلك الأشياء التي حكاها لهم آبائهم نقلًا عن أجدادهم كانت موجودة من الأساس.

والكثير منهم اعتنق دين كيفاد العالمي سرًا وعلانية.

لقد كانوا يعلمون إن كيفاد تعلم عنهم كل شيء لذلك تستثنيهم حينما يعتنقا هذا الدين سرًا.

ولكنها كانت تسمح لهم بممارسة شعائرهم السرية، ومن حين لآخر تقبض على أحدهم وتقوم بالتنكيل به علانية.

*****

عاش جون والتر أيام غير صادقة مع نفسه.

لا يعرف لحياته أي مغزى، كل ما تبقى من حياته من مغزى أن يحافظ عليها، لقد كان والتر أعلى رتبة من سوالكوفا برغم أنها كانت أكثر انضباطًا منه، لقد كان يحلم أن يكون في مجلس قبضة القائد.

ولكن هنا لا يوجد شيء هنا يوجد هنا تلك المعتوهة سوالكوفا، إنها تشبه الماكينة

لا تفعل أي شيء سوى أنها تضع قوانين صارمة لكل شيء.

تنظم الطعام كما لو كانوا يعيشوا ألف سنة هنا.

تقوم بترتيب وصناعة أدوات دفاعية من كل شيء.

تستكشف تلك الأشياء التي لم يكونوا يعرفون عنها شيء مطلقًا.

الأشجار والنباتات والحيوانات كانوا يعرفون أنها في المخزن العظيم وحسب، لكن أين يقع المخزن العظيم هذا؟!

والتر يفكر في قرارة نفسه: لا نعرف، كان القائد العالمي فقط الذي يعرف، كنا نطيع الأوامر.

يجلس وحده في وقت الراحة، يتذكر الأيام الخوالي في كيفاد، لقد شاهد نشأة كيفاد بنفسه.

كانت كيفاد مجرد منظمة صغيرة في البداية تعمل على تصنيع السلاح، لقد صعدت بسرعة عالية حتى استولت على العالم، استولت على التاريخ والمستقبل في سرعة عالية، لا نعرف عنها أكثر من ذلك، ولكنه يعرف مولده حينما رفعوا عن عينه الغطاء الأسود ليشاهد العالم الأبيض كيفاد، كان العالم كله أبيض في ذلك الوقت، لقد كان جنديًا منذ اليوم الأول في جيش كيفاد، ولا يعرف شيئًا إلا الجندية، علموه القتل، وعلموه التجسس، وعلموه كل فنون جيش كيفاد، ودرسوا له التاريخ كاملًا، لقد كان يستوعب بشكل مثير جدًا أبهر كل قادته.

لقد فعل الكثير حتى يصل إلى تلك المكانة وفي النهاية انتهى كل شيء بنفس السرعة التي بدأ بها.

لماذا لا ينقذوه؟

لماذا لم يبحثوا عنه إلى الآن؟!

قطعت عليه سوالكوفا خلوته:

-ماذا تفعل والتر؟!

والتر: أحاول استعادة ما تبقى مني.

سوالكوفا: ماذا؟

والتر: دعيني وشأني، ماذا تريدين مني؟

سوالكوفا: كنت أريد أن أريك السلاح الجديد الذي صممته؟!

والتر: لماذا نحتاج السلاح؟

سوالكوفا: يجب أن نصنع السلاح، نحن من كيفاد!

والتر: أين كيفاد؟! لم نعد في كيفاد أيتها الساقطة؟! ربما لم يعد هناك كيفاد من الأساس!

سوالكوفا: أنت تقول هذا؟! أنت الذي علمتني أن كيفاد تعيش في داخلنا، كيفاد ليست التصميمات المعمارية الشاهقة وليست التطور، إن كيفاد تعيش فينا، هي مجموعة من الأفكار نعتنقها، أليس كذلك؟!

والتر: لقد انتهى كل هذا الهراء، لنقضي أيامنا هنا وحسب.

لمعت عيناها ببريق يخطف أبصار الأفكار من العقول قبل أن تضيق لكي تخفي ذلك، تركته وذهبت إلى حيث لا يوجد هو، أفعى رقطاء تصدر فحيحًا من عواء الفكر الذي علموها إياها، تتدبر في الحيطة ممن لا حيلة له، رجل لم يعد له من حكمه شيء فسلم أمره إلى الهوى وتريد التدخل في أهوائه. أي امرأة!

تعود إليه وتخبره:

- يجب أن نتزوج حالًا أريد طفلًا أيها العقيم!

غضِب... لا يريدها مع ذلك وجد في فكرة وجود كائن غيرها ملاذًا له من تخلفه الذي يعيشه مع تلك الغابرة، فعل معها ما يجب فعله لإنجاب طفل، لعلها تموت أثناء الولادة أو يقتلوها حينما يكبرون بسبب قوانينها العاهرة وينتهي منها.

إنه لا يعرف متى تَولَّد في قلبه هذا الفكر، ومتى أصبح يكره كيفاد؟! بل السؤال الذي يطرح نفسه متى أحب كيفاد؟!

إنه يشعر أنه جُبل مرتين:

- مرة لا يعرف عنها شيء تقبع في أعماقه، ومرة أخرى حينما وعى على وجود كيفاد.

شعور يطرق على قلبه بما لا يمكن أن يعتقد أنه موجود، كيف يبحث عن ما هو غير موجود؟!

على الجانب الآخر سوالكوفا تدبر.

في الليل يجتمعا بعد أن أخمد فيها جذوة شهوة لا يشتهيها ترك ظهره ليستوي على تلك الحبيبات التي تغطي الأرض، يسمونها في التاريخ الجيولوجي لكيفاد:

-رمال

وأرض كيفاد أفضل منها، أرض كيفاد صنعت من الألياف الصناعية التي لا يمكن أن تحتوي على حشرات أو جراثيم أو أي نوع من أنواع البكتيريا والفطريات.

مع ذلك هو مسترخي عليها كما لم يسترخ من قبل، شعر أنها لينة وأنه بصورة ما ينتمي إلى تلك الأرض، يستوي عليها وبصره يطلق الشوارد في ذلك الفضاء الفسيح الذي لم يكن يراه أيضًا في كيفاد، لم يكن هناك سماء في كيفاد!

أطلق السؤال في غفلة أن سوالكوفا تستطيع أن تجيبه:

-أين كانت تلك الأرض التي نحن عليها الآن حينما كنا في كيفاد؟

أجابته:

-وفقًا لقواعد كيفاد أنت أعلى رتبة مني لذلك لا يمكن أن تسألني.

امتعض من ذلك الصنم الذي كان يرقد بجانبه، حاول أن يتشرب قليل من كئوس الصبر لكي يخلق حديثًا ينجيه من وحدته مع نفسه حتى لو كان حديثًا ضلالًا في ضلال أردف:

- وبصفتي أعلى منك رتبة في كيفاد من حقي أن أعطيك أي أوامر أريدها وأنا أوجه إليكِ الأمر مباشرة بالإجابة عن سؤالي: أين كانت تلك الأرض حينما كنا في كيفاد؟

أطرقت شاردة:

-لا أدري لو كانت تقنعك هذه الإجابة، لكن من المفترض أن هذه الأرض قد انتهت تمامًا وفقًا لتاريخ كيفاد العالمي، هنا يوجد أشياء لم نقرأ عنها إلا في أساطير كيفاد.

قام من مرقده ليخرج إلى داخل ذلك المكان، لم يغادرا موقعهما إلا بحثًا عن الطعام منذ أن جاءا إلى هنا.

يسير حيث لا يوجد هدف من السير ويمشي حيث يبحث عن ما لا يستطيع أن يحدده، يُحدث نفسه:

-لا يمكن أن يكون الطريق الذي اتبعته هو الصحيح ولكني لم أختر هذا الطريق، لقد أُرغمت عليه، ما الفرق بيني وبين العربي الذي كنت أعتقله وأغرقته سوالكوفا، لماذا أنا حي إلى الآن؟

يسمع صوت حرفشة من حفيف أوراق الشجر، يظن أنه الهواء، يصدر الصوت بغير تناغم يتناسب مع حركة الهواء فيعرف أن هناك شيئا ما يتحرك إليها، أهناك غيرهم على هذه الأرض؟

يتحرك فجأة ليجد حيوان يشبه الماديلا يتحرك.

الماديلا حيوان مصنع وراثيًا يزن أكثر من نصف طن، صنعته كيفاد لكي يكون رمزًا لتقدم صناعة السيلكون فلم يكن سوى ريبورت غبي، اقترب منه أكثر لكي يتأكد أنه ليس ماديلا، إنه يشبه الماشية، في تطور الأحياء البيولوجية أنهم قتلوا الماشية جميعها التي في الأرض لأنها كانت تسبب مرضًا فيروسيًا يسمى سرطان الفيروسات، حيث تقوم الفيروسات بتصنيع خلايا سرطانية في أي جهاز من أجهزة الجسم تنتقل إليه العدوى، كان مرضًا مزريًا وصوره

كانت بشعة، لقد شاهد إنسان أصاب المرض خلايا جلده فصنعت له شيء أشبه بقشور السمك متكورة على جسده كله لدرجة أنه لم يكن يرى بسبب تكور الجلد حول عينيه، ولم ينتهوا منه إلا بحرقه، وبعدها قاموا بتطوير الماديلا هذا من جينات الماشية الوراثية تهجينًا في الرحم، قاموا بحفظه مجمدًا في ثلاجات صناعات التغذية.

ولكن هذه ماشية كما بالصور التي رآها بالظبط، أوجس منها خيفة في البداية ثم اقترب على حذر منه، حاول الاستدلال على وجود أي أعراض للفيروس فلم يجد.

ما إن اقترب منه حتى وجد المزيد منه ومن الحيوانات الأخرى التى قيل لهم أنها انتهت.

لماذا هي هنا الآن؟!

ألوانها عظيمة، وطريقتها في الحياة رائعة، بسيطة للغاية وأليفة للغاية.

مد يده يجلب بعض من أوراق الشجر ثم وضعها في يده فبدأت تلعكه من يديه تأكلها، لماذا تلك الأرض موجودة؟

لماذا نحن هنا ولماذا؟ يشق السؤال رأسه ألف مرة!

ولكن الحياة استمرت، لم يخبر سوالكوفا عم رأى، فقط تركها تكتشف ما تكتشفه بنفسها، تفعل تلك الأفعال التي تفعلها روتينية في يومها.

تخزين الطعام وصناعة السلاح وتخطيط الأرض وصناعة المخابيء.

لاشيء سوى ذلك.

بعد شهور بدأت سوالكوفا في الشعور بأعراض الحمل، مع ذلك حرضها حسها الطبي أن يكون حمل كاذب، صاح فيها والتر: أن بطنها بدأت بالتمدد للأمام وكل يوم حجمها يزداد.

عنفته: أنت لست هنا، أنت كل يوم تذهب إلى حيث لا أجدك.

أغمض عينيه، إنه يريد أولاده، لا يريدها، ولا يريد أن يستمع إلى صوتها الجامد، لو كانت في كيفاد ما طمحت منه في نظرة واحدة، ولكنه كان يشعر تجاهها بشيء من المودة، ربما لأن هذا الزواج هو الزواج الصحيح الذي شهده منذ مولده، في كيفاد كانت شيوعية الجنس فرض عين على كل مواطن في كيفاد، فأي امرأة وأي رجل بالتأكيد كانا قد تضاجعا في كيفاد، في كيفاد لم يكن هناك زواج ولم يكن هناك حرام، أنت تنجذب إليها بدافع شهوة بيولوجية ليس لك حكم عليها، هي تبادلك ذلك، إذا فلتكن ليلة واحدة.

لم يكن والتر يفكر في النساء من الأساس ولم يكن من صنف الرجال الذين يشتهوا النساء بأي شك، كان كل همه في أن يصبح أقوى شخصية في كيفاد.

حاول ترطيب آلام الحمل عليها، جمع لها بعض الثمار التي كانت تنمو طازجة بعيدًا عن تلك التي كانت تخزوليستة ثم بللها بالماء وتركها تختمر في ليلة قمرية هادئة، ذاب سكرها وبردت مياهها فتحسنت أكثر، طاب طعمها لها، لم تكن تأكل لكي تتذوق ولكنها تذوقت، أثقلها الحمل أكثر وأكثر مع الأيام، توطدت العلاقات بينهم أكثر وأكثر، بدأ يجد في الحياة أن هناك لها معنى، هو يخاف عليها بشيء ما غريزي في داخله، ينتظر طفله وهو الذي لم يجرب شعور أن يكون أب في أي يوم من أيام عمره.

جاء اليوم الموعود بدأت آلام المخاض، لم يكن والتر طبيبًا لكن سوالكوفا سبق وعلمته كيف سيتصرف في مثل هذا اليوم.

تمنت ألا يحدث أي مكروه للطفل، تمنت ألا تكون الولادة متعسرة أو تحتاج إلى شق بطني أو غيرها من تلك الأشياء فقط ولادة طبيعية وحسب.

تعرقت وأصدرت الأنين تلو الأنين حتى وصل الأمر إلى الصراخ.

حاولت تأبط الألم بين جنباتها كي لا تظهر ضعيفة أمام والتر، ولكن الألم كان أكبر من أي شيء.

على مدار ساعات انتقل بها الألم من سيء إلى أسوأ، هبطت الطفلة في سلام ممسكة بيد أختها، طفلتان وليست واحدة فقط.

لقد أصبحا بالفعل أدم وحواء.

*****

سار مهند وطلال بمحاذاة الشاطىء، بعد مسيرة يوم بدأ الطريق يتوعر، الأخضر اختفى وصار صحراء شبه قاحلة بلا نهاية، قررا ألا يستكملا الرحلة ويعودا من حيث أتيا.

في طريق العودة شعرا بأن هناك من يتعقبهما، اتَّخذا من مقام الشجر درعًا وبدأ في صناعة أدوات للدفاع عن النفس، خزنا الطعام، حاولا معرفة من يتعقبهما ولم يفلحا، ظناها هواجس أو وساوس.

ثم ضاع الصوت من حولهما كأنه لم يكن.

مهند: ربما سنظل هنا للأبد يا طلال.

أجابه طلال: ما رأيك بأن تنعتني بـ "أخي".

مهند: لا أحتاج نعتك، فهذه الظروف جعلتنا إخوة.

طلال: وربما حكمت علينا أيضًا بألا نتحدث إلا لبعضنا طوال هذا العمر.

فجأة ظهر لهما ما لا يتوقعانه، رجل كث اللحية، غزير الشعر، حينما تتطلع عليه يمتلىء منه قلبك رعبًا.

أهو من كيفاد؟

إنه لا يشبه أي بشر قابلاه قبلًا ولكنه بشر.

رجل ضخم يتحرك بتؤدة كأنه يحمل مثقال الجبل على كتفيه، لم يعرفا هل يخافا منه أم يقتربا؟

ربما شعور خالجاهما بألَّا يقتربا وفضول أوجب عليهما أن يتقاربا والفضول يغالب الخوف أحيانًا

نطق في لهجة إنجليزية واضحة:

- لا تتحركا، من سيتحرك سأقتله!

لم يفهم مهند حرف مما قاله الغريب، بينما طلال أجابه بنفس اللغة: لن نتحرك اهدأ لسنا من كيفاد، ثم اتجه إلى مهند يترجم له، استعجب مهند مما يسمع:

-ماهذه اللغة؟

طلال: إنها الانجليزية اللهجة الأولية للغة العالمية حيث كانت تتكلم بها الدول الحاضنة لكيفاد.

تدخل رجل الكهف:

-ماذا تقولوا؟ لا تنطقوا بشيء بلغة لا أفهمها!

أجابه طلال:

-إنه لا يفهم الانجليزية وأترجم له ماتقول، نحن لسنا أهل حرب ولم نأتي هنا مخيرين.

رجل الكهف:

- أنتم من كيفاد أنا أراقبكم منذ فترة ولم أفهم من لغتكم إلا كلمة كيفاد، كيفاد لن تقضي علي... لن تقضي علي، حتى لو اضطررت لقتلكم وإن أرادت كيفاد أن تأتي إلى هنا ستدفع الثمن.

طلال: رويدًا رويدًا... سأشرح كل شيء لك بالتفصيل.

سرد له طلال كل شيء بالتفصيل مما حدث لهم أثناء الانطلاق وأثناء الوصول إلى هنا.

قصة تبدو منطقية إلى ذلك الحد، الذي لا يمكن أن تصدقه كيف عبرتما محيط كامل من جزيرة المواد الخام إلى جزيرة المكتبة؟ هكذا سأله الرجل الغريب.

أجابه طلال: ربما يكون سؤالك هو نفس سؤالي ماهي جزيرة المواد الخام وماهي جزيرة المكتبة وماهو المحيط؟ ألم تنته الأرض؟

أجابه الرجل كث اللحية: بل بما تقول تكون كيفاد قد انتهت، كيفاد صنعت أرض كأنها فوق الأرض، بعد أن اخترعت تلك التقنية الغبية التي مكنتهم من زرع الأدمغة الصناعية

قاطعه طلال:

– أدمغة صناعية؟! ماذا تقصد يا هذا؟

أجابه:

– اسمي وايت، أوهكذا كان اسمي قبل ما فعلته كيفاد بالأرض، دعني أجيبك على سؤالك، في عام ٣٠٠٠ ميلادية كان العالم يحتفل بقدرة أحد المخترعين يسمى جيمس واكس على اختراع شريحة يمكن زرعها في المخ في منطقة الحصين حيث تمتلك الذكريات، كانت تلك الشريحة تخزن عليها جميع المعلومات على شكل سيالات عصبية يمكنها أن تُنتج بقدرة من تحكم الفرد ذاته وبمجرد تحميل أي معلومات عليها تقوم بترجمتها الى إشارات كهربية مثل التي تخرج من المخ تمامًا، بتلك الطريقة كان بإمكانك أن تتعلم أي شيء في نفس الوقت الذي يمكنك فيه تحميل لعبة على حاسبك الآلي، أقبل الكثير من الناس على تلك التقنية وكانت كارثة، لقد أصبح الأشخاص جميعهم سوبر مان.

طلال:

– ما الضرر في ذلك، هذا اختراع مفيد للبشرية، ما علاقته بتدمير كيفاد للأرض؟

وايت: كيفاد تمكنت من القرصنة الإلكترونية على موقع شركة جيمس واكس صاحبة الاختراع. بتلك الطريقة تمكنت كيفاد من تحميل معلومات كاملة للإعلان عن أرض فوق الأرض، أرض كيفاد الفاضلة حيث كل شيء جيد وكل شيء ممتاز، تناسبت تلك المعلومات مع حلم الإنسان بالمدينة الفاضلة الذي طالما حلموا به.

طلال: الآن فهمت، والبقية بالطبع معروفة قاموا بشحن الناس إلى تلك الأرض ثم الإدعاء بتدمير الأرض واعتمدوا على حديث الأديان عن يوم القيامة وهكذا ثم كَذبُوا الأمر بعد ذلك وبالتالي كذَّبوا الدين وتكونت كيفاد الملحدة.

وايت: ليس هذا كل ما في الأمر، هناك أناس لم يكونوا قد قاموا بتركيب الشريحة في رءوسهم نظرًا لتكلفتها ومع ذلك اتبعوا كيفاد، وقاموا بالتسجيل في الهجرة إلى كيفاد.

طلال: الأدمغة المعتوهة، هكذا كانت تسمينا كيفاد، وذلك أيضًا يفسر اختلاف مستوى الذكاء بيننا وبين هؤلاء الذين كانوا يتحكموا في كيفاد.

وايت: لا أعرف ما الذي حدث لهم في كيفاد، ولكن الأرض عاشت تلك الأيام العصيبة التي لا يمكن وصفها، لقد شاهدت أناس يهربون من كائنات لا وجود لها ومن أشياء لم تحدث من الأساس.

كانت شاشات التلفاز تعرض صورًا لمواقع في الصحراء خالية، ثم تجد القوم يهرعون بشكل هستيري من البيوت إلى نواقل كيفاد حيث تنقلهم إلى الجنة.

طلال:

- ألم يتبق أحد.

وايت: كل من تبقى قتلتهم كيفاد، قامت بتفجير العديد من الرءوس النووية في قرى بأكملها، ملأت رائحة الدم العالم كله، وظهرت تلك الجراثيم وتلك الفيروسات، وتلك الكائنات المهجنة العقيمة نتيجة جنون العلم، ظهرت لتؤكد حقيقة كذب ما تقوله كيفاد.

طلال: وأنت؟... كيف نجوت؟

وايت: كنت أعمل في وزارة دفاع المملكة المتحدة البريطانية، استطعت الحصول على خريطة تسمى المتاحف الباقية the rest museum تلك الخريطة هي خريطة لبعض الجزر احتفظت بها كيفاد على طبيعتها وحفظت فيها بقايا الأرض وكل جزيرة تشتهر بشيء مميز لها تسميها بها، هنا بالطبع المكتبة وأقرب الجزر لنا هي جزيرة المواد الخام.

طلال: وبقية الأرض.

وايت: خرابًا فوق خراب، لم يبقَ حجر على حجر إلا والوباء والإشعاع قد ملأه.

طلال: ثم سقطت كيفاد بنفس ما صنعته.

وايت: كيفاد سقطت، لقد استوطنت كيفاد كوكب في الفضاء وحولته إلى أرض أخرى.

طلال: لم يعد هناك وجود لذلك الكوكب، كيفاد كانت تعيش في بعض السفن في المحيطات،

وعلى الفور ترجم طلال لمهند الحديث ثم أردف: وما يدريك لعل سفينتنا فقط هي التي تحطمت.

طلال: لو أن السفينة فقط هي التي تحطمت لم يكن ليجلبونا إلى هنا قط. كان المكان الوحيد لنا هو الموت، لقد أرسلونا هنا لكي تستمر الحياة، لعل من يتبقى ينقذهم.

وايت: ربما، ولكن عليكما أن تعلماني لغتكم تلك وعلى مهند أن يتعلم الإنجليزية أيضًا.

أتى المساء عليهم والحديث يأخذهم، أخذهم وايت إلى المأوى حيث يمكن أن يناموا، كان مكانًا مفتوحًا حيث تتسع الأرض في وسط الجزيرة بين الأشجار، يتلحفوا السماء ويتوسدوا الأرض، ويحلمون بأشياء لن تحدث.

كأن الحياة تضن، تصنع لهم المزيد، ثلاثة رجال يعيشون في العالم وحدهم

تعلموا اللغات، المزيد والمزيد من الكتب كانت المكتبة تمتلئ بملايين الكتب الورقية والمخزنة على ألواح ضوئية لقراءتها من الحاسوب، كان العلم كله مُخزن في تلك المكتبة، كانت عملاقة بحيث تظن أن العالم كله مخزن هنا، أكثر من خبرة ثلاثة آلاف عام تمت تعبئتها في مدينة واحدة، كان وايت قد اعتنق الإسلام والمسيحية واليهودية معًا وصنع ديانة جديدة لنفسه اعتنق فيها كل

الديانات السماوية وينفذ كل ما ورد في الثلاث أديان وما يجده مختلفًا ينفذ ما يدور في رأسه وحسب.

اعتنق عقيدة التوحيد الإسلامية كاملة وأحب المسيح تمامًا مثلما فعل المسيحيين ولكنه لم يقتنع أنه إله أو روح الإله.

مع الوقت ومعايشة طلال ومهند اعتنق الإسلامي تمامًا خالصًا، ربما اعتنقه بدافع أن يتآلف مع قومه وربما اعتنقه اقتناعًا، ولكنه فعل أعظم الأشياء لمهند وطلال.

لقد أخذهما ذات يوم إلى خزينة كبرى في المكتبة، رفع الغطاء عما فيها وجدوا المصحف الشريف كاملًا

كانا طلال ومهند يحفظا كتاب الله كاملًا، ربما طلال لديه بعض الصور التي ينساها ولكن مهند يحفظ كتاب الله أكثر مما يحفظ أي شيء، بكيا وأصدرا نحيبًا طويلًا

إنهما لم يعرفا أن الكتاب المقدس مازال موجودًا أو ربما أن هناك نسخة مكتوبة منه في الأساس، لقد قامت الدول الإسلامية في أحد مؤتمراتها بإصدار قرار بالتوقف عن طباعة المصاحف توفيرًا للورق واستخدام المصاحف الإلكترونية ثم قامت حملة ما لإخفاء وسرقة الكتب عن طريق هؤلاء المبرمجين بالأدمغة الاصطناعية وفي لحظة واحدة تم حذف جميع الكتب، ولم يحفظ كتاب الله إلا المتبقي في الصدور مجودًا ينتقل في الظلمات وفي الأقبية في كيفاد، حيث يورث شفاهية ونقلا ولا يعلم لماذا تركوهم يفعلون ذلك.

مع ذلك استمرا في النحيب، استعجب وايت من مدى أهمية الأمر. ولكن حينما شرحا له أدرك أن عليه هو الآخر أن يبكي.

على الجميع أن يبكي ربما منذ بداية الأمر إلى هذا اليوم.

كيفاد سقطت وحدها دون أي تدخل من أي أحد، لقد أسقطت نفسها بنفسها، دون تدخل من أي أحد.

سقطت كيفاد... سقطت كيفاد. هكذا أصبح يصرخ مهند في وسط الجزيرة بلغة عربية واضحة. يتحدى العالم كأنه هو الذي أسقطها، إن مجرد بقاؤك بعد سقوط الطغاة هو انتصار!

لوهلة توقف طلال لكي يقطع صراخه: سقطت كيفاد إلا جون والتر وتلك المعتوهة التي رمتنا بالمياه.

انتبه وايت:

-من؟! هل كان معكما أحد من كيفاد؟

طلال: نعم كان معنا مفتش وطبيبة وهما من رمانا في البحر، لقد أخبرتك.

وايت: لم أنتبه

طلال: إنهم ذكر وأنثى ويمكن أن ينجبا.

وايت: لم تسقط كيفاد، سنموت ويبقون ليصنعوا كيفاد أخرى.

فجأ شعر مهند أنه انهزم مرة أخرى، حاول تضميد جراح هزيمة النفس البشرية قائلًا:

- لا يهم، المهم إننا لن نشاهد كيفاد مرة أخرى.

*****

في الجزيرة الأخرى الحياة مستمرة في روتينها المعتاد جون يعاشر سوالكوفا، وسوالكوفا تهتم بتغذية نفسها جيدًا ويتم انجاب طفلين كل سنة، في السنة التي تلت التوأم المؤنث أنجبت سوالكوفا توأم آخر ولكن هذه المرة ثلاثة: ولدان وبنت.

الولدان في كامل الصحة والعافية، أما البنت فحدث لها اختناق أثناء الولادة سيؤدي فيما بعد إلى ما يسمى بالشلل الدماغي، باختصار ستكون فتاة معاقة، ربما تفقد وظيفة الحركة أو الكلام أو غيرها من الوظائف.

أمسكت بها سوالكوفا، قامت بذبحها ثم القائها في الرمال ودفنها، فعلت ذلك بمنتهى الدماء الباردة، دون حتى أن تتردد لحظة فعلتها.

تفطر قلب جون والتر، لم يكن يعرف أن لديه قلب إلا في تلك اللحظة، تراكمت الأحزان في قلبه دون أن يدري حتى، سحابة من الحزن قتلت حنجرته دون أن تتكلم ببنت شفة، زادت عزلته أكثر وأكثر، وكره سوالكوفا وكيفاد أكثر وأكثر.

استيقظت سوالكوفا ذات يوم على رسالة تركها بجوار مكان نومها: لقد غادرت إني ذاهب إلى حيث يمكنني أن أجدني!

المعتوه، الخائن، القبيح، الدميم، الوغد، القذر، العفن، القاتل...يريد أن يقتل كيفاد، يريد أن يُنهي حياة كيفاد، كيفاد لا تنتهي، كيفاد عقيدة تعيش داخلنا وفكرة نموت من أجلها.

لماذا يفعل بي هكذا؟

من أجل فلسفة فارغة؟!

أهذا هو قائدي؟!

أهذا هو من المفترض أن تكون كيفاد قد فضلته عليّ؟!

ترك تكوين كيفاد أخرى، كل طفل كنا ننجبه كان يوفر المزيد والمزيد من الوقت، كان علينا أن نُنجب على الأقل أكثر من عشرين طفلًا.

كان يجب أن نكون جيش لكيفاد.

لماذا فعل هذا؟

أين ذهب ذلك المعتوه؟

سأقتله مرتين حينما أجده.

تاهت على وجهها في صحراء تلك الجزيرة باحثة عما يمكن أن تجده، صعدت أعلى قمة لكي تحاول النظر إليه، دارت حول الساحل لكنه اختفى

اختفى كأنه لم يكن هنا من البداية، استسلمت لكونها أصبحت وحيدة مع أربعة من الرضع يحتاجون للرعاية.

إنها لن تنام، لا تريد أن يصاب أحدهم بمكروه، هناك حيوانات مفترسة هنا، ولا تدري كل ما في الجزيرة يجب أن يكون عدوًا لها، أي غباء هذا الذي يمكن أن يجعل رجل يتركها هنا مع أولاده!

بالرغم من أنها ليست من الجيل الذي تم تركيب الأدمغة الصناعية له إلا أن رأسها كان أغبى من أغبى دماغ صناعي، يحجب الإنسان الضوء عن كل الأفكار التي قد يكون أحدها صالحًا بمجرد اقتناعه بأنه يملك الصواب وحده، لكن الحقيقة التي لا مفر منها، أن لا أحد يملك الصواب الكامل، ولا أحد يملك الحقيقة الكاملة، بل هناك البعض يصل إلى تلك الحقيقة عن طريق اجتهاده في مطالعة كل ما حوله من أفكار.

إنها قتلت طفلتها دون سبب سوى أنها رأت أنها لا تصلح للحياة وتستغرب من رجل يترك أطفاله لمجرد أنه لا يجد نفسه.

تراها فلسفة فارغة!

جون والتر صنع قارب صغير، وضع فيه ما يكفى من الطعام والشراب لمدة شهر، بالإضافة لجهاز صغير يمكنه من تحلية مياه البحر عن طريق طاقة الشمس، كان قد صنعه من كل ما تبقى من مواد خام في سفينته المحطمة!

إنه يستطيع أن يعيش على هذا القارب عام كامل يأكل السمك ويشرب مياه البحر المحلاة.

أخذ معه بعض الرقائق من الإنجيل والقرآن الكريم والتوراة، كانت نصوص اعترافات قام بتدوينها.

ركب البحر وانطلق، لا يعرف أين يذهب؟ وأين يمكن أن يذهب؟

استعان ببوصلة تمكنه من الرجوع، سيبحر في طريق الشمال، وإذا أراد العودة سيبحر في الجنوب نفس المسافة التي قطعها.

لقد سجن نفسه في البحر في ظاهر الأمر، ولكن في باطنه، وفي قرارة نفسه إنه يبحث عن الحرية...إنه يشعر بالقيد!

الإنسان هو ذلك الكائن الذي إذا أراد الحرية لا يمكن لكل قيود الأرض أن تمنعه منها، حتى لو سجنوا الجسد يومًا ما يمكن أن تنطلق الروح في خيالاتها.

ترك العنان لخيالاته تبحث عن الوجود.

*****

٣

كل من سعى بصدق سيصل الصدق

كل من سعى بصدق سيصل للصدق، كل من طرق الباب سيفتح له وإن تقلبت عليه الليالي والنهر، فالموت في الطريق وصول، والهزيمة على الأبواب انتصار، والبقاء حتى اللحظة الأخيرة فتح من الله، طالما الطريق تضيئه النوايا، فكل من أراد العلم سيتعلم!

*****

هذا التفكير ربما ولد مع الإنسان، التفكير الذي يجعل الإنسان يدرك أنه يعقل شيء وأنه يمتلك خطة كاملة لتسيير الكون،

بالرغم من أن حدود علمه وقواعد تكوينه أقل بكثير جدا من ذلك، ولكنه الوهم الكبير: أنه بمجرد معرفة جزء من الشيء يصبح لديك ذلك الوهم الجبار أنك تعرف الشيء كله!

*****

في جزيرة المكتبة لم يكن هناك مفر من العيش كثلاثة لا رابع لهم طلال ووايت ومهند، ولن يكون هناك رابع لهم في أي يوم من الأيام، نجوا ولكن لن يكن هناك نسلهم أبدًا في الوجود، عبدوا الله في الخلوات ومع بعضهم البعض، حددوا أوقات الصلاة من جديد، صاموا رمضان لأول مرة منذ أن خلقهم الله، قرأوا القرآن بشوق حتى كانوا ينسوا النوم أحيانًا وهم يقرءون.

تعلموا الكثير والكثير من العلم، تسلوا بصنع الكثير من الأدوات والسلاح وغيرها، عرفوا الطعام المطهي والنار وتمكن طلال من صناعة مولد كهربي صغير.

بدءوا في عد السنوات وقاموا بوضع التواريخ من بداية نزولهم إلى الجزيرة، كان وايت يمازحهم دومًا، ولماذا ليس قبل نزول جدي الأول وزوجته.

لقد هربت عائلة وايت إلى هنا وهو كل ما تبقى منه.

استيقظوا ذات يوم لكي يجدوا وايت على فراش المرض.

ارتفعت درجة حرارته ولم ترد أن تهبط أبدًا برغم كل ما فعلوه من تبريد لجسده ومن استخدامهم لبعض الأدوية التي صنعها طلال.

طلال كان يعرف الكثير والكثير من العلم وتعلم أكثر على النقيض من مهند الذي أحب الدين وعلم الدين مع ذلك بقى وايت على فراش المرض.

بدأ في القيء في اليوم العاشر، فقد سوائل جسده حتى لم يبقَ في جسده الطعام مسيرة دقيقة، بمجرد تناوله الطعام يخرجه ثانية، حتى عفت نفسه عن الطعام، فهزل جسده وضعف يومًا بعد الآخر.

حادثهم كأنه يهزو أو كأنه خرف الحمى: لقد جهزت قبري يا رفاق من قبل وأريد أن تدفنوني فيه.

مهند: ستشفى بإذن الله. وضع يده على رأسه وأخذ يتلو كل ما استطاع من كتاب الله.

طلال يعد المزيد والمزيد من الدواء.

كانت الأيام تأتي عليهم ليجلسوا الليالي يقيمونها ليصلّوا إلى الله، تخيل أن يستيقظ العالم فاقدًا ثلثه بالنسبة لك، الأمر هو كل الخيبة نفسها بالنسبة لهم.

احتار طلال في التشخيص كثيرًا وكثيرًا.

لم يجد من الأمر مفر سوى التسليم للأمر الواقع، لم يترك لهم وايت الكثير من الوقت ليستسلموا فيه، في غضون ساعات وعندما كان طلال يتفحصه شعر أنه قد فارق الحياة جرب كل ما قرأه في الطب ولم يفلح هتف صارخًا القراءة وحدها لا تنفع دومًا.

أخذوه تطيبًا وتغسيلًا على شعائر الإسلام كما تعلموا من الكتب وذهبوا به إلى حيث يريد أن يُدفن، كانت غرفة واسعة جدًا ومظلمة جدًا تحت الأرض بدرجات متفاوتة، أهالوا على وجهه التراب ثم أغلقوا القبر عليه ليواجهوا انتظار ما تركوه خلفهم، هذا هو أقوى شعور سيسيطر عليهم، أن ما تركوه خلفهم سيلقاه أحدهم والثاني لن يجد حتى من يدفنه، صحيح أن أعمارهم ما زالت صغيرة ولكن ما الفائدة من الانتظار؟

ما الذي يمكن أن يختلف إن حدث الأمر بعد يوم أو عام إن كان الانتظار لن يغير من الأمر شيء؟!

اختل الإيمان في قلوبهم وضاعت تلك الغاية التي دومًا قرءوها في كتاب الله: وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون.

لماذا نحن هنا؟ ولو كنا هنا نعبد الله ونعيش تلك الحرية الكاملة التي خسرناها في أيامنا الأولى، فهناك سؤال أخر يطرح نفسه: ما الذي ننتظره هنا؟!

ربما لو طرح هذا السؤال نفسه مرة قبل ذلك حينما كانا مقيدان لم يكن ليكلفا نفسهما للبحث عن الإجابة، لقد كانا يبحثا عن الحياة أولًا.

تلك هي الحاجات الإنسانية.

تتدرج بداية من بحث الإنسان عن الأمان و الطعام والشراب، ثم تتدرج لكي تصل إلى البحث عن الذات. الغريب أن في كل حاجة من تلك الحاجات يفعل الإنسان كل شيء من أجل الحصول عليها، وفي كل حاجة من تلك الحاجات يختصر الإنسان الحياة كلها في الحصول على تلك الحاجة!

ذهبا إلى النوم ليتركا وجهيهما يتقلبا في السماء طالبين الإجابة.. ما المغزى؟!

استيقظا على نفس السؤال الذي ناما عليه، ربما كان السؤال قبل ذلك غير ذي أهمية، ولكن حينما شاهدا النهاية تكسرت الطموحات على حين غرة، مغرور هذا الإنسان بأحلامه في الوجود أكثر من اللازم، يدبر الأمر كما لو أنه خلق نفسه!

ولا هو يستطيع تدبير حتى جزء من طعامه ولا هو قادر حتى على أن يخلق بعوضة فما فوقها، ثم يتعنت ويتجبر سائلًا:

-ماذا أراد الله بهذا مثلا؟!

قلوبهما وجلت، وعزائمهما وهنت، ومع ذلك تركا أمرهما للاستسلام لحقيقة الإيمان التي وجدا فيها استراحة للنفوس بعض الشيء، ولكن إيمان دون عزيمة هو إيمان فاتر ليس به وقدة الصدر ولا حرقة الدعاء ولا أمل الرجاء!

في قبر وايت كان الأمر مختلف بعض الشيء، فبدلًا من السكون الذي يجب أن تلزمه الماديات في قبر، نفض وايت التراب عن جسده وكشف عن وجهه لثام الكفن، تحرك ليضغط أحد المفاتيح التي فتحت بدورها درج إلى قبو أكثر ظلمة، لم يكن يحتاج للضوء فهو يعرف الطريق جيدًا حيث النهاية، بعد القبو المظلم ضغط مفتاح آخر لينزله إلى درج يتبعه قبو يتبعه درج يتبعه قبو آخر.. في النهاية انتهى الأمر بغرفة اجتماعات ضخمة تحيط بها الحواسيب من كل ناحية، وما إن دخل وايت إليها حتى أضاء الأمر برمته على شاشة تتوسط تلك الحواسيب، كالصورة المعتادة لم تكن تلك الشاشة إلا عارضة لمجموعة خرائط تمامًا كشاشة الرادار، صدر الصوت الآلي من الحواسيب: من كيفاد إلى العميل وايت، برجاء إدخال تقرير العملية " تحري ٩٥٢ "

وايت: إنهما شخصان عائدان من كيفاد نتيجة تدمير سفينتهما وتم لفظهما مع أحد قادة كيفاد يسمى جون والتر ثم قام بالتخلص منهما ظنًا منه أن لا وجود لأرض أخرى بجواره فتركهما في البحر!

الحاسوب: برجاء الانتظار سوف نبحث عن المعلومات الموضحة.

بعد دقائق من الانتظار عاد الصوت الآلي ثانية: لا يوجد بيانات موضحة بالطريقة الذي ذكرته.

*****

ما الفائدة من الوجود في هذا الكون؟

كان يسأل نفسه وهو يهيم في ظلمات بحار لا يعرفها، لا دليل له إلا ضوء القمر، تراجع والتر عن السؤال، شعر بأن حياته السابقة كلها كانت فارغة وليس بها أي مضمون، الغريب أنه شعر ذلك بعد انقضاء ثلثي عمره، لقد كانت كيفاد تقتل كل من يتجاوز الستين من العمر، كان العمر ينتهي في الستين إلا هؤلاء الذين يستطيعون إثبات أنهم قادرين على الإنتاج بعد ذلك اليوم، ماهو السؤال الذي عليه أن يجيبه؟

ما هو الكون؟

من أوجد الكون؟

من أوجد الذي أوجد الكون إن كان هناك من أوجده؟

أين تنته تلك الأسئلة من المهاترات التي لا تنته!

أهي حقًا مهاترات؟!

ما هذا الشعور الذي يختلج قلبه ويزلزله حتى فقد عقله وغادر الجزيرة؟!

البحث عن الوجود، كل هذه الأشياء كان أحيانًا يُعدم من يؤمن بها طوال فترات حياته فلماذا يؤمن الآن أن عليه أن يجيبها، ربما أن من أعدمهم كانوا يؤمنوا بإجابة وهو لا يملك!

ما الذي يحدث؟!

أهو الفناء الذي يهدد الشخص بجعل حياته غاية غير مفيدة؟!

هو لا يدري...قلبه يريد أن يسجد وعقله مسلسل بألف عام من الإلحاد والكفر في الظلمات، عيني قلبه يريدا أن يستوعبا نور الإيمان ما لا تقدر حدقتيه على الاتساع بشكل كافي لتقبل الأمر.

من أين أتت كل تلك الأفكار التي لم يعرف عنها شيء ذات يوم؟!

وكيف طفت على السطح هكذا لكي يفكر فيها الوعي بتلك الصورة؟!

لماذا لم أكن مثل تلك المعتوهة سوالكوفا؟!

يغالبه الجوع وهو في البحر ولا يشعر به، الجوع يطغى عليه، ولكن جوع الحقيقة يقهر جوع الأمعاء، لم يجد مفر من البدء بالتساؤل الأول، ذلك التساؤل الذي تاه الجميع بسببه، من أوجدني؟!

إن كنت أريد البحث عني فعلي البحث من البداية، من أوجدني؟!، كيف انتقلت من مرحلة العدم إلى مرحلة الوجود؟!

الإجابة في كيفاد عن ذلك السؤال هي: أن لا تسأله!

والإجابة عند هؤلاء المعاتيه الذين كان يستجوبهم كانت إجابات جامدة، لا تغير من واقع قناعاته شيء، مع ذلك كانوا يستميتوا على الفكرة حتى الموت، قليلون هم من استطاعوا الكفر بما يؤمنوا بمن وحدوه أثناء التعذيب، بعضهم كان يردد أحد أحد حتى بعد زرع الدماغ الصناعية داخل دماغه، وظل على تلك الحالة من ترديد تلك الكلمة حتى انفجرت رأسه من فرط زيادة الشحن الكهربي لرأسه لكي يغير أحد أحد!

مع ذلك هو لا يعرف إن كانوا على صواب أم لا!

سوالكوفا نفسها تقتنع بكيفاد مثل ما هم يقتنعون بوجود الإله، بدأ يفكر بطريقة ما محاولًا الوصول إلى الحقيقة، الحقيقة التي لا يعلم عنها شيء، ولا يعلم لمدخلاتها شيء، تمامًا كما يحاول البحث عن شيء لا يعرف له شكل من

الأساس، ولكن قلبه يدفعه لذلك، يدفعه بطريقة غريبة لا يجد لها مفر ولا يجد منها مفر، بل لا يحاول من الأساس أن يجد مفر!

في البحر وجد سربًا من الأسماك كبيرة الحجم، تسبح قافزة خارج الماء ثم تعود إلى الماء ثانية، تفعل ذلك بمهارة فائقة في سرب متضح كيمياء حركته كاملة، تناغمية وتناسقية مبهرة، لا توجد سمكة واحدة حتى تصطدم بأخرى!

اتجه السرب نحوه وظن أنه هالك باصطدامهم به، لكن لم يحدث ولم يصطدموا، تجاوزوه كأنه مسجل في رأسهم، أحد تلك الأسماك كان على غاية القرب من قاربه، أمسكه احتضانًا وقفز به إلى القارب، ظل ممسكًا به قاضيًا على كل رغبة في تلك السمكة للعودة إلى الحياة حتى اختنقت وماتت، أخرج من جيبه سكينا حادًا للقتال كان قد اصطحبه معه، وقام بتشريحها، فتح رأسها وفقًا لتعليمات التشريح البيولوجي التي تعلمها في كيفاد، لا تمتلك قشرة مخية مثلنا ولكنها تمتلك أجزاء كبيرة من الدماغ، نحن نمتلك قشرة مخية، نحن أذكى منها، نحن لا نستطيع أن نفعل ما تفعله إلا ببعض الأجهزة، لكن لا أحد يعوم بتلك الطريقة، قام بتشريح بقية الجسد ليجد مخازن للزيوت في جسدها تختلف عن تلك الموجودة في الإنسان، إنها تمتلك مالا نمتلكه، إنها مصدر طاقتها!

كيف يمكن لكل تلك الأشياء أن تصمم بتلك الطريقة؟!

هاجمته ذكرى كيفاد مرة أخرى، كيفاد لم تكن تحتوى على كل هذا التنوع البيولوجي، اللهم إلا في بعض الصور من المجلدات التي تروي لهم التاريخ الأسود كما كانت تقول كيفاد!

من أين له بالحقيقة والروح مسروقة والقلب مفقود والعقل على العروش الخاوية؟!

حينما أفل عليه الليل وجد القمر نظر إليه، كيف عبدوك في الأيام الخالية؟

حينما أشرقت عليه الشمس، احتمى من حرها في مظلة قاربه، حتى هى تعجب من عبادتهم لها.

كل الآلهة التي عبدها البشر في يوم من الأيام كانت تُمثل المجهول، حينما كان المجهول هو القمر أو الشمس أو أي ظاهرة، عبدها البشر، ولكن حينما عرف سر تلك الأشياء، حينما دبت قدميه على سطح الأرض وعرف كل مكونات الشمس واقترب منها بعد اختراع الفولاذ المشع كفر بكل تلك الأشياء!

على الرغم من أن التاريخ الحقيقي يوضح أن ثمة من عبد تلك الأشياء حتى بعد أن تم معرفة حقيقتها، إلا أنه مازال لا يستوعب!

ثم بدأ يضرب بتفكيره في أعماق ذاكرته أكثر، تذكر ذلك المعتقل الذي قص عليه قصة نبي يسمى إبراهيم، وقصة تدبره في بحثه عن الإله، لكنه وفق الرواية كان نبي، والأنبياء في عرف هؤلاء الله يخاطبهم، لذلك وجدوا الحقيقة.

لثانية هاجمته فكرة نطقه للفظة الله، الله، الله، الله... وجد شيء من حلاوة مياه باردة انسكبت على قلبه حين النطق، بدأ في ترديد الكلمة، يرددها دون سبب، يرددها في الفضاء وسط الظلمات لعلها تضيء من حوله شيء، لعل قلبه يمتلئ بشيء!

لم يكن ذكر، لم يكن تسبيح بأي غرض، ولم يكن أي نوع من أنواع العبادة التي عرفها من استجوابات المعتقلين، كل هذا هو لا يعرف عنه شيء!

إنه أمر آخر، إنه نداء!

ليس نداء رجاء أو نداء تعبدي أيضًا!

ولكنه نداء من أنهكه السفر وأرهقته بيداء البعد عن الذي لم يعرفه يومًا وتقوده فطرته نحوه، نداء الذين لم يجدوا لهم في سبيل العناد والعتي طريق، فبحثوا عن ملاذ!

تعرى أمام نفسه، وتعرى من الوجود كله الذي عاشه سابقًا وأطلق لسانه ينطقها حتى لو لم يؤمن قلبه بعد، ترك الحياة تستقر في جسده إجبارًا، شعر أن هناك شيئًا ما يستل إلى قلبه خيفة إعراض الجاهلية الأولى، ارتاح فواصل الله، الله، الله

يردد حتى يجف حلقه من المادة وتنتعش الروح من ظمأ الجحود الذي تربى عليه.

دخل الليل عليه ولكنه في هذه المرة لم يكن ليل كأي ليل، البحر تلون بلون قرمزي مشع كأنه حبات لؤلؤ سالت وليس جزيئات مياه، تذكر استجواب كان يستجوبه لأحد المسلمين على كيفاد، كان استجواب عقليًا حيث يرهق العقل بطرق بشعة للغاية، أبسطها هو توصيل الدماغ بكاثودات كهربية، تغير من كهربية المخ وتجعله في نشاط عقلي متوقد ومستمر ثم يبدأ في محادثات عقلية شديدة، لم يكن أحد يصمد للإجابة على سؤال واحد بعد ذلك الأسلوب من التعذيب، إلا شخص واحد صمد حتى مرحلة الإجابات العقلية وحينها سأله جون سؤالًا واحدًا: ماذا عن الذين لم يُرسل إليهم رسل من الأساس ولم يعرفوا أي شيء عن الدين أو غيرها؟

أجاب المعتقل بأحد آيات القرآن:

-وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا.

بينما يفكر في ذلك الاستجواب حتى لمعت في عين والتر ذاك السؤال:

-أين رسولي؟

هؤلاء المسلمون أرسل الله لهم الرسول الذين يريدونه وبلغهم جيل بعد جيل، المسيحين كذلك، اليهود... جميعهم!

كيف لي أصدق ما يقول هؤلاء؟!

ظل السؤال يتضخم في رأسه شيئًا فشيئًا حتى ذهب إلى الحديث العلني، صرخ بأعلى صوته في الفضاء:

- أين رسولي؟ أين الرسول؟

جاءه الجواب، لم يكن هذا الجواب إلا صدى صوت في الفراغ:

-الرسول... سول...ووول!

اغتاظ، كأنه كان يريد جواب بالفعل، بل كأنه أمام من يحدثه حرفيًا!

عاد إلى البحر اللامع على غير عادته والمضيء على غير عادته أيضًا، من خارج البحر كائنات لامعة، مضيئة بشكل لا يتخيله، تتوهج كأنها مصابيح صناعية وليست كائنات حية، فور خروجها من الماء يخرج من بين ضلعيها أجنحة ثم تصدر نعيق كالبوم، ثم تطير إلى الفضاء!

إنها ليست كائنات رآها سابقًا في المتحف البيولوجي، فور الموجة الثانية منها قام بأسر أحد تلك الأسماك الطائرة، لم تكن كائنات بل كانت آليات، إنها روبوت من صنع كيفاد، بدأ يتخمر وجهه ممتقعًا بالأزرق!

كيفاد ما زالت حية؟ هل كيفاد تحاول الوصول لنا؟

قام بفتح تلك الإنساليات التي أسرها، لم تكن تحتوى إلا على كاميرا وأداة تصوير وداخلها ورقة مكتوب عليها باللغة العالمية:

- إن كنت فتحت تلك الآلة عمدًا فأنت معرض لغضب كيفاد في خلال خمس دقائق!

تذكر هذه ماهي إلا آلات لتتبع الباقيين خارج كيفاد، فور نطق أي لغة غير اللغة العالمية كانت تتجمع تلك الآلات لتلقط إشارات الموقع والصور وترسلها إلى كيفاد وبالتالي تقوم كيفاد بإرسال من يسحق هؤلاء!

كان يتمنى أن يكون منظرًا بديعًا وليس من صناعة كيفاد، توقف لحظة ليسأل نفسه:

-هل أصبحت ذلك المعتوه الذي يريد تسبيح خالق لا يتأكد من وجوده حتى يسد جوع الظمأ الفكري المستشري في نفسه؟هل حقًا كانت كيفاد على حق؟

ها هي كيفاد تثبت لي أنها خلقت شيء مشابه لسرب الأسماك؟ بل هذا ينير ويضيء؟

صرخ بأعلى صوته

- ثانية: أهذا هو الرسول؟ أطلب الإيمان فترسل لي ما يحير ويضل الطريق أكثر؟! أهذه هي الهداية التي وعدت بها من يشاء من عبادك؟ مزيد ومزيد من الحيرة هذا هو الرسول! أجبني! هل هناك خالق لهذا الكون كما يزعمون؟ هل أنت هنا؟!

إن كنت هنا اظهر لي وستجدني راكعًا ساجدًا، ولو لم أكن من الساجدين، ولو لم أكن من المسبحين، ولو لم أكن من الراكعين، أنا هنا أجبني أين أنت؟!!

في تلك اللحظة انطفأ البحر من نوره وخفت القمر مختبئًا وراء غمامة حتى زاد السواد سوادًا، وبدأ حفيف رياح ينذر بعاصفة عاتية، علا الموج كما لم يحدث من قبل في أي يوم من الأيام، وانفجر قلب البحر حتى صار طول الموجة ينافس ما ينافس من شواهق الارتفاع، أخذ البحر يمينة ويساره يطيح به في غضب جم، أما السماء فثارت أكثر، كلما حاول جون الصراخ وجد المياه في فمه تلقمه فلم ينطق، حاول الحفاظ على توازن القارب قدر المستطاع، جهاز تحلية المياه الصغير الذي كان يملكه، حاول التمسك به لكن البحر التقمه بمخزون المياه ومخزون الطعام الذي كان يملكه، غرق في أقل من لحظة ولم يكن حتى هناك فرصة لإنقاذه، استعاد توازنه، تلاطمت الأمواج أكثر وزادت العاصفة هياجًا، كانت عاصفة كافية لإغراق أعتى سفن كيفاد، فما البال بقارب صغير؟!

بعد عدة ساعات من مجابهة الموت تمكن من الصراخ ثانية، ولكن هذه المرة صرخ بشيء آخر:

-انقذني، انقذني من هنا، لا أريد الموت هنا، لا أريد الموت قبل الحقيقة!

هدأ الموج كأنه مؤمنًا جاء إلى الله بعد سنين عبادة بدعوة مضطر، ألقى بنفسه على القارب الذي غطى قاعه شيء من ماء البحر، ألقى بنفسه مبللًا من مقدمة رأسه حتى اخمص قدميه، تنهد وتنفس بارتياح ثانية!

ثم عاد للتساؤل من جديد، ألهذا الحد غضبت مني؟

لا أعرف لماذا تفعل بي هكذا؟ طلبت منك رسول فترسل لي عاصفة تجعل ما تبقى لي في تلك الحياة بمجرد نفاد آخر قطرة ماء في جسمي!

أنا لن أموت هنا.. للحظة تخيل أن الله يريد موته لكي يخبره أنه موجود في الحياة الأخرى.

المسلمون كانوا يقولوا أن الحياة تبدأ بعد الموت.

طرد الهاجس من فكره... لا... هناك حجة أخرى غير تلك بالتأكيد، الإله لا يفعل ذلك!

الإله منزه عن الخطأ وإلا كيف يكون إله!

الإله لا يريد الشر لنا، لا يريد أن يقتلنا، لا يريدنا أن نتعذب!

إذن لماذا فعل بي هكذا وقد طلبت وجوده؟!

تذكر قصة النبي موسى التي رواها عليه أحد المسلمين حينما طلب من الله أن يراه، فكشف الله نفسه للجبل فخر صاعقًا أربعين يومًا.

ربما كشف الله نفسه للبحر ففعل ما فعل، بدأ يشعر أن تلك الحجة أكثر منطقية، هل سيبدأ يؤمن بما لا يمكن أن يراه؟!

غلبه إرهاق العاصفة وقلة المياه وشدة النوم، نام فغاص في حلم عميق!

جاءه رجل يطير بجناحين في الحلم، أخبره بجملة واحدة: إنما الرسول هنا... وأشار إلى رأسه.

استيقظ مستبشرًا بشيء من رعب الفزع، صرخ ينادي: أين أنت؟

لماذا لا تظهر لي مباشرة؟ لماذا الحلم؟ ابعث لي هذا الرجل الآن!

تراجع في لحظات خوفًا من عاصفة أخرى، الإله لا أحد يأمره، الإله يفعل ما يراه مناسبًا إن كان موجود!

تلك هي المشكلة: الشك!

أن تؤمن بما لا تراه ظاهرًا، احدودب على نفسه، تمتم بكلمة واحدة: دُلني... دُلني!

دُلني هذه المرة لم تكن تحمل مثقال ذرة من كبر، لم تكن تحمل شيء سوى الرجاء في الطريق.

يبحث عن إسراء بالنفس إلى أرض تطيب فيها النفس.

يطوف من أجل معراج بالروح إلى حيث يمكن أن يجد نفسه في أحد السموات!

تذكر كيفاد، وسأل نفسه السؤال البديهي: هل كان يمكن أن أفكر فيما كنت أفكر فيه في كيفاد؟!

تذكر وتذكر وتذكر. هل هناك أي مرة حاولت فيها البحث عن أي شيء غير الذي كانت تقوله كيفاد!

في عمق النفس التي ولدت ملحدة لم يكن الأمر يحتاج إلى إجابة.

إنك ولدت وتطبيعك على عقيدة ما، ليكن الإلحاد، ليكن الإسلام، لتكن اليهودية... ما الحاجة لكي تبحث عن دين جديد؟!

أنت في منطقة راحة ولا تحتاج إلى أي شيء، ذو منصب قيادي، وتمتلك المال، لماذا لا تتبع وتخسر كل شيء؟!

لماذا تجلب إلى نفسك قدر من الممانعة بين أهلك؟

لماذا تكلف نفسك عناء البحث؟!

البعض فقط يفعل، أراد أن يفتش عن بقية باقية حتى من ذاكرة يكون فيها قد راجع نفسه مرة واحدة، توهج فكره حينما تذكر تلك المرة بعد استجواب

أحدهم عن إثبات وجود الله أنه همس لنفسه: ما يقوله أقرب للمنطقية، إنه كلام أقرب للمنطق من غيره!

لقد شعر بنفسه، محاولة واحدة للبحث عن النور في سراديب الظلام كافية لكي تثبت لعقلك أنك لست أعمى مثل الجميع وأنك كنت تعرف معنى النور ذات يوم!

زفر متنهدًا باستراحة لم يكن يعلم لها مثيل من قبل.

تذكر خيبته المتلاحقة بأنه بلا ماء، بلا طعام، ووسط بحر لكي لا يعلم له مصير.

عليه الآن أن يعود، ولكن طريق العودة مكلف، سيكلفه على الأقل نفسه وما ستفعله به سوالكوفا، هذا إن نجا من الأساس، إنه لن ينجى!

لم يضع الكثير من الوقت في مثل هذا التساؤل، ترك لنفسه الرجاء ثانية: دلني، دلني، دلني عليك، دلني!

مر اليوم، والثاني، والثالث، تحول محصول ريقه إلى مر علقم حتى لم يستطع أن يبتلع ريقه، حنظل من مر تراكم وتراكم في حلقه، لم ييأس، لم يغير الرجاء من دلني حتى للحظة واحدة متمنيًا شربة ماء، دلني وحسب هي التي استخدمها!

مزيد ومزيد من العطش، عطش للروح وعطش للجسد، والروح ماؤها حقيقة الأشياء!

امتلأت السماء بالغيوم، غيمة تتكاثف فوق غيمة، برقت السماء ثم أرعدت إبانًا بهطول المطر بُكَى، لقد ظن أنه هالك، ولكنه بكى بكاءً مريرً، لم يعرف لماذا يبكي، جمع ما استطاع من المياه في القارب، ربما مياه تكفيه لشهر كامل، شرب وأرتوي، امتلأ جسده بالماء ولكن ظمأ روحه غلبه أكثر وأكثر. إنه الآن يحمل مياه تكفيه للعودة، ولكنه واصل الطريق!

لم يرد العودة ولم يخالجه شك للحظة واحدة أن عليه العودة، سيواصل البحث، طريق الله صعب، ولكنه طريق للخلود!

الشك هو ميزان بين اليقين والجحود، هذه المرة جعلت كفة اليقين تميل أكثر، مازال عقله الكافر يخبره أن الأمر مجرد صدفة، ربما كيفاد هي التي ترعاه بعد أن تعرفت على موقعه ولا تستطيع الوصول إليه فأرسلت إليه قليل من الأمطار الاصطناعية!

واصل الدعاء والتمتمة، دلني، دلني

حتى حصل على مكافأة أخرى، كانت هذه المكافأة هي اليابسة، لقد وجد الأرض!

*****

لم تجد نفسها سوى في صناعة كيفاد، الصغار هم رأس مالها، لأول مرة في الحياة بالنسبة إليها تتوافق غريزتها مع شيء ما تريده، لم تكن تحلم يومًا ما بتربية أطفال ولكن هذه المرة هي مجبرة على تربية الأطفال!

بدأ الأطفال في النمو، بدأت ملامحهم تتضح، باعدت بين الولدين والفتاتين تمامًا، الطفلان في مكان منفصل، والطفلتان في مكان منفصل عنهما تمامًا، وكل مجموعة تنام في غرف مستقلة وهي في الغرفة المتوسطة ولا يقربها أحد، كانت تتبع جميع أساليب كيفاد في كل شيء، لم تسقط سوالكوفا من كيفاد أبدًا.

ظلت سوالكوفا مثلما هي في كل شيء، لم تتغير، لم ينهدم من جدار قناعاتها الشخصية مثقال شرخ واحد، أعطت لكل طفل من الذكور اسم فكان الكبير ايفان سيرجي وكان الصغير فكان وايلد وأما الفتيات فحظت إحداهن باسم كيفاد والثانية باسم ديرو!

تقضي يومها بينهم وبين صناعة المزيد من التسليح والتخطيط لتخزين المزيد من الطعام وزراعة المزيد من الأرض وبناء المزيد من الحصون والبيوت.

لم يمر الكثير حتى بدأ الأطفال في الحديث ولم يمر الكثير حتى بدأوا في اتخاذ الخطوات الأولى.

ثلاث سنوات على الأرجح، سوالكوفا خلالهم لم تتحدث إلا إلى برامج صنعتها بنفسها لكي تتحدث لها، سوالكوفا لو كان بيدها استنساخ كل تكنولوجيا كيفاد لفعلت، ولكن كل ما استطاعت فعله هو مجموعة من التكنولوجيا البدائية تتناسب مع بقايا الأرض التي عليها.

في يوم عيد ميلاد الإناث الرابع بدأت تضع الملاحظات الكاملة حول الصغار كما كان في كيفاد.

إيفان سيرجي: - الولد ذو بنية قوية كما بدأ يتضح عليه، وزنه زائد إلى حد ما، الولد لا يسأل كثيرًا، يبدوا جنديًا مخلصًا، ولكنه يصنع العديد من الحيل.

وايلد: - طفل مُتحدث أكثر من أخيه، يسأل عن كل شيء وأي شيء، البنية قوية وهو أقوى من أخيه، إنه مثل جون والتر في معظم الأشياء!

كيفاد: أخذت لون بشرتي السمراء، شعرها مجعد إلى حد كبير، عيونها زرقاء مخيفة للغاية، جسدها ناعم جدًا، لديها طباع قوية ولكنها تغار من أختها إلى حد كبير.

ديرو: فتاة بيضاء للغاية، يبدو أنها ستمتلك من معالم الحسن ما لم يمتلكه غيرها، عيونها سوداء كليل لم يصعد له قمر في السماء، وشعرها ناعم ثقيل، طباعها هادئة إلا أن ملامح الحكمة بدأت تتضح عليها.

هكذا كانت الطريقة التي تربي بها أولادها، تضع حولهم الملاحظات، ولكل مرحلة عمرية مواصفاتها وتطابقها معها، كأنها تحيا في كيفاد!

بدأ المناخ يتضح أكثر فأكثر لدرجة تعاقب الفصول وهو ما يدل أكثر على اختفاء كيفاد، ضاع منها الأمل كلما أحست أن المناخ بدأ يتغير، وأن تعاقب الفصول أصبح يعني أن الأرض أصبحت معدة للحياة من جديد!

حينما حل الصيف بدأت تجهز لخطتها التي تريدها، عليها الآن أن تخصص لكل واحد فيهم أخته التي سيتزوجها، أخبرت إيفان وكيفاد أنهم إخوة، وأخبرت وايلد وديرو أيضًا أنهم إخوة من أب وأم أخريين، تطلعت إلى أكبر من ذلك وأخبرتهم أنهم جميعًا ليسوا أولادها، إنما وجدتهم في تلك الجزيرة وتكفلت برعايتهم!

فارق السن الذي لم يكن كبيرًا لم يستطع الصغار تمييزه.

وفصلتهم بعد ذلك على هذا الأساس، إنها تحاول أن تقهر كل غرائزها كما أخبرتها كيفاد!

في أحد الأيام بينما كان إيفان وكيفاد يلهوان في الساحة شاهدا وايلد وديرو في الساحة الخلفية وهما يتحدثان، أغرتهما فكرة الحديث مع اللذين لا يتحدثون إليهم، إنهم لا يجتمعون إلا أثناء القسم العالمي الخاص بكيفاد في الصباح، وما دون ذلك لا يجتمعا، كل اثنان منهما منفصلان تمامًا إيفان وكيفاد في مكان، وديرو ووايلد في جهة أخرى، كان العزل في مرحلة الطفولة حتى تتضح السمات، وما إن بدأت ملامح الصغار تتضح حتى بدأت في وضع خطتها بمن سيتزوج من؟!

لقد كان الأمر شائكًا إلى حد كبير!

إنها تريد أن تمنع الفطرة، تريد أن تجعل الريح في الاتجاه الذي تريده والذي يوافق نظرتها القريبة!

هذا التفكير ربما ولد مع الإنسان، التفكير الذي يجعل الإنسان يدرك أنه يُعقل شيء وأنه يمتلك خطة كاملة لتسيير الكون، بالرغم من أن حدود علمه وقواعد تكوينه أقل بكثير جدًا من ذلك، ولكنه الوهم الكبير: أنه بمجرد معرفة جزء من الشيء يصبح لديك ذلك الوهم الجبار أنك تعرف الشيء كله!

لم يكن في رأسها شيء سوى الصحيح المطلق.

بالرغم من أن الحقيقة الكاملة التي أثبتها الكون لنا أننا حينما نرى الأشياء فهي تتصرف بطريقة وحينما نغض البصر عنها تتصرف بطريقة أخرى، حتى في الفيزياء حينما ننظر إلى الإلكترون فإنه يتصرف بطريقة وحينما نتركه وشأنه فإن له تصرف آخر في الطبيعة، لو كان هناك صحيح مطلق في هذه الحياة فهو أن كل ما نعتقد أنه صحيح: هو وجهة نظرنا عن هذا الشيء أنه صحيح، أما صحة الشيء في جوهره من عدمه هو شيء أصعب من أن يُختصر في كلمات.

حصرت دورها في التنشئة التي لا يمكن أن تكون إلا كتنشئة كيفاد، فاجأها الصغار بسرعة نضجهم الجسماني والعقلي، أجسادهم كادت توازي جسدها وهم لم يبلغوا العاشرة بعد.

في يوم أنامتهم وغفلت عنهم لدقائق، استيقظوا ليذهبوا إلى اللهو قليلًا، كانوا لا يسمح لهم باللعب ولكن اللهو عالمهم، يشعروا أنهم يصنعون جرمًا عظيمًا ولكن لم يكن الأمر أكثر من لهو، أكثر أنواع الاضطهاد الإنساني أن يجعلك الطاغية مضطهدًا بما لا تستطيع تسميته في رأسك، خرجوا ليلعبوا، صنعوا من السماء ما يغطى على جريمتهم التي هي جريمة في رأسهم وحدهم، هرولوا خارقين كل حدود الحظر، أثناء اللعب صدمت كيفاد الصغيرة ديرو في حاجبها، انفجر ما فوق حاجبها دماء غطت كل وجهها، نسوا جريمتهم وصرخوا طالبين النجدة لكي يجدوا سوالكوفا أمامهم، للحظة تذكروا أنهم أمام كارثة، كيف سوف يفسروا للحاكم ما حدث، ستعاقبهم بقانون كيفاد بالحرق كما توعدتهم دائمًا، حتى الصغيرة ديرو نسيت إصابتها وتذكرت فقط ما سيحدث بعد قليل، لم تنطق من منظر الدماء التي في وجهها حتى بقدر ما نطقت من منظر الدماء التي كانت في وجه أمهم.

ركض الأطفال الأربعة، ركضوا ببنيتهم الممشوقة بكل قوتهم،

وهرب كل واحد فيهم في اتجاه ما!

لم تستطع اللحاق بهم في الأربع اتجاهات، صرخت بأعلى صوتها: من سيتعدى مئة متر دون أن يقف ستنفجر فيه أشعة كيفاد الحارقة... توقفوا وإلا دمرتكم الأشعة!

اختبأ كل واحد فيهم في مكان ما بعد أن سمعوا.

كان مازال جرح ديرو الصغيرة يثعب بالدماء، مع ذلك هرولت مسرعة لتختبئ في مكان ما، وجدها وايلد، أخرج من ورق الأشجار ما يوقف نزيف دمائها، احتضنها، وهدأ من روعها.

- هل سننجو يا أخي؟

-سنهرب من هنا، إنها ليست أم لنا، أنا أكرهها

- كيف نهرب؟ لقد سمعتها تهددنا بالحرق بأشعة كيفاد!

- ما أخبرك به سيحدث، لا وجود لأشعة كيفاد ولا لكيفاد نفسها، لقد تأكدت من ذلك!

- كيف تأكدت؟!

- راقبتها في مساء أحد الأيام ووجدتها تدون كل ما يحدث في أحد كتيباتها الصغيرة، اقتحمت المكان وقرأت كل ما كتبت!

- هل تجرؤ؟!

- نعم، حدث!

- ماذا وجدت؟!

- الكثير والكثير، الأهم علينا أن نغادر من هنا، علينا أن نترك تلك الأرض ونهرب من تلك الساقطة.

- كيف؟ هل نستطيع الخروج من هنا؟!

- سنحاول، لقد سرقت بعض الخرائط، الأهم أن نعدو في اتجاه الجنوب كلما استطعنا!

يحاولا الهروب كلما سنحت لهما الفرصة، لا يعرفا لهم غاية سوى أن يتحررا من هذا العالم الذي صنعته لهما سوالكوفا.

كيفاد وإيفان فضلا الاختباء وقررا أن يظلا هناك، مستسلمين لأمهم، فقط يكسبوا قليل من الوقت لانتظار العقاب، راود إيفان فكرة الهروب ولكن حب البقاء الآمن مع معرفة عاقبة ما سيحدث يتغلب أحيانًا على القفز إلى المجهول!

بعد قليل من الوقت وجدا كيفاد وإيفان نفسهما أمامهما سوالكوفا، عيناها تكادا تنفجر من النيران، ستقتلهما، هذا فقط ما يعبر عنه غضبها.

أمسكت بيدها كل واحد من معصمه، جرجرتهما برغم أن بنيتاهما أقوى منها، ولكن قوة الغضب كانت أكبر، ألقتهما في سجن صنع من أقفاص بنتها بنفسها لكي تكون غرفة عقاب.

ذهبت للبحث عن الآخرين، لم تفلح في العثور عليهم، كان وايلد قد صنع من بعض قطع ثيابه اتجاها يشير إلى شمال الجزيرة بينما كان كل طريق الفرار لهما إلى الجنوب.

الخرائط التي حصل عليها كانت خرائط صنعتها سوالكوفا للأرض التي اكتشفتها سوالكوفا للجزيرة، كانت معظمها خرائط في اتجاه الشمال والشرق، اختار اتجاه الشمال لكي يوهمها أنه أخذ الخرائط مستدلًا بها للاتجاه في شمال الجزيرة، بينما كان يفر هو في اتجاه الجنوب، أن تفر في الاتجاه الذي لا تعرفه ولا يعرفه عدوك خير من أن تفر في الاتجاه الذي تعرفه ويعرفه عدوك، هذه هي القاعدة التي استخدمها في الفرار، كانت ناجحة حينما كان عدوه يظن غير ذلك!

مر أكثر من يومان على غيابها عن ايفان وكيفاد وهما يتضوران جوعًا دون طعام في محبسهما، عادت إليهما تكاد تميز من الغيظ وهي تفور، ستقتلهما!

وقفت أمامهما وجلبت الطعام وألقته على الأرض إليهما، تناولاه في نهم.

احتدت وهي تسألهما:

- أين ذهب وايلد وديرو؟!

أجاباها:

- لقد هربا، نحن لا نعرف، ولكنهما اختبئا عند شجرة الموز الكبيرة.

احتدت أكثر:

-أنا بحثت في كل مساحة ممكنة تعرفونها ووصلت إليها قدمي ولم أصل لشيء. أين ذهبا؟! لماذا خرجتما أيها الأوغاد معًا؟! ألم أخبركم؟!

- يا أمي فقط كنا نلعب، لم يكن هناك شيء سوى اللعب.

- سوف نلعب أيضًا

جلبتهما بعد أن عرت ظهريهما من ما عليه من ملابس، قيدتهما، صنعت سوطًا من بقايا جلد، نزلت على جسديهما جلدًا، صرخا شقا صوتيهما عنان السماء.

لم تكن تبحث عن اعتراف بقدر ما كانت تبحث عن ألم، ربما نوع من السادية، لم تتوقف للحظة لكي تفكر إنهما من رحمها، كأن كل ما في قلبها سقط مع مشيمتها التي سقطت معها.

بعد أن فعلت جلبت دلو من مياه باردة وألقته على ظهريهما ليستيقظ الألم من جديد بعد أن غفا لثوان معدودة!

*****

حينما هبط والتر على اليابسة لم يكن يصدق نفسه، لم يكن يصدق أنه سينجو من الأساس، لم يكن يعرف أن هذه هي الأرض التي تركها أم لا، كل استنتاجه أنها لا تشبه المنطقة التي غادر منها، ولكن من يأمن للبحر غافل، ربما أخذه البحر وألقاه على نفس الجزيرة نفسها، ربما يجد سوالكوفا أمامه الآن.

تذكرها وتذكر أيامها وتذكر أولاده الذين تركهم من مدة لا يعلم مداها.

في البحر كان يقوم بعد الأيام حتى مرت سنة أو أكثر ثم استسلم بعد أن فقد أدواته، لكن المدة ربما سنة، سنة كاملة جزيرته هي قاربه الصغير، يأتيه المطر فيشرب، ويأتيه السمك فيأكل، وتقع يده على جزر صغيرة لا تتعدي مساحتها بضعة أمتار فيأكل من رطب نخلة قد نبتت فوقها أو ثمرة عاشت وحدها، لكن هذا لا يهم، المهم أنه وصل إلى هنا، هذا هو أول ساحل يصل إليه ممتد لا يعلم له نهاية!

مرت الأيام عليه يتأمل، يصنع الأسئلة ويجيبها، يلاحظ كل شيء، يريد أن يدون وليس معه أي أداة من أدوات التدوين.

اليابسة التي هبط عليها لم تكن كأي يابسة، بمجرد التوغل قليلًا في تلك اليابسة وجد الكثير من قاعات العرض الكبرى لشاشات تلفاز عملاقة، أوجس منها خيفة في البداية، ظل ثلاثة أشهر يراقبها من بعيد، لا يقترب منها، يراقب وحسب خشية أن تكون تابعة لكيفاد، ما رآه في البحر غير الكثير فيه، جعله أكثر حذرًا، تلك النزعة الانتحارية التي خرج بها يطلب الحقيقة ضاعت منه في موقف ما، ربما أحد العواصف التي مرت به، ربما لحظة جوع ما.

يعتقد البعض أننا حينما نطلب الحقيقة نكون انتحاريين ولكن الذي لا يعرفه البشر عن أنفسهم أن الوصول للحقيقة في أغلب الأحيان تكون أغلى من أنفسهم.

حينما كانت تهاجمه الوحوش كان يدافع عن نفسه بشراسة، حينما كان يصطاد كان يصطاد بمهارة، حينما يجمع الطعام أصبح يجمع أشهاه، ربما الحرمان من الشيء يجعلك في كثير من الأحيان أكثر الناس رغبة به وتقديرًا له، وأحيانًا أخرى أكثر العازفين عنه.

اقترب من الشاشات بحذر ما إن تقدم حتى أصبح على بعد ثلاثة أمتار حتى وجد خطوط من شعاع الليزر تضيء، تمامًا كما لو كان يعبر سياج أمنى لمقابلة

رئيس له في كيفاد، توقف قلبه دون سبب، زاده القلق لم يعرف أيتقدم فيكون له مالا يعرفه أم يتراجع فيخسر ما تقدم له؟!

اختار الحل الأكثر جرأة وتقدم.

ما إن تقدم حتى بدأت كل الشاشات في التشغيل، ظهرت له فتاة على شاشة العرض المواجهة له مباشرة:

أهلًا بك في برنامج إعادة كيفاد الأخير، سيقوم الآن الماسح الكوني بتحديد عدد الناجين في العالم وأجناسهم برجاء الانتظار!

تكررت الرسالة أكثر من عشر مرات متتالية بنفس النغمة الرتيبة التي تحمل كل ما تبقى من أصوات كيفاد، لم يحدث شيء.

تركها وتقدم إلى ما بعد تلك الشاشة ليفاجئ بكم ضخم من الحواسيب وشاشات الهولجرام وشاشات العرض المختلفة من مختلف العصور التكنولوجية.

ظل طوال شهر كامل يتفقد المكان ويعرف وظيفة كل شيء في هذه اليابسة.

عرف بعد ذلك أن هنا مركز المعلومات والتحكم الرئيسي لاسترجاع كيفاد، تطلع أكثر ليعرف خطة الاستعادة، تقوم كيفاد على إبقاء أكثر من عدة مناطق لليابسة هي غالبًا بقايا القارات، هذه المناطق احتفظوا فيها بجميع صور الحياة البشرية فيما قبل كيفاد.

وفي حالة دمار كيفاد أو سقوطها يقوم هذا البرنامج بإحصاء الناجين وإرسال كل اللازم لهم لكي يتمكنوا من صناعة كيفاد وإعادتها وبذلك يتحقق شعار كيفاد الرئيسي: كيفاد تبقى إلى الأبد، ولكن في هذه النهاية تدمرت جميع الأقمار الصناعية، وبالتالي ضاعت السيطرة بين مناطق اليابسة وبعضها لذلك لا يوجد أي إحصاء للناجين ولا يوجد أي تحرك!

كل هذا لم يكن يهمه، ما كان يهمه هو تلك الحواسيب التي دونوا عليها كل المعارف والعلوم التي عرفتها البشرية. لقد وضع يده على الكنز الذي انتظره، ها قد جاءه الرسول الذي طلبه

رفع يده عاليًا إلى السماء يصرخ كأنه يريد أن يشق صدر السماء بصوته:

- هذا هو رسولي؟! أليس كذلك؟!

لم يحتاج إلى تأكيد أكثر من ذلك.

كل من سعى بصدق سيصل للصدق، كل من طرق الباب سيفتح له وإن تقلبت عليه الليالي والنُهر، فالموت في الطريق وصول والهزيمة على الأبواب انتصار والبقاء حتى اللحظة الأخيرة فتح من الله، طالما الطريق تضيئه النوايا.

أراد أن يعلم فعلم.

كانت المرحلة الأولى هي التي قضاها في البحر، عرف ذلك حينما قرأ مخطوطة تحكي رواية تسمى حي بن يقظان لأحد علماء العرب يسمى بن طفيل كتب فيها:

" ومازال يطلب الفناء عن نفسه، والإخلاص في مشاهدة الحق، حتى تأتى له ذلك، وغابت عن ذكره وفكره السماوات والأرض وما بينهما، وجميع الصور الروحانية والقوى الجسمانية، وجميع القوى المفارقة للمواد، والتي هي الذوات العارفة بالموجود الحق، وغابت ذاته في جملة تلك الذوات، وتلاشى الكل واضمحل، وصار هباءً منثورًا، ولم يبقَ إلا الحق الموجود الثابت الوجود"

*****

ثم جاءت المرحلة الثانية.

جاءت مرحلة العلم، في تلك المرحلة تعرف على كل شيء على حقيقته، هنا يتحول الشك بالوجود إلى يقين، ولكن هنا الشك يكون ليس في نكران الإيمان أو الإلحاد وإنما يكون الشك في مضمون الإيمان نفسه.

تتبع الحروف والكلمات، تعلم اللغة العربية من تلك البرامج في خلال سنة أخرى، وعاش سنة أخرى بين ثنايا القرآن وأطياف ضوئه، وتعلم الكثير من التوحيد.

عرف أن العالم يجب أن يكون له إله، وعرف أوصاف الإله.

تناول المسيحية والأديان وتعلمها.

شعر أنه يشرب من المياه بعد عطش طويل، ربما مرحلة شربه تلك هي أكبر وقت شرب فيه الإنسان على وجه الأرض.

آمن بالإسلام واعتنقه على سبيل أنه خاتم الأديان كما روى فيما تعلمه، شعر أن كل شيء سيأخذه إلى المكان الصحيح، كان بحاجة إلى الكلام فاخترع أشخاص من خياله يحدثهم وطلاب يعلمهم، اخترع رفيقة له في الخيال يحدثها.

ذات يوم اخترع حوارًا حياديًا معها

إذ جاءت تسأله:

-كيف حال رفيق طلب العلم؟

فأجاب:

- لقد هربت يا رفيق إلى تلك الكتب مندثرًا بها من كل زيف هؤلاء، من زيف نفسي ربما، زهدت في كل شيء، بمجرد أن يطلب الزمن ما لدي عنه، لم يعد هناك هدف إلا البعد، أتعلم؟

أنت لا تعلم بالتأكيد، سأخبرك، تلك الكتب في البداية تجعلك مغرورًا جدًا، تتفلسف كثيرًا، تزبد كثيرًا من سطح المعرفة على أسماع الناس، ثم بمجرد الغوص قليلًا تجعلك في حياء شديد من الجهل، تصبح كالجائع الذي لا يشبع، تنهدم أصنام كثيرة كانت تطوف بالناس حولها، تشعر بالحيطة من أن تنطق، ثم تتعلم فن الصمت، تشعر أن كل ما يتحدثون به محض هراء تصمت ثم تصمت، تجعلهم يرقصون حولك يكشفون لك كل ما بداخلهم، بالكاد

تجيب على الخرافات التي يتحدث بها كل من حولك، ثم تتعمق أكثر، تسقط عليك المعارف، تعرف التاريخ الذي لا يعرفه البشر والطب الذي لا يتداوي به الخلق والكيمياء التي لا يعرف عن مركباتها العباد، تتهادى في الكون متأملًا، تعرف سر الخلق ومكنوناتهم، يقف أمامك أحدهم أول وهلة فينكشف لك كل ما سيقوله قبل أن يقوله، تحاوره فتوجه الحوار متى شئت وأينما شئت.

تتخذ بعضهم أربابًا فقط لكي تتأكد أنك لم تتحول إلى طيف.

يا رفيقة أنا مثقل بدائرة دوائر التاريخ على الناس وعلوم أمراض القلوب وأمراض النفوس والبحث عن حقيقة الخلق وسير أثنولوجيا الشعوب وأدلجة العقول وسقوط السرائر في الأدب.

يا رفيقة أنا مغرور بألف بيت من شعر حماسة أبي تمام، ومنكسر بألف مثلهم في غزل غير صريح لرواية لم أكتبها بعد.

يا رفيقة أنا منتصر بمئة نفس، سقطوا على يدي في بئر سحيق من أداب الروس ومنهزم مع شرذمة ربما بلغت مئة هي الأخرى، تضعضعت جنوبهم على الألواح يريدوا تفسيرها يا رفيقة بين أضلعي قلب لم يعد يستوى على فرح أو حزن، وهو في تمام ثباته واستقراره.

يا رفيقة...أنا بخير

أصبحت شاعرًا وأديبًا وفيلسوفًا وكاتبًا.

دونت الكثير والكثير واكتشفت الكثير والكثير.

*****

برغم مرور السنوات الهادئة لم يعُد طلال ومهند المسلمان الوحيدان في هذا العالم، ولكنهما لم يعرفا ذلك بعد، طلال ومهند حالهم لم يتغيرا كثيرًا، ولكن دوام الحال من المحال، فقد بلغا الثلاثين من العمر، في الثلاثين تذهب الرجولة الى شبه اكتمالها، وتصل الى قمة فورانها، يشعر أنهما مسجونان، انتهيا

من كل شيء يمكن عمله، حتى بدأ في اختراع الكثير من الأشياء، الطبيعة التي أغرتهم بدءوا في استكشافها بطريقة غريبة، على جانب آخر كان هناك وايت في قبره، ذهب إلى درج مكتبه في مخبئه الذي هو في الظاهر قبره، كان هناك مدونة عليها ما عليه فعله في حالة دمار كيفاد:

" في حالة دمار كيفاد عليك إخراج من الحاسوب إحداثيات الموقع ٤ واحد ٠ والذهاب إليه في سرية تامة "

فتح الحاسوب وأدخل إحداثيات الموقع المطلوب وحصل عليها، بدأ في تحسس الخارج، في الليل خرج كذئب وحيد يحبو في عويل مستمر بحثًا عن فريسته، هذه المرة الفريسة هي المكان الذي يبحث عنه.

مهند وطلال لا يدريان شيئًا مما يحاك لهما.

مهند كل يوم يستيقظ، يحتضن المصحف ويجلس ليتلو فيه، يبكي عليه، يشعر أنه بلا فائدة حينما يقرأ قصص الأولين في المصحف، لا يوجد تحد، التحديات كلها انتهت، إنه ينتظر الموت، يفتح كتاب الله تعالى على قوله:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [1]

يكرر كلمة يعبدون ألف مرة ويسبح بعدها ألف مرة

يأتيه عصفور مختلف ألوانه ليجلس على كتفه من فرط سكونه، ثم يطير إلى أمامه، ينظر إليه، يعيد التأمل مرات ومرات، يصنع من طرف إصبعه ساق ليقف العصفور عليها، يخرج من جواره حبات قمح وينثرها على يده، يأتي الطير من أشكال وألوان عدة ليأكل، يعيد التأمل فيه.

يتبع قوله تعالى:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ ﴾ [2]

---

[1] الذاريات: ٥٦
[2] الذاريات: ٥٧

بجواره طلال منشغلًا في صنع آلة ما، يصيح في صوت من وجد الماء بعد طول عطش، لقد انتهيت منها، انتهيت منها، أخيرًا

يقطع مهند تأملاته وتوسلاته: ما هذا؟!

ابتسم طلال: تلك أول طائرة في تاريخ ما بعد كيفاد.

مهند: ولكن تلك لا تتسع لفرد واحد حتى.

طلال: هذه لا تتسع لأفراد، هذه سنربطها بالكاميرا التي صنعناها، يمكننا الآن بجهاز صغير يجعل الصور تلتقط تلقائيًا، سيكون لدينا طائرة بدون طيار، يمكننا اكتشاف مساحات أوسع بكثير، كل تفاصيل تلك الأرض سنعرفها.

مهند: كيف سنوجه الطائرة؟!

طلال: للأسف ليس لدي أي جهاز لاسلكي ولم أتمكن من صنعه وهذه الكتب لم تمكنني من صنعه، سنحدد مسارات ذهاب وعودة بكيلومترات معينة تمكننا من رسم خرائط كبيرة للغاية، هذه الطائرة بعد شحنها يمكنها الطيران لمدة ساعة ونصف، أي يمكنها تقريبًا تغطية ما يزيد عن ثلاثمائة كيلو متر.

في بقعة أخرى كان وايت يصل إلى الموقع ٤ واحد ٠، باب بين الأشجار مخبأ يقوم بفتحه بشفرته ليدخله إلى ممر طويل، وحينما انتهى الممر كانت المفاجئة غير متوقعة.

*****

حينما قاما وايلد وديرو بالفرار إلى الجنوب لم يكن الهدف هو الفرار بحد ذاته، بقدر ما كان صناعة شيء جديد، هكذا فكر وايلد، أن يصنع مستعمرة جديدة له ولأخته.

تحدث مع أخته قائلًا لها: لقد عرفت كل شيء، جميعنا إخوة أنا وأنتي وكيفاد وإيفان، فقط سوالكوفا فعلت ذلك لكي تزوجنا وتنشئ مستعمرتها،

مستعمرتها تلك هي شيء ما من مستعمرة كانت تعيش فيها قبل أن تفنى. باختصار تلك المعتوهة كانت تريد استكمال شيء قد انتهى.

فتحت ديرو فمها في شيء يوحي بعدم فهم شيء: وماذا سنفعل نحن؟

أردف وايلد: لقد كنت أخطط لذلك الهروب، ولكن نهرب نحن الأربعة، الآن تلك المعتوهة عجلت به ليس أكثر لن نفعل شيء، سنعيش أحرار دون قيود. هل تستطعين العيش بحرية يا أختاه؟

ديرو: حرية؟! كأنها ساعة اللعب يكون العمر كله ساعة لعب نفعل فيها ما نشاء.

وايلد: هي كذلك.

شعرت بالنشوة تملأ أعماقها بطرقية لا تتخيلها، هي الآن حرة، قليل من تأنيب الضمير أوقفها بعد أن همت بالقفز في الهواء. أردفت بانكسار: ولكن سوالكوفا هي والدتنا.

وايلد: نعم.

ديرو: وأين أبانا لقد علمتنا سوالكوفا أن كل إنسان يأتي من أم وأب فإذا كانت هي أمنا فأين أبانا؟ أم أنها كانت تكذب في هذا أيضًا؟

وايلد: لا نعرف، ربما قتلته، يجب أن تتزوج الكائنات لكي تنجب، لم يكن هناك كذب في ذلك.

ديرو: إذا هل نحن الآن لن نقابل والدتنا للأبد.

وايلد: لا، وإن جاءت سنقتلها

شعرت ديرو ببعض الجفاف في حلقها حينما سمعت كلمة نقتلها منه بهذه السهولة، ابتلعت ما تبقى في لعابها، هي لا تعرف كيف يكون القتل ولكن وايلد شاهده، لقد هرب وايلد بفكره من عالم كان مرسوم له إلى عالم آخر لا يمكن أن يكون إلا مشوه.

فتشا حولهما جيدًا ووجدا الكثير من الطيور التي كانت تقوم سوالكوفا بطبخها لهما، كانت أسراب الطيور تتواجد بشكل كثيف للغاية، قاما بتدوينها وتدوين أنواعها وأصنافها باللغة العالمية لكيفاد، اختارا منها أحد الأنواع النادرة التي لا تتواجد بطرق كبيرة ولكن كان لها صوت غريب جدا أشبه بنعيق مزعج، قاموا بربط أقدام تلك الطيور في شكل صف طويل في اتجاه الجنوب الذي من الممكن أن تأتي منه سوالكوفا بمجرد محاولة اختراق الصف من أي كائن كانت تلك الطيور تطير مصدرة نعيقها هذا بشكل مزعج للغاية، وما دون ذلك هي ثابتة مكانها، صنعوا بعض الأماكن للاختباء مثل كهوف داخل جذوع تلك الأشجار الكبيرة.

لقد حاول ديرو ووايلد صناعة عالم خاص بهما وحدهما، عزلوا أنفسهم.

كانوا إلى حد ما أطفال أسئلتهم الصغيرة كانت إجاباتها صغيرة، وأسئلتهم الكبيرة كانت إجاباتها صغيرة أيضًا.

تعلما ترويض الحيوانات ومصاحبتها، لم تكن الحيوانات تعرهم أي اهتمام أو تحاول افتراسهم، بل إن بعض الظباء كانت تحن عليهم، ربما شاركتهم الطعام وشاركوها، الحياة بدائية في أبسط صورها، لم تهاجمهم ذكريات الحنين والذكريات، لم يجدا مجتمعًا صاخبًا من الأساس أو مجتمعًا متقدمًا لكي يفتقدوه، العالم بالنسبة إليهم هم ما وجدوا أنفسهم عليه.

ذات يوم قررا استكشاف مناطق أكثر، وجدا مبنى قد تعرشت عليه كثب من لفيف شجر متسلق، استطاعا تمييزه من شعار خفيف تبقت أثاره على الباب، حاولا فتحه، حينما اقتربا أكثر، لم يستطيعا، فقط استمرا بالمحاولة، حاولا تحسس أي مدخل آخر، لكن لم ينجحا في إيجاد أي مدخل، ظل الحلم يراود وايلد أن يكون له مكان غير الكهف، أن لا يلتحف السماء أو يفترش العشب، غريزة داخله تدفعه أكثر وأكثر لكي يكون له دفء ما، طال به التفكير كثيرًا، لا يوجد بشري على هذه الأرض لا يبحث عن إحساس مشابه

بنوع ما من أنه محاط، شاركته أخته إحساسه بشيء ما من تبعية الحنين لرغبة أخيها الكبير، العالم من الممكن أن يتواجد به ملاذ لنا.

راودته فكرة إزالة الإعشاب المحيطة بالباب، بدأ في إزالتها، وجد شاشة زجاجية صغيرة وضع يده عليها يتحسسها، شعر بوخزه في إبهامه، أبعد يده مخافة شر لا يعرفه، سمع صوت يخرج من البيت، جاري فحص عينة التحليل الوراثي لمطابقته بسكان كيفاد.

لم يكن يعرف شيء عن كل هذا لا يدرك اسمها ولا ما هيتها اقتبس اسم باب من مكان صنعته سوالكوفا من أخشاب الأغصان، وهي عبارة عن أربع جدران نعتته بالمنزل يُفتح من مكان أسمته باب، كانا يدركا أنهم لا يعلمون إلا ما علمتهم سوالكوفا ومع ذلك كانوا سعيدين بتسميته بهذه الأسماء.

كان البيت مصمم لكي لا يفتح إلا لمن يكون شفرته الوراثية تابعة لكيفاد أو أن تكون الشفرة الوراثية ناتجة من تزاوج أفراد من كيفاد.

بعد عدة دقائق سمع الصوت يخرج من أعلى الباب: التحليل مطابق لأحد أفراد الجيل العشرين من كيفاد.

بدأ يدبر الأمر في رأسه متسائلًا: أنا من كيفاد؟!

فُتح الباب على مصراعيه، قليل من سحابة الأتربة التي نثرت في الهواء، وصوت محركات الباب التي تعاني صعوبة قاتلة في مغادرة أماكنها التي استقرت فيها لسنوات وسنوات.

وقف أمام الباب مشدوهًا بهول ما يمكن أن يخرج منه، نحن نفزع من المجهول دومًا، نعاديه أحيانًا، نصادقه أحيانًا، لكننا دوما نبحث عنه.

لحقت به أخته تبحث عنه، صاحت: حقًا، هل استطعت فتح هذا الباب؟!

لم يجب، فقط أو ما برأسه فاتحًا فيه.أردفت:

- هل سندخل إلى هذا البيت؟!

٤

من يستطيع سجن الروح؟!

" يجب أن تعلم كثيرا عن السجن يا رفيق، السجن لا يبدأ من تلك اللحظة التي تنغلق فيها عليك جدران الزنزانة، السجن يا رفيق يبدأ من اللحظة التي ولدت فيها لكي تستقبل السجن، إن كانت روحك في هذه الدنيا معلقة بشيء من متاعها فاعلم أن بمجرد أن يذيقك السجن لوعة الحرمان منها تبدأ المحاكمة، ويبدأ الاختبار الحقيقي، هناك من تكون روحه فوق كل ماديات هذا العالم، هؤلاء لا يمكن سجنهم أبدا، وهناك من تكون روحهم بين طين هذا الأرض لا تستطيع مغادرة الصلصال الذى صنعوا منه، هؤلاء مسجونون منذ أن ولدتهم أمهاتهم يا رفيق! "

*****

كان جميع من في العالم في ذلك الوقت في غاية من الاضطراب، هذا العالم الذي كان يبحث عن مجرد النجاة، أصبح اليوم يبحث عن الوجود، والتر يجلس في مكتبة ضخمة قد صنعها لنفسه من نفائس العلوم يتعلم ويسبح بحمد الله، يصنع لنفسه أشخاصًا من الخشب يتحدث إليهم لكي لا يفقد صوابه، مع ذلك يقف حائرًا أمام تقارير تلك الشاشات التي تخبره بأنها ما

زالت تبحث عن طريقة لرصد بقايا النجاة في هذا العالم ولا يعرف كيف يتعامل معها، يريد أن يوقفها بأي طريقة ولكن ذلك لا يحدث، لقد بدأت كيفاد في محاولة العودة إلى الحياة من جديد ولكنه مهما حاول لا يستطيع إيقاف تلك الشاشات عن إرسال تقارير وبحث كل سبل الاتصال.

لا يوجد مفر من ذلك القدر المحتوم عليه، حتى لو عادت كيفاد، لتعد إنه لديه الإيمان الكامل اليوم لكي يواجه حربًا ويعيش حرًا ويموت حرًا.

فجأة واحدة نطقت الشاشات بكلام غريب، أخذت ترسل في أرقام غريبة الشكل، ظهرت على والتر علامات التعجب كلها، ماذا تفعل تلك الشاشات، فكر في تحطيمها كلها، لكنه يعلم أن ذلك سيجعل معالجات تلك الحواسيب تعمل بطريقة أفضل ولكن دون إبداء ما فيها، كاد يجن فكر في الهرب بعيدًا عنها، ولكن لو تلك الحواسيب تعمل فعلًا فهو لن يغيب عن نظرها لقد التقطته كاميراتها بالتأكيد إذًا عليه أن يواجه، لن يهرب من شبح يظل يطارده طوال حياته، سيواجه...

فجأة انطلق قرص من الأرض حوله، أصبح هذا القرص فوقه تمامًا، عموديًا عليه أطلق هذا القرص ضوء غريب لونه يميل إلى الوردي، كلما حاول والتر اختراقه لم يستطع اختراقه فتحرك تحرك معه، لقد أصبح هذا الضوء هو سجن متحرك، إنه أشبه بمجال يحيط به أينما ذهب لكنه لا يستطيع اختراقه، أصبح ظله، ولكن ظله الذي يحجب عنه الأفق.

صرخ عاليا في السماء، لماذا القيد الآن؟!

لقد كنت على وشك الوصول؟ بلى، لقد وصلت، لماذا يحدث هذا الآن؟!

ركض حتى لهث، واستراح حتى تراخى، حاول أن يحفر تحته فتمدد في كل حبة ثرى، إنه سجن من الضوء، كان يضع يده فيه فلا تخرج مع ذلك هذا الضوء يتحرك معه، سجن يمكن أن يدخل فيه أي شيء ويمكن أن يخرج منه أي شيء إلا هو أصبح لا يستطيع السير بحرية للاستكشاف كما تعود، دخل إلى أحد الشاشات العملاقة وأدخلها معه في سجنه الضوئي، حاول أن يفهم

أي من تلك الحروف أو تلك الكلمات ولكنه لم يفهم شيء إنها لغة برمجة هو لا يفهمها.

احدودب على نفسه في وضع الجنين، حينما يواجه الإنسان الصدمات يفر إلى آخر وضع آمن يجد نفسه فيه، كان هذا هو الوضع الوحيد الذي يجد نفسه فيه آمنًا، حياته كلها ربما قضاها هاربًا، هرب من نفسه واستسلم للشر، وهرب من الشر باحثا عن نفسه، وهرب من نفسه باحثًا عن خالقها، وهنا كان المستقر حينما توصل إلى ربه لذلك حينما عاد إلى وعيه قليلًا من وعي الصدمة عاد ساجدًا، ربما هذا هو الوضع الآخر الذي كان يشعر فيه بالأمان ناجي ربه: أنا وحدي وأنت وحدك، ولكن وحدانيتي وحشة ووحدانيتك أنس، وحدانيتي ذل ووحدانيتك عز، وحدانيتي قهر ووحدانيتك قوة، أتعيدني إلى مملكة الشر ثانية يقتلونني، أتسلبني بعد عطائي، ما هذا ظني بك، إنك كريم عفو، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، كنت من الكافرين، كنت من الفاسقين.

ولكني أحبك وأسبح بحمدك، أفرغ علي من صبرك أتحمل هذا السجن الذي يحجب عني أفق ملكوتك.

ظل ساجدًا طويلًا، ربما لا يريد أن يرفع نفسه فيجد ملكوت الله قد حجب عنه وربما لأنه وجد وضعًا آمنًا للحظة، لكنه كان ينظر إلى ملكوت قلبه ينتظر أن تشرق الشمس عليه من جديد.

وخزته فكرة أن يكون هذا مجرد عبث باقٍ من كيفاد، أن تكون كيفاد قد عادت يشف قليلًا من غيظ قيده، أما أن يكون هذا مجرد عبث من بقايا كيفاد هو ما لا يقبله أبدًا، الأمر يكاد يقتله ويفتك برأسه. نحن لا نموت عبثًا أبدًا.

*****

لم تنسَ سوالكوفا أبدًا ما حدث من إيفان وكيفاد، طبقت قواعد صارمة عليهما، تقول القاعدة أن مزيدًا من التطرف يؤدي إلى مزيد من التطرف، ولكن بقانون كيفاد مزيد من التطرف يؤدي إلى مزيد من الانضباط، الطغاة

ملعونون في كل زمان، وسر لعنتهم رءوسهم، حتى تلك الأشياء التي يفعلها لهم الله لعلهم يعودون لتزيدهم غرورًا، الإنسان عدو نفسه، والطاغية عدو نفسه ونفوس الخلق أجمعين، كان من المفترض أن يكون فصل اثنين من أولادها، فصلت أولادها تمامًا، لم تكن تجعل أحدًا فيهم يرى الآخر، عاملتهم لمدة شهر كامل كأنهم في سجن انفرادي، كل ما كان لهما فقط الظلام والطعام، إيفان في السجن الانفرادي كان يهلوث كثيرًا، يتوسل كثيرًا إلى أمه، لا تجيبه، يفقد الإيمان، نحن نفقد الإيمان عندما نتلقى الخيبات المتعددة، نفقد الثقة بمعنى أدق التي هي محور الإيمان، في السجن عرف معنى الظلام الدائم، تعود عليه حتى كاد يؤمن أن النور لن يراه ثانية، فقط ينتظر اللحظة التي تقذف فيها أمه له الطعام لكي يتأكد أنه مازال على قيد الحياة، لم يعرف من أين أتى لنفسه بما يجعله يتحمل ذلك، كيفاد واجهت الأمر بمنتهى الضعف، لم تكن تستطع أن تتحمل أو تواجه، لجأت للخيال، الخيال هو المهرب الوحيد من الواقع، حينما يكون الواقع مزري، أمسكت بحجر جيري صغير، وبدأت في رسم مجموعة من الأشخاص على زنزانتها، رسمت أخواها اللذان هربا، ورسمت أشخاص كانت تتمنى أن تراهم، رسمت أبيها، وأضاعت فكرها فيهم، جعلت منهم قصصًا كل يوم تغوص فيها بلا نهاية، صنعت المزيد والمزيد من الروايات التي يختلف أشخاصها كل يوم، حينما كانت تأتي أمها لترمي لها الطعام من تلك الفوهة الصغيرة، كانت تغضب، كانت تقطع عليها سلسلة خيالاتها التي لا تنتهي، كانت تعيدها إلى الواقع ثانية، مع ذلك لم يكن الخيال يمثل المفر الكامل لها، أحيانًا كانت تهاجمها نوبات من الواقع، لكن دومًا كان لها في الخيال حياة، أمها هي التي تفعل بها ذلك، هي لا تعرف معنى الأمومة ولكن في داخلها غريزة ما تجعل من نفسها معرضة للهشاشة جراء ذلك، بعد شهر أخرجتهم أمهم ولكن السجن كان يستمر أحيانًا كثيرة، ذلك بجرعات تسمح لهم بالحفاظ على سلامة عقولهم، حولتهم إلى كائنين مثل العبيد في مملكة كيفاد، ألزمتهما بالكثير من الأشغال الشاقة، قوي ساعدهم، واشتد عصبهم، ونفرت عروقهم من دماء زاد غليانها في أجسادهم من شدة

ما سقط عليهم من أعباء، اشتاق كلاهما للآخر، ولكن لم يكن هناك أمل من اللقاء، صعب أن تفقد كل ما لديك، أن تفقد كل ذاكرتك دفعة واحدة، ولكن تفاعلوا مع الأمر، لم يكن يجرؤ أحدهم على التفكير في الهرب، سوالكوفا وضعت المزيد من الإجراءات الاحترازية لمنع الهرب.

لم يكن السجن الضوئي بعيد عنهما مسافة كبيرة، لقد كان جاهزًا لهم أيضًا، انطلق القرص الذي ينطلق فوقهم، ولكن الغريب أنه لم يكن قرصًا واحدًا، كانوا ثلاثة أقراص، سوالكوفا في سجن، إيفان في سجن، وكيفاد في سجن، جن جنون سوالكوفا بالمعنى الحرفي للكلمة، صرخت فيهم أن يلزموا أماكنهم، ولكن قد فات الأوان لذلك، هي لا تعلم إن كانوا سيستجيبوا أم لا، لم تسمع منهم ردًا ولم تتوقع أن تسمع منهم رد، على الأقل إن كانوا سيفكرون في الهرب فعليهم ألا يجعلاها تحدد موقعهما، صمتا كل واحد لديه عالم بمفرده، إيفان استكشف خصائصه، أول فرد عرف أنه مجرد سجن يحجب الرؤية البعيدة، ولكن الأشياء تدخل وتخرج منه بطريقة سلسة، يتحرك القرص فوقه صانعًا خيمة من الضوء، خيمة متحركة لا ترى أي شيء يحدث خارجها، تتحرك معك أينما ذهبت كظلك وحسب، لم يكن على الأرض أكثر فرحًا بهذا السجن من إيفان وكيفاد، ظنوا في البداية أنها ربما تكون خدعة من سوالكوفا ولكن حينما صرخت سوالكوافا عرفوا أن الأمر خرج عن سيطرتها، الغريب أن هذا الضوء كان يفصل الضوء الذي يشبهه، لذلك حافظ هذا الضوء على عزلة إيفان وكيفاد ولكن كلاهما عرف أن سجن هذه المرة يعني الحرية لهما، خطرت لإيفان فكرة، جلب حبلًا مصنوعًا من سيقان أشجار مرنة كانت سوالكوفا تستخدمه لأغراض العمل وألقاه تجاه كيفاد سمح الحبل بالتقائهم من جديد، أصبح الحبل وصل بين روح أخوين، ركضا معًا، سوالكوفا صرخت بأعلى صوتها: أينما تفران سأقتلكما، هذه الأقراص الطائرة من كيفاد، أنا متأكدة من ذلك، أعلنا عن مكان تواجدكما.

لم يكن هناك أي رد، حينما يكون السجن أخف من حياتك عندها ستهرب بلا رجعة للسجن، ولن تتردد لحظة في أن تتمنى أن يبقى هذا السجن للأبد.

بكت سوالكوفا، بكت أكثر حينما عرفت أنها قد لا تكون كيفاد، قد يكون والتر يتلاعب بها، لقد بدأت كل المصائب منذ أن رحل، قد يكون هو، بل لماذا لا يكون إلا هو؟!

لعل السبب الرئيسي في تكوين الطغاة على هذه الأرض أن العقل البشري يفكر أن العقل المقابل له سيتصرف بنفس طريقته هو، القاتل يعتقد أن المقتول كان سيقتله أو سيأكل ماله فيقتله، الحاسد يعتقد أن غيره يتمنى أيضًا زوال النعم عنه فيحسده، السارق يعتقد أن العالم كله يريد أن يسرق ماله فيسرق، ربما تكون قمة الحكمة في هذا العالم أن يبدأ الإنسان في النظر للإنسان من قبيل أفعاله الحقيقية وليس بإسقاط الهوى عليه.

فكرت سوالكوفا في تصنيع كاميرا بدائية، في البداية حاولت أن تستخدم أسطوانة مجوفة تخترق بها الساتر الضوئي ولكن الضوء كان يغلقها، أي مساحة من الفراغ في هذا الحائط الضوئي كانت مسدودة للغاية، لم تفلح في صناعة الكاميرا، زاد جنونها، في هستيريا مفزعة صرخت حتى يسمعها أحد من هذا العالم، واصلت الصراخ حتى بح صوتها، سقطت من إعياء الصراخ على الأرض، حاولت أن تحلم بشيء، ولكنها لم تكن تستطيع، عرفت أن إنسانيتها قد تم محوها عن بكرة أبيها، وأن حتى طبيب الأمنيات أو حكيم الأمل لن يستطيع زيارتها، راجعت نفسها، لكنها لم تسمح لنفسها بتلك الفرصة العظيمة التي يمنحها لنا في البحث عن طريق العودة المفتوح دائمًا، إنها لا تقتنع من الأصل بفكرة أنها على خطأ، لا يوجد في داخلها ذرة من الشك، ومن لا يملك الشك لا يملك الإيمان، إن أول طرق الإيمان هو الشك دومًا!

*****

وايلد وديرو كانوا في عالم آخر، كانوا على عتبات هذا البيت الذي فتحوه، وقفوا أمام البيت يتدبرا ما الذي يمكن أن يستكشفاه قبل الدخول، كان المكان مظلم بدرجة لا يستطيعا منها رؤية شيء داخل البيت، فقط مدخل بيت عادي، لكنهما لم يتوقفا أكثر من ذلك، اقتحام المجهول ربما كان أكبر من دافعية البقاء في آمان، دخلا البيت حينما خطا الخطوات الأولى أضاء البيت ليجدا أنفسهما في بيت من الطراز العربي كامل التأثيث، انبهرت ديرو بالأثاث العربي المزركش بالألوان الزاهية، أشياء لا تعرف اسمها ولا ماهيتها لا تعرف سوى أنها ممتلئة بألوان الطبيعة التي طالما أحبتها، وايلد كان يبحث في المكان وجد خريطة معلقة بجوار الباب الذي دخلا منه، كانت خريطة للبيت، حينما أشار لكلمة البيت الأمريكي انفتح باب في تلك الغرفة، ارتعبت ديرو بعض الشيء ولكن طمأنها وجود أخيها، حينما أشار إلى كلمة البيت الإفريقي انفتح باب آخر، أخذ يشيرا إلى الكلمات والأبواب تنفتح، كان الأمر بمثابة خلية وسطها البيت العربي، وتحيط به بيوت أخرى من كل الطرز المختلفة، التي كانت تدل على الحضارات الكائنة قبل كيفاد، فتشت ديرو في البيت العربي وجدت أشياء كثيرة لكن أكثر ما لفت انتباهها شئ يحوي صورا لأشياء تشبه المكان الذي تقف فيه، بجانبه جسم غريب ضغطت عليه فوجدته يعرفه بلغة كيفاد التي علمتها لهم سوالكوفا. وعرفت أنه كتاب ضخم عنوانه الحياة الإجتماعية عند العرب، تصفحت الكتاب تتابعا مع التسجيل فوجدت فيه فصولًا تتحدث عن النشأة عند المسلمين العرب وعن طباعهم وعاداتهم وتقاليدهم، وهناك أيضًا شاشة صغيرة تعمل باللمس بمجرد لمسها تبدأ في شرح كيفية التعامل مع هذا البيت، هذا البيت هو ملجأ صنعته كيفاد يحتوى على مخزن كامل للحياة الاجتماعية في أيام ما قبل كيفاد في دول وشعوب عدة، وايلد توقف أمام تلك الشاشة يحاول استكشافها، ديرو كانت منبهرة أكثر بالألوان وتفاصيل الأشياء، ألقت بنفسها على سرير البيت العربي ولم تصدق نفسها، ربما احتضنت كل سنتيمتر من الوسائد، لم تستلق من قبل على وسائد بهذه النعومة، أخذت تسبح في نوم عميق مليء بالكثير من

أحلام اليقظة، وايلد كان يبحث عن إمكانية تشغيل كل شيء، عرف أن البيت يعمل بالعديد من المولدات الكهربائية التي تعمل بتقنية حديثة تعتمد على الوقود البيولوجي، وعرف أن المعلومات التي تم تسجيلها في هذا البيت لا تشمل فقط الجانب الاجتماعي بل تشمل أيضًا تأثير المتغيرات السياسية على الحياة الاجتماعية، الجانب السيكولوجي، وكثير من الجوانب الأخرى، وأن تلك المعلومات تم تسجيلها بأكبر قدر من الصدق ولم تسجل بزيف أو بأي شيء يخدم مصالح كيفاد، لأن الصدق هنا كان هو مصلحة كيفاد، إنه شر كيفاد، والشر سرطان يريد أن يبقى ولكن مع ذلك يحتفظ بالشرايين والأوردة اللازمة لتغذيته بالدم المناسب... اللعنة!

وايلد البيت بالنسبة له كان كنزه الحقيقي الذي كان يبحث عنه، كان البيت هو الأم الذي يمكن أن يكبر على يديها، أما ديرو فالبيت كان بالنسبة لها هو الرفاهية التي حصلت عليها، عرفت المبرد وذاقت المياه المثلجة لأول مرة في تاريخها، وعرفت الأفلام المسلية، وجدت صعوبة في البداية في قراءة الترجمة وقررت أن تتعلم لغات الأفلام، قضت في ذلك أوقاتًا طويلة تحاول أن تتعلم بعض الكلمات من الأفلام، تكون الأمور الغريبة نوعًا ما حينما تكون لأول مرة، نصف اللذة في أول مرة دومًا، أول حب هو أعظم حب، أكبر نجاح هو النجاح الأول، ألذ فاكهة هي التي تتذوقها لأول مرة، أمتع لحظة هي لحظة البداية، ربما البدايات رائعة لأنها تكون اللحظة الأولى.

مع ذلك راود وايلد العديد من الأسئلة حول الصلوات التي رآها وحول معنى كلمة الدين، عن شكل الأرض التي كانت، عن الكثير والكثير من الأشياء التي لم يكن يملك منها إلا جانب واحد. بعض الحقيقة هو درب من دروب الكذب في كثير من الأحيان!

في كثير من الأحيان كان ينام وايلد ليحلم بكوابيس مزعجة وفي أحيان أخرى كان يخاف من كل ما يحدث، كان يستوحش صغر حجمه في هذا العالم، مع

ذلك كان يواجه خوفه بشدة ولا يسمح أن يظهر الخوف للحظة واحدة أمام أخته.

لم يخرجا هما الاثنين كثيرًا من البيت في الأيام الأولى لاكتشافه، فقط يجلبا ما يصلح للطعام ثم يعودا به إلى البيت، تعلمت ديرو الكثير من طرق إعداد الطعام، تلك دجاجة على الطريقة الهندية، وذلك طبق من اللحم على الطريقة العربية، وهذا أرز على الطريقة اليابانية، وهكذا الكثير والكثير من الأشياء والأطعمة، كان هناك العديد من الروبوت القائم على تنظيف البيت الذي يعمل في صورة آلية بحتة ومركز أيضًا لصيانة هذا الروبوت!

كيفاد لا تنس شيئًا أبدًا، كيفاد تجيد صناعة تلك الأشياء بمنتهى الجودة.

مع ذلك الاستقرار لا يدوم طويلًا أبدًا.

لقد استيقظا ذات يوم ليجدا أنفسهما داخل خيمة من الضوء يعلوها قرص طائر، اعتقدا أنه أحد الروبوتات ولكن اكتشفا أنه سجن من الضوء يحيط بهما، لا يتركهما، يحجب عنهما الأُفق، ولا يترك لهما سوى حيز صغير من العالم يمكن رؤيته، اعتقدا أنهما ضغطا على أحد الأشياء بطريقة خاطئة، سارا في البيت ليبحثا عن أي شيء تغير ولكن سجنهما معهما، ولم يتغير شيء، هذا السجن محيط بهما، ربما تكون سوالكوفا، ربما تكون لعنة ما من كيفاد، لا يعرفا من أين يأتي هذا الشيء، ولكن ما يعرفاه أنهما أصبحا داخل سجن ما، ربما الأمر باستثناء الخوف من المجهول الذي يحيط بهما أصبح عاديًا بعض الشيء ولكن فكرة السجن لهما أصبحت بطريقة ما مبغضة لنفوسهما، هما لا يخافا هذا السجن لأنه بمنتهى البساطة يسمح لهما بممارسة كل ما يريداه في عالميهما، يكون السجن سجن حينما يمنعك عن ممارسة ما تريده، حينما يحجب الأفق عنك، ولكن الأفق هنا هو المدى الذي يصل إليه عالمك، أما أن يمنع السجن عنك مالا يضرك منعه ربما عندها لا يكون في الأمر سجن على الإطلاق، كل ما كان يشغلهما هو: ما الذي وراء هذا السجن؟

*****

مهند وطلال استكشفا العديد من الأماكن حولهما، تقريبًا وضعا صورة كاملة لدائرة هم مركزها ونصف قطرها ما يقارب الثلاثمائة كيلو متر، عرفا أن البحر هو جنوبهما وأنه ممتد لمسافة تبلغ حوالي مائتي كيلو متر، ولكن حينما وصلت طائرة استطلاعهم إلى اليابسة لم يقررا استكشافها، خافا أن تكون تلك الجزيرة التي عليها سوالكوفا، مع ذلك قررا أن يستكشفا تلك الجزيرة مستقبلًا، استكشفا الشمال وعرفا أن جزيرتهم ممتدة إلى أبعد من حتى مدى طائرتهم الصغيرة، رسما الخرائط، كان هناك العديد من المباني والبنايات التي قرروا أنهم سيذهبون إليها لاستكشافها، كان هناك مبنى كريستالي ضخم في وسط الصحراء يبعد عن شرقهما حوالي مئة كيلو متر، كان مبنى هرمي في قمته، لونه كريستالي لامع من لون أبيض فاقع بياضه كأنه حليب في نهار الشمس، أُعجبا بهذا المبنى كثيرًا، وبمباني أخرى غريبة الشكل، كان محيطهم أشبه بمحمية طبيعية من الأشجار، وكانت المكتبات تتخذ أهرام مدرجة الشكل ملونة بألوان عدة، مسقطها الرأسي غاية في الروعة الهندسية، أبدى طلال إعجابه بالأشكال الهندسية للمباني التي قاموا بأخذ صور جوية لها تزايد يومًا بعد يوم.

استيقظ مهند ذات يوم ليجد طلال قد بسط ذراعيه للبحر مغمضًا عينيه، لم يشأ أن يقطع عليه تأملاته التي كانت الملاذ الوحيد لهما في حياتهما القاحلة، تركه وحسب، ذهب إلى كتاب الله تعالى يقرأ فيه، ما إن عاد طلال من خلوته إليه ليسأله عن الطعام الذي يمكن أن يصنعاه للغداء حتى حلق فوقهم ذلك القرص الغبي ليطلق الضوء الذي يحجب عنهما العالم، ارتعبا من الحوادث التي يمكن أن تعقب ذلك، هذه كيفاد، هم يعرفان ذلك جيدًا، بمجرد ما تعرفا على خصائص سجنهما المتحرك عرفا أنه قادم من كيفاد، كيفاد تسيطر عليهم من جديد، صرخا بأعلى صوتهما هذه المرة، شقا السجن والأفق والسماء وكل ما كان فوقهما بالصراخ، لماذا ثانية؟!

بالنسبة لهما كان السجن سجنًا حقيقيًا، أولًا لأنه قادم من كيفاد، ثانيًا لأنه يمنعهما الحرية الكاملة التي كانا عليها، إنهما يعرفان بالتأكيد أنهما مراقبان الآن، يعرفا أن كيفاد تلاحقهما.

السجن إن أطبق على الروح كيف تجد النفس للحياة من متنفس، أطبق السجن على تأملاتهما في المجال الواسع، حملا الصور الجوية التي حصلا عليها، كان عليهما إرسال المزيد من الرحلات الاستكشافية لتأمين الطريق للمبنى الكريستالي الضخم الذي أرادا الذهاب إليه، فكرا في تأجيل الرحلة، ولكن كانت فكرة طلال أنه بعد أن يستكشفا الطريق المؤدي إلى هدفهم جيدًا يستخدما طائرتهم لكي تصور لهما الأفق، قاما بتحديثها باستخدام أجزاء من الحواسيب التي كانت في المكتبات، مهند أصابه الضيق بطريقة لا يمكن تخيلها، لقد أطبقت فكرة أنه لا يستطيع الرؤية خارج الإطار الضوئي المسجونان فيه على روحه بطريقة كبيرة، أين يمكنه الذهاب؟!

لا يمكنك الذهاب إلى أي مكان في العالم إذا كان السجن يبدأ من روحك، إن سجنوا فيك الروح يا رفيق فأين المفر؟!

لا يمكنك أن تفر، ولا أن تغادر، أنت هنا... وحدك وهذا العالم لا يريد أن يقبلك حرًا، الصراخ لا فائدة منه أبدًا... هكذا حاول أن يُحدث طلال مهند ولكن مهند شعر أن روحه يكاد يختنق بها، أصعب ما يمكن أن يحدث لك يا رفيق أن تغرق لأن اتساع روحك لا يسمح لك بالتنفس، تضيق عليك الأرض بما رحبت.

أردف طلال يقنع مهند بمحاولة تقبل الأمر:

- يجب أن تعلم كثيرًا عن السجن يا رفيق، السجن لا يبدأ من تلك اللحظة التي تنغلق فيها عليك جدران الزنزانة، السجن يا رفيق يبدأ من اللحظة التي ولدت فيها لكي تستقبل السجن، إن كانت روحك في هذه الدنيا معلقة بشيء من متاعها فأعلم أن بمجرد أن يذيقك السجن لوعة الحرمان منها تبدأ المحاكمة، ويبدأ الاختبار الحقيقي، هناك من تكون روحه فوق كل ماديات

هذا العالم، هؤلاء لا يمكن سجنهم أبدًا، وهناك من تكون روحهم بين طين هذه الأرض لا تستطيع مغارة الصلصال الذي صنعوا منه، هؤلاء مسجونون منذ أن ولدتهم أمهاتهم يا رفيق!

رققت الكلمات من نفس مهند شيئًا فشيئًا، انتهى بهما الأمر أنهما سيغادران إلى البيت الكريستالي، سيبدءا الرحلة الأولى مع ذلك، سيتمردان على السجن حتى وهما في السجن، كل الذي سيسمح به السجن سنفعله، ما لا يسمح به السجن سنتحايل عليه، الطائرة كانت هي نافذتهما إلى الأفق، لم يكتفيا بذلك، صنعا سيارة صغيرة تعمل ببعض خلايا الشمس التي انتزعوها من أحد المباني التي اقتحموها ووضعوا عليها كاميرا، كان هناك مصنعًا صغيرًا اعتمدوا عليه في تصنيع الكثير من الأشياء البدائية، جعلوا تلك السيارة تسير أمامهم لكي يروا من خلالها أيضًا، لن ينتظروا الرؤية التي يسمح بها السجن، نحن متمردان، ويجب أن نعيش حياة التمرد كاملةً، هذا ما حدثا به أنفسهما.

في الطريق أخذ مهند يصنع تماثيل صغيرة من التربة لحيوانات ولبشر ويتركها، حاول طلال أن ينهاه عن ذلك عسى أن تعبد من بعدهم، أجاب مهند بسخرية:

- وهل هناك من يأتي بعدنا؟!

صمت طلال، ربما وقف أمام الحقيقة وحسب، ولكنه تراجع عن الصمت قائلًا:

- النهي نهي يا مهند، الخطأ خطأ يا أخي، الخطأ خطأ في ذاته قبل أن يكون خطأ في علة خطيئته.

اقتنع مهند، هدم التماثيل التي كان قد صنعها ولكنه لم يهدم تلك التي تركها خلفه، لم يكلف نفسه عناء العودة لفعل ذلك.

ولكن الرحلة استمرت، إلى ذلك المبنى الكريستالي الضخم الذي استمرا في إرسال رحلات الاستطلاع إليه.

بمجرد الاقتراب من المبنى الكريستالي تلامس ضوء السجن الضوئي مع خط من الضوء قرمزي يحيط بالمبنى، حينها انقشع ضوء السجن تمامًا، ذهب السجن، عاد الأفق من جديد، رأى كل منهما الحياة دون قيود، لم يعد هناك مكان لاختبار مدى ضيق روحيهما ثانيةً، نظر طلال إلى مهند يقول: ما الذي يحدث لنا يا رفيق؟!

صمت مهند لحظات طويلة قبل أن يجيب: الحياة يا أخي، تلك هي الحياة، أتعلم بعد كل مصيبة تحدث لنا علينا أن نسأل أنفسنا، ما الذي جعل تلك الكارثة تحدث؟ ولكن بعض الكوارث كل ما علينا فعله بعدها أن نستريح، أن نتنفس بعمق ملأ رئتينا، أن نتجاوز، وأن نقتنع أن الدهر هكذا يمر يوم لك ويوم عليك، وندعو ألا يجمع الله عسرين أبدًا علينا يا أخي.

ولكن طلال لم يمتلك تلك الأريحية، السؤال يدمره:

-من أين جاء هذا السجن؟ وأين ذهب؟!

*****

في الموقع ٤ واحد كان وايت يصنع المفاجأة غير المتوقعة، هذا السجن هو المفاجأة غير المتوقعة، وايت كان المسئول عن كل ما حدث لكل من في هذه الأرض، لقد نجح في حصر كل من تبقى على وجه الأرض وكان يريد أن يبقيهم تحت ملاحظته، وبرغم أنه أطلق برنامج السجن الآلي إلا أن الرد كان غير متوقع، لقد دمر نظام الرصد الآلي هذا تمامًا، بسبب ما فعله مهند وطلال، فهروب مهند وطلال ووصولهما إلى هذا الخط القرمزي من الضوء المحاط بالمبنى الكريستالي كان علامة خاطئة على أن وايت أشبه بمتمرد على كيفاد، لقد أعطى كيفاد معلومات غير دقيقة، واستحق عقاب كيفاد الأبدي، السجن حتى الموت جوعًا وعطشًا، في أقل من ثانية انطلقت طائرات صغيرة لكي تغلق على معصميه وكاحليه مثبتة إياه في الأرض، لكي يبقى هكذا حتى الموت.

أن تنتظر الموت هو موت في كل ثانية، لعل البعض يسارع بقتل نفسه إن وضع في مسألة الخيار بين انتظار الموت والموت، ولكن أن تكون مجبرًا على انتظار الموت، أن لن يكون هناك خيار، أن يكون الموت هو النهاية، لقد عاش وايت من أجل كيفاد التي لم يكن يعرف عنها شيء سوى أنها موجودة على أرض ما، ربما سفينة، ربما طائرة عملاقة، مع ذلك كان هو بالنسبة إلى كيفاد علامة من علامات كفرها بنفسها وبعقيدتها التي تزرعها في قاطنيها، لم تكن كيفاد تتعامل مع وايت ومع المخازن التي وضعتها في الجزر على أنها خطة من تلك الخطط التي تستخدم للكوارث. بلى، لقد كانت تتعامل مع الواقع على أنه من المفترض أن ينتهي، كانت تعلم أنها النتيجة الحتمية مهما طال بها الزمن، مع ذلك برروا لأنفسهم الأمر، أن ذلك فقط من قبيل الاحتياط، ولكن الحقيقة أنهم لم يكونوا يستطيعون أن يجردوا أنفسهم من التاريخ دفعة واحدة، عطش وايت في البداية، شعر بالملح يغوص في حلقه كأنه وحش يغرس أنيابه فيه، ثم تحول الملح مر حنظل كقلب ثمار شوكيات الصحراء، العطش يفترسه، يشعر بالجوع ولكن إحساس العطش يغنيه عن كل شعور، في تلك اللحظة فكّر في حقيقة كيفاد، لماذا لم تستطع كيفاد إنقاذه الآن؟!

ألم يُضع عمره كله من أجلها؟!

ربما هي الصلوات التي كان يُصليها مع مهند وطلال هي السبب في لعنته، ولكنه كان يصلي لكيفاد في السر ولم يفوت صلاة واحدة كما قرأ ونشأ، تذكر أبيه الذي علمه كيفاد كيف عاش ومات مخلصًا لكيفاد؟!

كيفاد الآن تخطيء ويموت في أحد سجونها نتيجة خطأ برمجي في أحد حواسيبها!

هو لا يعي ذلك، هو في حيرة من أمره، يريد أن يكون له حتى حق معرفة ما الذي عاش عليه؟ وما الذي سيموت عليه؟!

٥

تلك رقصة الموت فمن يبالي؟!

لتأخذني الأقدار أينما شاءت أنا لا أبالي.

الموت أمامي، الموت خلفي.

الموت يحاصرني، أنا لا أخشى الموت.

أنا لا أعرفه حتى أخشاه!

أخاف مما لا أعلم لماذا؟!

صغير أنا في هذا العالم، ضئيل جدا.

من يراني.

من يهتم بي.

******

ذهب السجن الضوئي كما جاء دون سبب، لا يعلما، تسائلا ولكن يا أخي هذه هي الأيام، لا تسأل كثيرًا عن السبب وراء ما يحدث، علمنا البشري محدود للغاية، نحن محدودون جدًا، هذا العالم كان فيه الكثير، لماذا ترهق نفسك بالبحث عن تساؤل من أين جاء هذا السجن كثيرًا جدًا هكذا؟!

كثيرًا وكثيرًا حاول مهند إقناع طلال بالعدول عن فكرة البحث وراء سجن الضوء هذا، المبني الكريستالي الذي أمامهم غيّر الموضوع تمامًا ربما يصلان إليه، ينظران إلى ارتفاعه الشاهق وامتداده الغير محدود؟!

علق طلال:

- كيف لم تصطدم الطائرة التي صنعناها بهذا المبنى وأعطتنا صورًا جوية كاملة عنه؟!

ابتسم مهند:

-ربما يكون هذا المبنى يصغر ويكبر إذا حلقت فوقه أحد الطائرات مثلًا؟!

أردف طلال: ولكن كيف سندخله؟!

كان المبنى مصمت أملس كأنه صُنع من كريستاله واحدة لا مدخل فيه لطرف، اتفقا مهند وطلال على السير بمحاذاة حوائطه، سار لمسافات تقرب من الثلاثة أيام حتى وجدوا واجهة ذلك البناء الضخم، كانت الواجهة مكونة من أعمدة ممتدة على الطراز الروماني القديم كل عمود منهم نُقش عليه أشكال مختلفة وعلى ارتفاعه رسم لقارة من قارات الدنيا السبع القديمة، يتقدم ذلك دائرة من الخزف مزركشة بألوان لم يروا في نقائها نقاء في كيفاد وداخل تلك الدائرة مبنى صغير كريستالي أيضًا، محاط بالكامل بزجاج شفاف يكشف ما في داخله، استنتجا الإثنان أنَّ هذا المبنى هو نموذج مصغر للمبنى الكبير وذلك من تشابه واجهتي المبنيين، واستنتجا أيضًا أن طائرتهم التقطت صورة لهذا المبنى، وليس للمبنى الكبير، على جانبي الدائرة كانت الحدائق مليئة بأنواع من زهور لم تمر علي عيون مهند وطلال من قبل، السحر أخذهم من دهشة ما شاهدا أمامهما، المبنى يلمع وفي وسطه العبارة باللغة العالمية واضحة كالغاسق في الليلة الصافية:

-متحف الموارد البشرية!

أطلق طلال النفس بشهقه من فرط غيظ:

-هل يُعقل أن يكونوا حنطوا البشر وجثثهم؟

استخف مهند بضحكة غير مكتملة:

-لقد كانوا يحنطوا الأحياء، ما بالك بالأموات يا رفيق؟!

تنفس طلال يعيد عقله بعيدًا عن استعجابه:

-السؤال الذي يطرح نفسه الآن هل سندخل؟!

نظر مهند حوله كأنه يودع العالم، العلياء صافية في وسطها الشمس قد أوشكت على المغيب والرياح ريدانة لينة تلامس مقدمات وجوههم مرسلات من ربهم عليهم غير حاصب ولا حرور وإنما هي مائلة إلى أن تكون بليلة بشيء من الندى المغادر لبراعم الزهور طوال النهار لكي يذهب إلى حيث يريد الله، النشئ والغمام يظللا ما يستطيعا من السماء يوشك أن يهمع المطر منهما على قلوبهما حتى يرتويا من تلك الطبيعة قبل اختيار مغادرتها، قد ينغلق البيت عليهما دون عودة، أو قد يصبحا قطعتين في هذا المتحف، إنهما لا يأمنا كيفاد بعد كل ما حدث لهما، ولكن يعرفان في قرارة أنفسهما أن كيفاد قد ماتت، وأن كل ما تبقى منها هو بعض من شر الروح التي عاشت بها أوالأخطاء التقنية التي تحاصرهما، يميل الإنسان من آن لآخر لاستخدام المبرر الأقرب إلى السهولة، دخلا إلى المبنى، تجاوزا البوابة الأولى، فوجئا بقاعة فسيحة مليئة بالبوابات الأخرى، كل بوابة كتب عليها رقم، وكتاب قد حفظ في بيت من الزجاج مضيء بمجرد ما اقتربا منه حتى ظهرت صورة القائد العالمي في شكل هولوجرام ضوئي يتحدث لهما: أهلًا بكم بعد النجاة من كل ما حدث في كيفاد، بالتأكيد كانت رحلة صعبة إلى هنا، الكتاب يشرح خطوات النجاة لإعادة كيفاد حتى لا تموت، كيفاد باقية إلى الأبد، كيفاد باقية إلى الأبد.

معتوه، هكذا تفوه طلال ومهند في نفس واحد، فتحا الكتاب وعرفا أن هذا المكان من المفترض أنه من المستحيل الوصول إليه لأنه من أكثر المناطق سرية في هذا العالم وأن الوصول له يمكن لقادة كيفاد الكبار فقط لذلك المكان

مفتوح تمامًا، عرفا أن المبنى يحتوي على الكثير والكثير من الأسرار، قلب العالم كان هذا المكان ومستقبل العالم القادم هنا أيضًا، فتحوا الباب الأول لكي يجدوا متحفًا كاملا للأجنة، هذا طفل من أواسط أسيا، وهذا طفل ينتمي إلى الشمال الأوربي، أجنة محنطة كاملة في محاليل التحنيط، تواريخ تعود لأكثر من ألف عام، أجنة مشوهة وأجنة سليمة كاملة البنيان محفوظة في أوعية زجاجية، وأجنة نتاج محاولات التخليق الوراثي، كان هذا الممر هو بداية كفر القصيدة التي ربما تعود أبياتها على نظام قرر أن يحطم نفسه بنفسه، الممر كان طويل للغاية ومليء، وأمام كل وعاء يمكنك أن تمتلىء دهشة أو أن تمتلئ رعبًا، أو أن تمتلئ تقزز، في النهاية ستشعر أن ذلك من فعل البشر وحسب، لا أحد يمتلك كل هذه القسوة سوى البشر، لم يكن هذا التحنيط لأي غرض علمي أو أي غرض عقائدي، كان هذا من قبيل العبث بفرضية أن البشر سينتهون أو سيتطورون إلى مخلوقات أخرى، هذه المخلوقات يجب أن ترانا، هذا هو الغرض، الممر لم يكن قصير ولم يكن للأجنة وحسب، كان بعد الأجنة أطفال، وبعد الأطفال مراهقين، وبعد المراهقين بالغين، وبعدهم كبار السن، وبعضهم جثث موتى، كان كل جنس بشري يحتوى على أعمار بالشهور من سن يوم إلى ستين عامًا، وفي النهاية بعض المعمرين الذين كانوا يخرقوا القاعدة في الزمن الغابر لكيفاد، كل جثة محنطة كان ورائها حكاية ما، وقف مهند أمام طفل في العاشرة من عمره ليشاهد أنه بلا جرح ولا أي أثر لأي ميتة، يبدو أنه حي يتحرك في الماء، كيف جاء إلى هنا، وكيف قتلوه، وكيف اختطفوه، وكيف كانت كل تلك الجثث قبل أن تكون جثث، ما هي حياتهم؟ وما هي قصصهم؟

ما القصة التي جعلت كيفاد تأتي بهم إلى هنا، تذكر مهند قصة أخيه، كان قد تنكر من ماضيه بعض الشيء، أنسته وعورة الأيام ما حدث في الأيام التي قبلها، أخبر طلال أن عليهم أن يعودوا إلى هنا ويقومون بدفن كل هؤلاء الأشخاص، يستغرق الأمر سنوات ربما لكي يتمكنوا من دفن كل من في الممر ولكن إنه عمل يستحق، يجب أن تنتهي كيفاد من هنا، مملكة الشر التي

تسيطر على المكان يجب أن تموت للأبد، انتهى الممر برغم طوله لكي يجدوا باب، الخوف تملكهم أكثر، خاصة حينما وجدوا على الباب عبارة " خطر"، اتبعوا إجراءات السلامة ١٠٢٠ " إنهم لا يعرفوا ماهي إجراءات السلامة ١٠٢٠ ولا يعرفوا ما الذي يمكن أن تكون، ولا يعرفوا إن كان عليهم أن يقتحموا الخطر أم لا؟!

ولكن ما الذي يمكن أن يكون وراء هذا الباب؟

أغار الخوف على قلبيهما، وداعب عقليهما الفضول، ولكن الحياة غالية، فتحا كتاب الدليل الخاص بالمبنى من جديد، لم يفهما شيء من الموجود في الكتاب، لم يريدا أن يفهما، ما وجداه يصعب على الفهم البشري، يصعب على الاستيعاب، فتحا الباب الموجود ليشاهدا ما شاهداه، الباب يفضي إلى ممر دائري يعلو قاعة مساحتها تزيد عن الكيلو متر مربع، القاعة تحتوى على أقفاص بها بشر أحياء، قامت كيفاد بجلبهم أجنة من بطون أمهاتهم من ذكر وأنثى وقامت بتربيتهم هنا، وعلمتهم أن هنا هو وطنهم، حياتهم تتلخص في النوم والاستيقاظ والجري على المشايات الرياضية وتعلم لغة كيفاد العالمية وعبادة ما وراء الزجاج الأسود، الزجاج الأسود الموجود في الممر الدائري أعلى القاعة الذي يقف وراءه طلال ومهند، زجاج يكشف لطلال ومهند كل شيء وهؤلاء الذين في القاعة لا يروا أي شيء، يعيشون حياتهم في رتابة مذهلة، الكتاب وجد فيه تفاصيل عن تنشئة هؤلاء الأفراد، الروبوت يقوم بكل الوظائف لهم بما فيهم وظيفة الانهاء، حينما يقوم الزوجين تنشئة ذكر وأنثى آخريين يقوم الروبوت بتقديمهما قربان للآلهة وراء الزجاج الأسود، زرعت كيفاد في بعضهم الأدمغة الاصطناعية حينما حاولوا التمرد، اكتملت العملية عمدًا وأمام الجميع، هناك مجسَّات تراقب أدق التفاصيل الموجودة في حياة هؤلاء، إن حدث تمرد تكون عواقبه وخيمة، الكثير من التفاصيل المرهقة للنفس استيعابها، هذا نظام أغبى من نظام كيفاد نفسه وأكثر وحشية، لكي يحافظ القاتل على مهابته يفعل أي شيء، هذه المرة كيفاد تجاوزت كل

الحدود، لقد صنعت خط إنتاج للبشر في غاية البؤس والشقاء، بشر يولدون ويموتون ولا يعرفون لماذا جاءوا ولماذا ماتوا، نظروا حولهم ليجدوا بشرًا من مختلف الألوان لا يفقهون شيء سوى أنهم سيموتون ينتظرون فقط أن لا يقدمون قربانًا لمن هو خلف الزجاج الأسود.

صرخ طلال بأعلى صوته:

- أي هراء هذا؟ من أجل أي شيء يصنع كل هذا؟ اللعنة على كيفاد، اللعنة على كل الأنظمة، اللعنة على كل الطغيان في هذه الأرض.

كان مهند صامت يفكر في الصدمة التي حلت به، إنه لايستطيع أن يستوعب كيف مر ألف عام على هذا المبنى؟ كم جيل مر من هنا؟ كم شخص قتلوه حينما أعمل عقله؟! كم شخص خطفوه من عالمه لكي يجلبوه إلى هنا؟ ولكن مهند لم يصرخ أبدًا، لم يجعل الغضب يخرج من موقعه ليبوح به إلى العالم الخارجي، كتمه داخله وحسب.

هدأت ثورة طلال، سأل مهند عما يمكن فعله هنا؟

ما الذي عليهم أن يفعلوه لكي يحرروا هؤلاء الأشخاص؟

أجابه مهند أن عليهما الخروج من هنا، علينا مغادرة هذا المكان فورًا يا أخي، لا يمكن أن تفكر في بنت شفة وأنت محاط بهؤلاء، الشفقة على الضحية مختلطة مع النقمة على الظالم لا تصنع قرارًا راشدًا أبداً، وبخاصة إذا كان الظالم لم يعد للانتقام منه سبيل.

عادا إلى غرفة الأجنة، على الأقل هنا كان الأمر مجرد موت، لم يكن حكم بالموت، أليست الحياة وأنت لا تعلم مغزى لها موت؟! وأليست الحياة وأنت تعلم لها مغزى مزيف موت؟! وأليس الطريق الذي يجبرك أحدهم على سيره موت؟

الحياة رائعة يا رفاق حينما يتعلق الأمر بالاختيار، ما دون ذلك ظلمات فوق ظلمات.

ذات يوم قرأ طلال في كتب التاريخ القديم التي وجدوها أن أحد الذين احتلوا ليبيا كان يسمى الجنرال جراتسسياني، كان يربط الليبيين الأسرى كل رجل في الآخر ويلقي بهم من الطائرات أحياء ليسقطوا موتى، كان يستفسر طلال دومًا عن شعور هؤلاء عندما يحدث هذا، كيف كانت تعبيرات وجوههم وهم يسقطون الواحد تلو الآخر مربوط في أخيه، تخيل أن تكون تلك اللحظات هي عمرك كله.

رفع طلال رأسه بعلامات الشيب التي ظهرت قبل موعدها ليسأل مهند:

-كيف سنحررهم؟

أجاب مهند:

-السؤال لا يكون هكذا، ماذا بعد أن نحررهم؟

ماذا لو قام مجنون فيهم مقتنعًا أننا لوثنا شرف حياتهم المقدسة ليثيرهم ضدنا وقتلونا؟!

هؤلاء قوم ونحن اثنان يا رفيق، الأمور معقدة!

طلال: يبدو أن الحل الوحيد الذي أمامنا أن نجد طريق لتحريرهم فردًا فردًا ونحاول معهم واحدًا تلو الآخر.. يمكننا أن ننشئ قومنا من جديد يا رفيق، وتموت كيفاد للأبد!

يبحثان في الدليل الذي بين أيديهم عن آلية عمل تلك الغرفة، كيف يمكن تحرير كل فرد فيها، حاولا القراءة وفك تلك الطلاسم:

- غرفة التخليق المباشر هي غرفة تصنع فيها أفراد بلا قناعات سوى أنهم موجودين من أجل إرضاء ما وراء الستار فقط، وعليهم أن يعيشوا في تلك الغرفة المخصصة لهم طوال حياتهم

- تقوم الإنساليات بتطبيق جميع القواعد التي برمجتها من أجل تلقين هؤلاء الأفراد حياتهم.

- هؤلاء الأفراد هم أمل كيفاد الباقي في حالة دمار كيفاد الكامل لذلك يجب الحفاظ عليهم بطريقة مبالغ فيها.

- كل من تمرد من هؤلاء الأفراد يزرع في رأسه دماغًا اصطناعية تحتوي على المعلومات الكاملة.

- في حالة استمرار التمرد يقتل هذا الشخص علانية بوضعه في ما وراء الزجاج الأسود.

- في حالة وصول أحد الناجين إلى هنا يقوم الأقدم رتبة بالدخول إلى غرفة القيادة خمسمئة، وذلك لتحرير ما يتطلبه العالم من أشخاص، حيث يقوم الماسح الكوني بتحليل كل ماتبقى من كيفاد ومن أفراد على سطح كل ما وصلت إليه البشرية من أشخاص يحتاجها لاستمرار النوع!

- لا يمكن إطلاق أي عملية تحرير بأي طريقة أخرى إلا فى وجود الرقم السري من القائد العام شخصيًا!

سخط طلال من تلك اللائحة الغبية، يهشم جدارًا زجاجيًا غير ذي أهمية بكعب الكتاب الذي يحمله، مهند يتمالك أعصابه بعض الشيء، يقول لطلال: اهدأ، علينا أن نعرف ماهي نتائج الماسح الكوني هذا!

بحثا عن نتائج الباحث الكوني في غرفة القيادة.

هناك تسعة أشخاص ناجين فقط، تم قتل واحد لأنه أخبر كيفاد معلومات خاطئة والبقية هم ثلاث نساء و خمسة رجال، سيطلق لكل رجل امرأتان ولكل فتاة رجل واحد، الناجون في القاعدة يمكنهم طلب ما يشاءون من الجنس الآخر طالما كان الناجون رجال بشرط أن لا يتجاوز الواحد فيهم سبعة نساء، بقية الناجين يرسل لهم فقط ما نصت عليه القواعد، ما تبقى من البشر المخلقون يعدمون خلف الزجاج الأسود بمجرد إنجاب أول ذكر وأنثى على الأرض من جديد. هذه هي قواعد اللعبة التي تفرضها عليهم كيفاد!

طلال يكاد يفقد عقله، مهند أمسك ورقة وقلم ويجلس ليحسب الأمر، كم يكون عدد القتلى في حالة القبول؟ هل يقبلا؟

إن تركناهم نكون حكمنا على الجميع بالموت وإن أطلقنا برنامج التحرير نكون قد حكمنا على الجميع بالحياة وعلى مجموعة واحدة بالموت!

يستردف طلال:

-إن تركناهم تكون هناك حياة لا يعرف أحد عنها شيء، هؤلاء لن يشعروا بالأذى مطلقًا، إننا ننهي تلك الجريمة.

يجيب مهند:

-ننهي الجريمة بالجريمة يا أخي، لا يوجد خطأ في هذا العالم يمكن أن يُحل بالخطأ، الخطأ خطأ، الكذب لا يمكن أن يكون صدق إذا كذبنا ثانية، السرقة لن تكون حلالًا إذا قمنا بالسرقة ثانيةً ولو من غير صاحب دين، ثم هل تعرف من هم الثلاث النساء والخمسة رجال؟ نحن رجلان تبقى ثلاثة، ثلاث من كيفاد؟ تعتقد أي دين يتبعون؟

لم يشعر طلال إلا بالصمت ليغرق في تفكير طويل، هل هو قادر على أن يقتل من لا حول له ولا قوة؟ هل من أجل رغبته في استمرار نوعه أن يقتل؟ هكذا فعلت كيفاد... هكذا فعلت كيفاد... ظل يرددها حتى خرجت من تفكيره إلى حنجرته أمام مهند.

أجابه مهند:

-ولو فعلت كيفاد، كيفاد ليست قدوة لنا في شيء يا أخي، يا أخي إن أكبر انتصار للظالم أن يجعل المظلوم صورة منه في يوم من الأيام.

طلال:

- علينا أن نواصل البحث، علينا أن نجد حلًا أخر، لن نترك الطاغية ينتصر علينا وهو ميت يا أخي، لن نفعل!

بحثا في المبنى ليجدا حل، شاهدا الأعاجيب والأعاجيب في داخل هذا المبني، في دهليز متفرع من غرفة القيادة وجدا شاشة صماء تشرح طريقة القتل وراء الزجاج الأسود، كانت تلك الطريقة هي عبارة عن منشار يعمل بالطاقة الضوئية التي تجعل حركته بطيئة جدًا يقوم بقطع الجسد من القدمين حتى يشق كل رجل نصفين ثم يفعل ذلك بالطرف العلوي من اليدين وصولًا إلى الكتف، ثم يُترك هكذا حتى ينزف إلى الموت، كانت تُفتح ميكروفانات صوتية لنقل الصراخ إلى كل الزنازين الأخرى التي يسمونها حجرات التعذيب.

فوجئا في أحد الممرات بالقائد العالمي لكيفاد يسير أمامهم، تجمدت الدماء في عروقهم وجحظت مقل العيون حتى كادت تسقط من حجراتها، اللعنة هل هو حي؟

لم يدع طلال للتفكير جانبًا، هرع نحوه في سرعة من يقاوم الموت، أحيانًا لا يلزمك للنجاة سوى أن تقدم على الموت بنفس رغبتك في الحياة، مد طلال ذراعيه إلى عنق القائد العالمي، سينشب مخالبه فيه ولن يتركه إلا وأحدهما ميت، ولكن ما إن فعل حتى وجد يديه تقبض على الهواء ولا يوجد شيء، كان الأمر مجرد تمثال ضوئي للقائد العالمي يحاكي الحقيقي بنسبة لا يتخيلها عقل، لعل أهم ما يميز الطغاة هو قدرتهم على السيطرة على خيال الجماهير، يقتلونك بالرعب من خيالهم قبل أن يقتلوك بحقيقة أيديهم.

ضحك مهند وهو يقول لطلال:

- لا تستطيع قتل الضوء يا طلال.

من يستطيع قتل الخيال؟ كانت هي الجملة ربما الأسلم التي على طلال أن يقولها!

أصاب طلال شيء من لهث يريد به الماء يروي به ما تبقى من نفرة عروقه، بحثا عن الماء سارا في كثير من الممرات حتى وجدوا ما عرف باسم بيت الضيافة وهو البيت الذي سيسكن فيه الناجون بعد الزواج، بيتًا عاديًا مصممًا

على طريقة كيفاد، دخلوه وجدوا فيه صنابير للمياه فشربوا، هناك بعض الطعام المصنع الذي لا يحتوى على طعم ولا حياة لم يقرباه، استند طلال على أحد الجدران ليجد مفاجأة ما في انتظاره!

******

حينما زال السجن الضوئي عن سوالكوفا، أول ما صنعته كان هو البحث عن كيفاد وايفان، ولكن قد فات الأوان، هربا من جحيمها مثل أخويهما، فقدت صوابها، طار عقلها، واشتاط جنونها، لم تكن تصدق، لن تصدق، ولكن هذا لم يمنع أن ما تم قد تم، وأنها وحيدة، وأن كل قوتها قد ذابت، ولكن هي لديها هدف وحيد الآن، أن تبحث عن وايلد وديرو وإيفان وكيفاد، أو حتى إيفان أو وايلد لو وجدت واحد منهم ستتزوجه رغمًا عنه، هي بلا حدود، بلا نواهي، فطرتها البشرية تم محوها، حينما بدأت السير في رحلة البحث، كانت الرسل تتوافد عليها، الرسل ليست بشر، كل آية من خلق الله رسول، كل كتاب يحتوي على شيء من الحق هو رسول، ولكن أن يكون على وجهك اللثام الذي يمنعك من رؤية ما بعد وجهك بسنتيمترات هو ما يجعلك لا ترى الرسل، هي لا تؤمن أنها الشر، أعتى أشرار العالم لم يكونوا يعرفوا أنهم أشرار، إنها الحقيقة، إنها الذات، والآخرين هم الشر، وتلك أعظم آفات الشر المؤدلج، الشر الذي يملك بنيان من الأفكار، حتى لو كانت تلك الأفكار هشه، الرحلة التي وصلت بها كيفاد لتكوين هذا العقل لم تكن سهلة على الإطلاق، ذات يوم ركنت سوالكوفا رأسها على شيء من حجر وأطلقت لرأسها السقوط فى بئر النوم، جاءها الحلم بأن القائد العالمي لكيفاد يذبحها وأن والتر يخلصها من بين يديه، استيقظت مفزوعة، فكرة أن يأتيك ما يهدم فكرك وقناعاتك التي تريح رأسك أمر مفزع، مع ذلك هذا أيضًا لم يجعل سوالكوفا تتردد ولو لحظة في البحث أو الشك، كانت مصممة على السير، يتحرك الطاغية بعد أن يفقد قوته من منطلق المتغطرس الذي يمارس غطرسته إلى متغطرس، ولكنه يفقد من يستطيع التغطرس عليهم، فتضيع حيلته

ويسقط في بئر الفراغ الذي يجعله وحيدًا، فيمارس الجنون، يصرخ أحيانًا، يهدد غير الموجود أحيانًا، يصمت أحيانًا، يقع في بئر الصمت تاركًا خلفه كل غطرسته لكي تجري وراءه في خيالاته البالية، صمتت سوالكوفا وهي تحاول السير مسيرة أيام، مسجونة في أوهام زرعتها في رأسها أنها على صواب دائمًا، الكون كله باتساعه أمامها ومع ذلك هي مسجونة داخل رأسها، هاجمتها الأحلام أكثر من مرة، رأت كيفاد ووايلد وديرو يهربون منها دون أن تستطيع اللحاق بهم، رأت كائن ذو أربعة رءوس كل رأس منهم هي رأس ولد من أولادها وهي تقطعها ولكن بعد أن تفعل ينبت كل رأس لكائن آخر ذو أربعة رءوس وكلما فعلت نضجت الرأس ونمت إلى كائن ذو أربعة رؤوس، حتى ابتلعها أحدهم، تستيقظ مفزوعة ملء صدرها هواء العالم ومع ذلك لا تعتبر من شيء، تمر بالأمر، لا تتوقف، لا يوجد صعود في هذا العالم دون أن تتوقف، بعد مسيرة يوم آخر من سيرها وجدت النهر، في النهر وجدت أثار أقدام بشرية إلى حد ما ليست كبيرة، اضطرب قلبها، إنها على صواب، ها هو القدر يعيد إليها أولادها لكي تنقذ كيفاد من جديد وتعيد الخير للعالم والنظام والحرية المطلقة، كل الأحلام كانت اضطرابات من العقل اللاوعي، أما الآن فها هي تقترب، اقتفت الآثار حتى اهتدت، ووصل الطاغية ضلاله، انتهت الآثار إلى كهوف في جدار يسقط منه شلال حيث ينبع منه النهر، الشلال في الليل مخيف حتى يهلع قلبك وينشق عنه صدرك، حول الشلال الكهوف يخرج منها أصوات تشبه فحيح الأفاعي، وأفعى رقطاء مثلها برغم أنها لا يجب أن تخاف من جنيها إلا أنها خافت، ضمت حدقتيّ عينيها برغم أن الظلام يجبرها أن يتسعا، ولكنها أرادت أن تبالغ في التركيز تستكشف فحوى هذا الفحيح الذي يملأ الفراغ من حولها، امتشقت سهم من جعبتها ووضعته في قوسها وأشعلت رأسه وأطلقته في الفضاء ينير لها العالم ولكن لم يحدث شيء، هل تسدد السهم لأحد الكهوف؟

ماذا لو كان ما بداخل الكهف عدو؟ ماذا لو كان شيئًا من كيفاد؟

إنها لا تعلم شيء، ولا يمكنها أن تفسر شيء مطلقًا، يخيفها جهلها أكثر، كانت تظن أنها على علم بكل شيء، وأنها تعرف حقيقة كل الوجود، ولكن الآن خرجت من دائرة المعرفة المحددة المريحة إلى حد ما، تلك الدائرة التي تجتمع فيها محدودية المعرفة مع كم هائل من الثقة بالنفس، إنها أبشع من أبشع ما حدث للإنسان على مر التاريخ، إنها الآن تكتشف العالم الذي يثبت لها أن هناك دائرة غير مريحة على الإطلاق يمكن أن تنهش كل يوم مر عليها في ظلام الجهل.

لم تتخذ أي قرار بعد، لم تعرف موقف من قبل يمكن فيه أن لا تتخذ قرار، الأصوات تتعالى تتحدى عجزها، ضوء القمر يسقط على أخشاب الأبنوس المختبئة داخل شجرها ليظهر لها كم هو ثابت أكثر منها وأنه يتحداها الآن ليثبت لها غبائها.

رائحة كريهة يحملها النسيم، يتبعها رائحة طيبة، كل الحواس تتآمر عليها لكي لا تخبرها بحقيقة ما في الكهوف.

تحسست الأرض تقترب من ضفة النهر تقترب من مجهول لا تعلم عنه شيء، الصوت يزداد فترتعد أوصالها ولا تجرؤ على الاستكمال، تتخذ خطوات للخلف في بعض الأحيان ولكن تعاود التقدم، أخبرت نفسها أنها كل ما تبقت من كيفاد فتراجعت، ثم تقدمت أيضًا، يقع الإنسان في الحيرة على هذه الأرض حينما يكون السبب الذي يجعلنا نتقدم هو نفس السبب الذي يجعلنا نتراجع.

للحظات حينما تطل على منظر الذئب الجائع وهو يعوي في الليل طالبًا شاة شاردة من قطيعها قد تتعاطف معه، ولكن بمجرد أن ترى أنيابه تنهش لحم الشاه يأكل منها دمائها قبل لحمها سيتبدل تعاطفك إلى كره.

وصلت إلى حافة الشلال، الليل يستر لمعة فضول عينيها وإزعاج نبض قلبها يواريه الفحيح مخترقًا كل جدران صمت الليل، أطلقت البصر داخل أحد الكهوف في الجدار المحيط بالشلال، ولكن منعتها ظلمة الكهف من أن ترى

شيئًا، حاولت الرجوع لتبيت على حافة مصب الشلال ولكن سقطت الصخرة التي كانت تعيدها إلى الأرض، هي الآن معلقة على سطح هذا الجدار، تستطيع أن تهبط ولكن إن فعلت لا تستطيع أن تعود ثانيةً إلى الأعلى في الصباح، احدودبت على نفسها منتظرة بزوغ الشمس، في كيفاد كانوا بلا شمس، كانت سفنهم لا ترى النور لأنها مغطاة بالكامل، كانت الطاقة الحيوية والوقود البيولوجي والأدوية تجعل منهم مسوخًا لمقاومة الشمس، ولكن الضوء كان يأتي حينما تأذن كيفاد وتغيب حينما تأذن كيفاد، تلعثمت الأفكار داخل رأسها، تحولت إلى كتلة من اللحم على مساحة لا تزيد عن نصف المتر معلقة في الفراغ، حاولت أن تؤنس بصرها بشيء فلم تجد إلا الظلام وقليل من ضوء القمر، امتعضت وتقوقعت على نفسها أكثر وأكثر، أخذتها سنة من النوم غفلت فيها عن العالم، استيقظت على وقع صوت أقدام، ارتجف قلبها أن يكون أحد أولادها، أرادت أن تتقدم تسد كشف الكهف ولكن منعها الخوف أن يكون شيء آخر.

صعدت سلاسل أضواء الفجر تفجر قطرات الشلال المتناثرة على مصب النهر، الرياحين وزهرات مختلف ألوانها تضيء نقاءً، المتدبر يؤمن، والمار يقف، وكل لبيب يبحث عن بدعة الصانع، ولكنها آيات لأولي الألباب، مرت على المنظر مرور الكرام برغم أنه خطف قلبها، ملأت رئتيها بالهواء وحسب ولم تعتبر لشيء.

دخل النار إلى الكهف ليكشف لها ما في داخله، مدت عنقها تستكشف، وجدت مالًا يمكن أن تتخيله، قوم من الأقزام يتكدسون في صفوف ينامون فيها الواحد بجوار الآخر على طرف كل صف أحدهم يتكئ على حربته نصف نائم كلما غلبه النوم سقطت رأسه من على كتفه فاستفاق، استنتجت من ذلك أن هذا هو الحارس الشخصي لتلك الصفوف، ولكن الذهول غلبها قوم بالكامل من الأقزام، يستطيعون أن يقتلوها ويفتكوا بها، نزلت بسرعة البرق تُلقي نفسها من فوق محبسها، على الأقل عليها أن تراقبهم من بعيد قبل

أن تقترب منهم، اتخذت ركنًا غير بعيد عنهم، صنعت من أوراق الشجر ما يخفيها تمامًا كقناص محترف وسط الغابات يريد قتل أرنب بري ولا يجرؤ على الحركة، حينما ظهر الصباح تمامًا وأتمت الشمس شروقها على الأرض بدءوا في الاستيقاظ، لم تتوقف المفاجأة عند هذا الحد، لم يكونوا أقزامًا وحسب، كان كهف يخرج منه الأقزام، وكهف آخر يخرج منه قوم عمالقة فارعي الطول أقدامهم وأرجلهم غاية في الكبر ومقلتي عيونهم تكاد تفارق محاجر العيون، وقوم آخرين ملتصقين ببعضهم بعض، فمنهم ملتصق برأسه يزحف ومنهم ملتصق عند جانبي بطنه يمشي ومنهم ملتصقي من ظهورهم أحدهم يحمل الآخر، وقوم آخرين مشوهين أحدهم بلا قدم وأحدهم أعمى وأحدهم بلا ذراع، الغريب أن كل تلك الأقوام كانت من الذكور وحسب وليس فيها من الإناث أحد، كانت كل تلك الأقوام بمجرد خروجهم قد اصطفوا صفين، فأما الصف الأول فتحزب وراء رجل زنجي أجدع الأنف شرمت شفتاه بشيء من ذهب عند منتصفها، وأما الصف الثاني فكان خلف رجل أبرص الجلد في رأسه أثر جرح ربما يكون قد كان أقرب ليشج رأسه إلى نصفين، اصطفوا على منبع النهر، صاح الرجل الأبرص بصوت عال في أحد أتباعه، استطلع قارب كيفاد، نطق ذلك باللغة العالمية لغة كيفاد دون أي خطأ أو تحريف، صعد قزم كفتى غابات لم يعرف للحضر طريق، كأنه يسير على طريق ممهد لا كأنه يصعد للسماء، صعد شجرة جزعها ربما يجاوز الخمسين مترًا في السماء، ثم أخرج من حقيبة على ظهره علم أبيض، بمجرد أن أشار لهم العلم الأبيض، ظهرت همهمات كثيرة بين الصفين لم يحسمها إلا صوت القائد الزنجي في صراخ الحرب:

- استعدوا للمعركة!

سوالكوفا تراقب الأمر وألف سؤال يتردد داخلها كل لحظة، أي معركة؟

لم يتركوا لها الأمر لتفكر كثيرًا، كان رجل الاستطلاع قد لاحظ سوالكوفا فكادت مقلتا عينيه أن تنفر وهو يخرج من حزام التف حول وسطه سائل أحمر

نفثه في الفراغ فأضاء سحابة حمراء من عفر بخار من هذا السائل الذي تبخر بمجرد خروجه من قنينته، الجميع لم يستطع أن يقاوم ذهوله قبل أن يتحرك إلا القائد الأبرص سارع بالصعود مكان رجل الاستطلاع لينظر ماذا وجد؟!

سوالكوفا التي كانت تقاوم كل جرام من هرمونات الفزع داخلها لكي تظل واقفة ما استطاعت الحراك وعيناها تقع في عين القائد الأبرص، كان القزم بجواره يميل برأسه إليه يخبره بأن يعيد عليه أنه يرى نفس ما يرى!

أومأ القائد الأبرص رأسه في إيجاب وهو يصرخ في الجميع: وصل الإله مخلص قوم القوازيق من الشر!

خر الجميع ساجدين تجاه سوالكوفا التي بزغت على تبة كأن شيطان من الجن التبسها لتعيش دور العمالقة، كأنها حينما سمعتهم يقولون أنها إله أصبحت إله، في لحظة أصبحت إله، أكثر من شهر مر عليها وهي تبحث لم تصدق يومًا أنها على باطل ولحظة واحدة وهي في زيف من الحقيقة جعلتها إله، الطغاة يستغرقون ألف عام لكِ يقتنعوا أنهم ليسوا طغاة وثانية واحدة تكفي لجعلهم كفرة فجرة في الأرض، مُثل حية للإنسان الهلوع هم، وقفت وأشارت بعنقها في السماء، تريد أن تصبح إله لأن أحدهم قال عنها إله!

لم تسأل نفسها عن أي شيء يترتب على ذلك برغم أن الخوف كان يملأ قلبها ولكنها تقمصت الدور جيدًا قائلة تحدث نفسها:

- الإله لا يخاف!

اتجهوا نحوها، زاد الخوف داخلها، قد تكون تلك القبائل من قبائل بدائية تأكل لحم البشر، أو ربما يقدموا الإله قربانًا لإله أكبر بذبحه وترك دمائه تسير في النهر، ما أشجعها أنها الأنثى الوحيدة التي ما زالت موجودة في هؤلاء القوم، ربما يكون اختلافها هو سر نجاتها، سؤال آخر طرح نفسه، ما علاقة هذا بكيفاد؟!

تحلقوا حولها في شكل دوائر متتالية، لم يجرؤ أحد على الاقتراب منها، القائد الزنجي كان العرق يتقطر منه كأنه مصبوب من قعر جهنم جسده يقشعر،

عيونه جحظت وأدميت لدرجة لا يمكن أن تجعلك تتخيل أنه كان بها لون أبيض من الأساس، تمرمغ ساجدًا واضعًا جبهته في الثرى، حتى حفر ربما أخدودًا كاملًا في الثرى وحفر الثرى أخدودًا كاملًا في جبهته، قلبه قد دك دكًا دكًا.

القائد الأبرص كان أقل خوفًا، مشى مهتديًا في خطوات ملأتها شيء من الهدوء النسبي الذي لا يخلو من رجفة لما سيحدث، وقف أمام سوالكوفا منحنيًا متقدمًا بخطوة عن الجميع، نفرت منه سوالكوفا في داخلها، مثل هؤلاء كانوا يلقون إلى الهاوية في كيفاد، أي جنين مشوه يقتل، أي فرد تظهر عليه أي من علامات التشوه حتى حينما يكبر كان يقتل، الحياة للأسوياء فقط، يجب تنقية السلالة الجينية في الأجيال البشرية، وعاشت كيفاد على قدر ما عاشت ولم تنقِ السلالة البشرية إلا قبل خمسين عامًا فقط من النهاية الأولى، ولكن الحقيقة أنها لم تنقِ قط، الفكرة كلها أن كيفاد جعلت الأمر سرًا وجعلت تلك الجزيرة لهؤلاء المشوهين من الذكور وكانت تقتل الإناث، وقامت بتنشئة هؤلاء القوم على أنهم لا يحظون بأنثى إلا حينما تكون إله في آخر زمانهم حينما يعود القارب فارغًا الذي يحمل الأجيال الجديدة ستة مرات متتالية، فإن حدث وجاء القارب فارغًا فلينقسموا إلى قسم الكهف الأسود وقسم الكهف الأحمر وتقوم حرب ضروس بينهم لا تتوقف حتى يُفني أحدهم الآخر ومن يتبقَ من المنتصرون يركب القارب ويعود به إلى كيفاد، هذا البرنامج سموه في كيفاد برنامج المطارق المعطوبة، الهدف من هذا البرنامج هو عملية احتياط أخرى توفرها كيفاد من أجل توفير العمالة لما تبقى من كيفاد الهالكة، يجب أن يبقى طبقة معدومة للذين سينجون من كيفاد، كيفاد لا يمكنها أن تترك مجموعة من الأسوياء أحرارًا في عالم يمكن أن يتكون بجوارها، الحل كان السيطرة على العقول، في كل مرة كيفاد كانت تسيطر على العقول!

هذه هي القصة التي لم تعلم سوالكوفا إلا عناوينها، أخبرها القائد الأبرص أن اسمه دوشان وأنه من قبيلة الكهف الأسود، وأنهم يرحبون بالإله المبعوث من كيفاد أرض الخير والجنة التي يذهب إليها الطيبون حينما ينتصروا على الشر الأحمر، وأنهم مستعدون تمامًا لرغبتها في إعادتهم إلى أرض الخير!

لم يكن الكهف الأحمر شر ولم يكن الكهف الأسود شر، ولكن كانوا يتركون الأطفال فور قدومهم يحبون إلى حجر أحمر وحجر أسود فمن سار إلى الحجر الأحمر كان من أهله ومن سار من الحجر الأسود كان من أهله!

فأما عن خيرية الكهف الأحمر والكهف الأسود أتت أنه من صدق بأن كيفاد انتهت حينما يأتي القارب فارغًا يكون من أهل الكهف الأحمر أهل الشر ومن صدق أن كيفاد لم تنته يكون من أهل الكهف الأسود الأخيار وتصدق النبوءة بقدوم الإله الأنثى، طلاسم فوق طلاسم تصنعها كيفاد، وخرافة فوق خرافة، يحكى أن في الأزمنة الغابرة في العهد النازي صنع وزير الدعاية السياسية جوبلز لهتلر طريقة جديدة في الكذب، كانت فحواها على أن تكذب وتكذب وتستمر في الكذب حتى يصدقك الناس، كان السياسيون قبل ذلك يكذبون ثم يتفنَّون في صناعة الحيل التي تدلل على صدق كذبتهم، هذه المرة كيفاد ابتكرت أسلوب آخر غير كل تلك الأساليب، لقد قررت كيفاد أن تكذب وتكذب وتستمر في الكذب حتى آخر لحظة وفي كل كذبة تكذبها تسوق لآلاف من الخزعبلات والتخاريف والحيل والقصص الوهمية التي تدلل على كل كذبة من تلك الكذبات.لقد دمجت بين الأسلوبين هذه المرة!

نظرت سوالكوفا في الجميع تتفحصهم، أمرتهم بالوقوف، وقفوا في صفوف متراصة، تفحصتهم فردًا فردًا، بين القوم أصحاب الكهف الأحمر كان هناك شابًا مفتول العضلات وسيم الوجه، شعره ينسدل على كتفيه كحرير قز غير مخلوط بشيء من خيط الدنيا، لم يكن به عيبًا واحدًا، استغربت منه سألته كيف جاء إلى هنا؟

لم يجب، أعادت السؤال صارخة فيه:

- كيف جئت إلى هنا؟

كان وجهها الأحمر من فرط الانفعال يرسم على وجوههم الكثير من علامات التعجب!

إن إله كيفاد يعرف كل شيء، كيف للإله أن يسأل؟ كيف للإله أن يبحث عن إجابة!

لا يكون إله، استشعر القائد الزنجي الأمر وأن الإله يحتاج إلى مساعدة، والقائد الأبرص دوشان أبله لا يعرف كيف يتصرف؟!

عندها خرج من سجوده ورهبته، تخاف مما لا تعرف، فإن عرفت إما أن يزيد الخوف أو يقل، برغم المغامرة لكنه غامر، صعد إلى الرجل الذي كانت تسأله وهوى عليه بالمطرقة التي كانت في يده فوقع قتيلًا دماؤه قد ثعبت لتتحنى أقدام الواقفين بالدم، كان المسكين كل ذنبه أنه أصم أبكم لا يستطيع حتى تحريك لسانه لكي يفهم من أمامه!

صاح في الجميع: أن الإله كان الغرض من سؤاله أن هذا الوغد لا يجب أن يذهب إلى الجنة معنا، ولكن ضعيفي الإيمان أتباع دوشان الذين أوهمونا أنهم هم أهل الخير لأنهم كانوا يصدقوا أن الإله قد جاء لم يكونوا مؤمنين من الأساس!

تحدث دوشان في نبرة هادئة: اسمع يا ميرفي *يقصد القائد الزنجي* أنت تعلم جيدًا أنك ممن يجب أن يقتلهم الآن لأنك لم تصدق بوجود إله كيفاد العظيمة التي اعتقدت بأنها لن تحنو علينا ولم تتبع أي من أوامرها على مدار ستة أعوام مضت، لا تأتي الآن وتقول إننا لسنا مؤمنين!

كان ميرفي يستمع وهو يقترب من دوشان يصيح فيه: ليس المهم الإيمان بما لا ترى لكن المهم الإيمان بما ترى، تخيل يا دوشان أنكم آمنتم بالإله وهو غير موجود وما إن جاء الإله لم تفهموا أول سؤال طرحه عليكم!

سوالكوفا كانت تستمع وهي تغمض عينيها تستفهم ما وراء الكلمات، إنهم يتصارعون، وعليها استغلال الصراع الآن لكي تفوز، ولكي تفرض إرادتها كإله، أمرت الجميع أن يصمتوا، وأن يسقطوا ساجدين، فسجد الجميع، تأخر سجود بعض أعضاء القائد ميرفي، لم تلاحظ ذلك!

أمرت القائد ميرفي أن ينهض، ثم أمرت القائد دوشان أن ينهض، وهي تعلم إن القارب لا يتسع للجميع، قالت لهما في حزم: كلاكما خاضعان لإرادتي، أنا إلهة كيفاد المرسلة لتخلصكم من عناء التيه في الأرض، الجميع الآن معرض لاختبار الإيمان، الإيمان في نواصي العقول، سأضع يدي على ناصية كل من على هذه الأرض، فمن كان مؤمن بي حقًا سيعيش ومن كان على نفاق سيموت!

بدأ الجميع يأتي أمامها فيجثو على ركبتيه وتضع يدها على ناصيته، ميرفي أولًا فنجا، ثم دوشان فنجا، البقاء على الاثنان جيد لها ويبقي الأمر في مصلحتها!

ثم بدأ الجميع، كانت تقتل كل من لا تتوسم فيه صلاح، من كانت إعاقته لا تسمح له بالمشي قتلته، ومن كانت عاهته لا تسمح له بالسير سريعًا قتلته، من كانت تعلم أن مرضه ينته بالموت في سن مبكر قتلته!

مشت شرايين الدماء تنفتح الواحد تلو الآخر حتى قتل ما يزيد عن الألف نفس، الدماء انفتحت بغير ذنب تسيل، أمرت جميع الأحياء الباقين بحفر حفرة واسعة ثم ملأها بماء البحر، ثم في اليوم التالي أمرتهم أن يفرغوا الحفرة مما تبقى فيها من مياه ثم يلقى عليهم ورق الشجر ليحرقوهم، ثم أمرت بجلب رمادهم وبعثرته في الهواء، قالت للجميع: إن من يعصيني يجب أن يموت ذبحًا وغرقًا وحرقًا في نفس الوقت!

لم تضع رائحة الدم برغم ذلك، ظلت رائحة الدم مختبئة داخل كل مكان، لعنة الدم تطارد الجميع، رائحة الدم تعلقت بأجسادهم، رائحة الدم تعلقت بملابسهم، لم يعد هناك أحد منهم يستطيع بأي طريقة من الطرق أن يتنفس بطريقة طبيعية، أمرتهم أن يتخلصوا من ملابسهم، وأن يسيروا عرايا،

سيركبون البحر عرايا، شحنتهم إلى القارب، تبقى من لا مكان له، تذرعت سوالكوفا بأن هؤلاء هم القلة الذين هم السبب في رائحة الدم، ذلك لأن لعنة الكفار تتبقى في بعض المؤمنين لذلك عليها تركهم لحراسة المكان وأنها لن تقتلهم رحمة منها لأنهم آمنوا بها، تطوع نفر من الذين تأخروا في السجود بعض الشيء ليصيحوا في العراء مع الذين ليس لهم مكان، صاحوا في الجميع: نحن نشعر باللعنة، نحن نشعر باللعنة!

فعلوا ذلك في شكل هستيري، أجادوا تمثيل الدور حتى صدقتهم سوالكوفا، أنزلتهم من القارب، انفردت بأحد الباقين من المجموعة الأولى وأخبرته أن يضع عينه على جماعة الحمقى الذين نزلوا من القارب صارخة، وأن بهم لعنات فوق لعنتهم لذلك عليه أن يقتلهم غدًا لاحظ كفرهم فالكفر أقرب إليهم من الإيمان، جهزت القارب بكل ما فيها من عتاد، تفحصته جيدًا، هو قارب يعتبر كسفينة مصغرة من سفن كيفاد به كل شيء مجهز، خزنوا فيه بعض طعام الجزيرة كطعام إضافي لتلك الفيتامينات التي كانت تصنع في كيفاد، مع ذلك كانوا يطلقون عليه قارب، كيفاد قالت أنه قارب، إذًا يبقى قارب!

ما إن تحرك القارب حتى سرحت بخيالها في اللا شيء، تركت نفسها تراجع كل ما حدث، هي رسول كيفاد المخلص لها، وهي صانعة المجد الذي لا ينتهي، لامت نفسها أنها ظنت بكيفاد شيء من الشر ولو لدقيقة واحدة، إنها على حق، وستظل على حق مدى الحياة!

*****

حينما تهرب من عذاب أنت تعلم حجمه، لا يهمك ما الذي تهرب إليه، كل ما تتمنى أن تفر من الجحيم الذي كنت فيه، حتى لو ستلقي نفسك إلى جحيم آخر قد لا تعبأ، الذاكرة تخاف مما تعلم حجمه أكثر ربما من المجهول، قد يكون الوقت الذي يفصل بين الجحيمين هو في حد ذاته الجائزة التي تحصل عليها، إيفان وكيفاد هربا، كلاهما أمسكا بطرفي حبل يجرانه معًا وتركا

أرجلهما تهرب إلى حيث تأخذهما، كانا لا يستريحا من الركض، ودَّ إيفان لو يحمل أخته على كتفه، شعر بالحنين لتعبها، أحيانا كانا الحبل يتعثر بالشجر فيفقدها، ويفقد قلبه معها، يشعر بالفزع من ذلك، يظل يصرخ حتى تسمعه، يخاطر بأن تكون سوالكوفا في أثرهما، لا يعبأ الغريزة تتفوق على المعرفة، الغريزة في معظم الأحيان تتفوق على كل شيء، لم يتوقفا عن الهروب في اتجاه واحد، كانا لا يجيدان تحديد الاتجاهات، ولكن حيث حملتهما أقدامهما ذهبا، أن يكون السجن هو طريقك للهرب هو أصعب ما يحدث لك في هذا العالم، بعد عدة أيام، انقشع غبار سجن الأفق ليحصلا على حريتهما، شعرا أن العالم لم يعد يستوعب رأسيهما، لقد خرجا من سجنهما الضوئي وجدا أنفسهما في مكان موحش لا يعلمان له نهاية ولا يعلمان له بداية، غابة كثيفة آلاء ملتفة الأغصان، لا يأمنا فيها على نفسيهما، شاهدا أوابد من نمور كاسرة وفهود نادرة، ذُهلا من منظرها، أوجسا منها خيفة مع ذلك لم يهربا منها، ولم تهاجمهم، يجعلك الجهل أحيانًا شجاعًا أكثر من اللازم، ويجعلك في أحيانًا أخرى جبانًا أكثر من اللازم، تلك الأوابد لو كانت نمور أو أسود أو دببة فواحد منها تحت أنيابه من الممكن أن يرعبل جسديهما ويحولهما إلى إرب لا تستقيم فيها روح، ولكن لطف الله وستره في أن تكون لهما حياة، واصلا السير، تمنت كيفاد لو وجدا ديرو ووايلد، وتمنى إيفان لو يجد مأوى، أو يشعرا أنهما هربا بما فيه الكفاية، سوالكوفا كانت علمتهما كيف يهتدوا بالنجوم، فكانا يتتبعان النجوم ويهربان في اتجاه واحد، في وسط الغابة وجدا ساحة دائرية ملئوها ماء عذب صفي ربما لم تلوثه يدي بشر، كان الماء يدعو للشرب حتى لو لم يصيبك لهث، شربا حتى ارتويا منه، كانت عينًا صافية واسعة غير نهر ولا بحر فلم يكن فيها من زفر الأسماك من شيء، ولا رائحة يود البحر من عطر، كانت عميقة لا يمكن أن تسبر أغوارها بعيناك المجردة برغم صفاء مائها، خلع إيفان ملابسه ونزل فيها يسبح، ترك قدمه لا تستقر على أرض ولا يجد لها مستقر، ترك يداه تبحثان عن يد أخرى تمسكها، لم يكن هناك ما يقبض عليها سوى الماء، رخو يقبض على أكثر رخاوة، ترك جسده

كله للماء يحمله عليه، نضارة الماء أينعته، ترك التفكير في الواقع، كانت السماء هي كل ما ينظر إليه ورأسه تستقر على الماء يطفو بالكاد أذنه، تستمع إلى هسهسة الماء على سطحه، تقلب وجهه في السماء فارغًا، لا قبلة له ولا بغية له، ولا منية له، هدنة صغيرة تليق بمحارب لا يتسع العالم له وهو مازال لم يبلغه بعد!

تمضي اللحظات عليه وكأن مخه يُلقي بما احتواه في تلك العين لترتكز في القاع، تسحبه المياه أكثر لمنتصف العين فلا يبالي، ينشد باللغة العالمية كلمات منتظمة القافي:

لتأخذني الأقدار أينما شاءت أنا لا أبالي.

الموت أمامي، الموت خلفي.

الموت يحاصرني، أنا لا أخشى الموت.

أنا لا أعرفه حتى أخشاه!

أخاف مما لا أعلم لماذا؟!

صغير أنا في هذا العالم، ضئيل جدًا.

من يراني؟!

من يهتم بي؟!

غنت معه كيفاد، أرادت أن تخلع ملابسها ولكن غلبها شيء من الحياء الفطري أن تكون عارية أمام أخيها نزلت معه المياه بما عليها من ملابس، غاصا سويًا ثم صعدا إلى السطح، قطرات المياه تمسكت بشعرهما المنسدل كحبات لؤلؤ يليق مع طفولتهم التي حاولت سوالكوفا محوها، استخفهما طرب الأغنية رغم كآبتها، لأول مرة يكتشفا أن الكلمات لها قوافي، وأنهم يستطيعون نسج تلك القوافي على شيء غير النشيد الوطني لمملكة كيفاد، لم تجهد أجسامهم كثرة السباحة، أجسادهم كانت قوية، كانت الأعمال التي

تأمرهم بها سوالكوفا أشد عليهم وطأة وأكثر إيلامًا، أن تكون حرًا يجعل أقوى التعب لينًا، أن تكون عبدًا يجعل هين المشقة جبالًا على القلب!

غابت الشمس إلى مغربها، سقطت عينهما، في وسط الشفق الأحمر استعجبا من المنظر، تلك أول مرة يشاهدا الطبيعة بكرًا دون تلوث أيدي البشر وفساد ما كسبت أيدي الناس!

ما إن بدأ الظلام يحل حتى بدأت وحشة الليل تستأثر بقلبيهما، سبحا باتجاه ضفة بحيرة مياههم الصافية، فجأة بدأت الضفاف تلمع، بنور قرمزي كلؤلؤ منضود على ضفاف تلك العين، من وسط تلك العين ظهر مخلوق لم يروه في حياتهم لا في كيفاد ولا في كتب سوالكوفا ولا في أي ناحية، سمكة لها جناحين وعلى رأسها مصباح يضيء بنفس لون النور الذي على الضفاف، حراشيفها سميكة وأطرافها حادة تكاد تنير من حدتها، فكها من الممكن أن يبتلعها في ثانية ليمضغ عظامها بين طرفة عين أو ما يقل، ذيلها يكفي لصناعة موج في وسط تلك البحيرة غير قليل، تتموج وتغوص ثم تصعد، ملأ قلب إيفان وكيفاد الرعب، انقسمت قلوبهما أشلاء غير قليلة، بل تبعثرت قلوبهما رجفا، لاذا بالفرار إلى الضفاف، لم تكن تلك السمكة إلا أنثى تبحث عن بيضها الذي على الضفاف، وجدها إيفان تتجه إلى الضفاف فطن إلى ذلك، أمسك بأخته أن تتجمد في مكانها طافية على سطح الماء، لا حراك يا كيفاد، لا حراك يا عزيزتي، سنبقى هنا حتى تذهب إلى صغارها وتعود ثانية إلى القاع، كيفاد كانت ترتجف، لم تكن تملك شيئًا من جأش الرجال، كان يغلبها الإنهاك للحظات فتستسلم للماء يغمرها ساقطة في قاعه، يغطس ورائها إيفان يجلبها، يمسك بها، كيفاد قاومي يا صغيرتي يحدثها، ولم يفلت يدها، صوت أسنانها تصطك من الخوف لم يكن غير قليل، انتهت مهمة السمكة بعد أن دارت دورتين أو أكثر حول الضفاف، ثم بدأت في الغطس فهبطت بكل حركة في أجسامهما، إيفان يسحب أخته إلى الشاطيء التي تجمدت تقريبًا من الحركة، وصل إلى الضفة وبدأ يسحب أخته، ثقل جسدها

بالماء، ملابسها زادتها ثقلًا، في أثناء سحبها من الماء ارتطم جسدها ببعض بيض السمكة المنير، في أقل من ثانية كانت السمكة المتوحشة قد عادت إلى السطح مصدرة صوت يشبه صوت سمك النقرور ولكنه مزعج يكاد يصم الأذان، اتجهت نحوهم تشق البحيرة كأنها عصا موسى تشق البحر، فتحت فكها، قضمت، بكل ما أوتي سحب إيفان أخته بسرعة البرق، أغمض عينيه، فتحهما ليجده مازال ممسكًا يد أخته، ولكن ليست أخته كلها، عادت السمكة بقدم أخته، من تحت الساق بقليل كانت الدماء تنزف بغزارة صانعة خطًا واصلًا من بين الضفاف إلى مكان وجودهما، استوعب ما حدث بصعوبة سوالكوفا كانت قد علمتهم كيفية وقف النزيف وكيف يوقظوا فاقدي الوعي والكثير من الإسعافات الأولية للطب، ولكن هذه هي أول مرة يشاهد فيها الدماء بتلك الغزارة، استوعب الموقف في رجولة لا تتناسب مع حجمه الصغير، يقال في الأثر أن المواقف هي ما تصنع الرجال لا الرجال هم من يصنعون المواقف، استأسد أكثر، وكتم النزيف، حاول إيقاظ أخته، كان جسمها قد بدأ يتحول إلى اللون الأزرق، حاول إسعافها، ولكنها ظلت تتحول للأزرق، درجة حرارتها تنخفض، تجمدت، حاول تدفئتها، جلس بجوارها يئن جرحها بدلًا من جراحه السطحية التي ملأت ساقيه ويديه، بكى، وظل يبكي، يضعف فينحب أحيانًا، ويزداد قوة فيصرخ أحيانًا أخرى، لكن لا فائدة من البكاء، الليل موحش حينما تكون وحدك، الليل موحش حينما تغطيك المصائب، زاد الأمر ضغث على إبالة أنَّ الخوف حاصره، أصوات مجهولة تحاصره، نعيق غربان لا يعرفها، وزئير أسود لا يراها، أصوات كل الأوابد تحاصره، أخته جثة هامدة بجواره، رائحة الدماء تجلب المزيد من مفترسات الجيف حولهما، هو لم يرَ الموت من قبل، يعرفه نظريًا فقط من كلام سوالكوفا حينما كانت تقول له سأقتلك، سأقضم رأسك، سأنكل بك، لكنه لم يواجهه قط، والموت يحتاج إلى الشجعان الذين خبروه من قبل، إما أن تواجه الموت بأيدي عارية وبروح خالية، وإما أن تمتلئ بالخوف عند الموت هذا يجعلك غير قادر على المواجهة، يجعلك كعود قمح تتناثر حباته مع

الرياح، يتحسس أخته فيجدها قد فارقت الحياة تمامًا، يضع رأسه على قلبها ليجده ساكنًا تمامًا، توقفت الدماء عن حركتها في العروق وخمل الجسد، وتوقف النفس عن الصعود والهبوط، أخرجت نفسًا عميقًا مرة واحدة، اعتقد أنها عادت للحياة ولكن الرئة كانت تفرغ ما فيها من هواء، كانت الزفرة الأخيرة، أسلمت تمامًا روحها، حمل أخته على ظهره، هرول كثيرًا في كل اتجاه، هرول سبعًا بين الظلام والأكثر ظلمة، وطاف سبعًا حول المجهول الذي لا يعلمه، وصعد أعلى قمة حوله ليطل على كل شيء مظلم، وهبط إلى أكبر قاع يعرفه ليستكشف غور لا يرى فيه شيئًا، السواد من حوله، والرعب داخله، وحمل أخته على ظهره يكاد يقسمه، مع ذلك ظل يتحرك، وأن تظل ساكنًا يعني أنك تستسلم للجميع ليأتي ليقتلك، أن تتحرك فأنت توهم الجميع بأنك ما زلت حي، حتى لو لم تكن حيًا على الإطلاق!

في الصباح ومع بزوغ الخيط الأبيض للفجر كان وجد الأرض قد استوت أمامه تمامًا، ثم غابة من آراك كثيف ملتف بعضه حول بعض، وجد في فكرة الاختباء داخل الشجر ما يمكن أن يحويه داخله، تخطى الأرض المسطحة، كانت جثة أخته قد بدأت تنتفخ في طريقها للتحلل، لم يكن يريد أن يصدق أنها ماتت، بالرغم من أنه على تمام الثقة أنها ماتت، بمجرد أن تجاوز الأشجار حتى وجد بيتًا تغطيه الأشجار بطريقة عجيبة.

أزكمته رائحة الجثة التي على وشك أن تبدأ في الانفجار ليلتهما دود الأرض فبكى ثانيةً، وذهب في كل طريق يمكن الذهاب إليه فيه، أشفق أن يدفن أخته بيده، لم يتصور أن يضعها في الثرى بنفسه، وجد شجرة عتيقة ربما بلغت الألف عام من العمر، جذعها قد بلغ بعرضها ما بلغ وجذورها تشبثت في الأرض، حفر فيها بمخلب صنعه بنفسه مقدار جسد أخته، وضعها في تلك الحفرة، دفنها داخل الشجرة، أراد أن تكون تلك الحياة التي تثمر الشجرة تثمرها، وتثمر ما فيها، أراد أن يبتل جسدها الصغير بيناعة أخضر ساقها، لقد عاشا معًا وقاتلا معًا، وهذا ما يجعله يتألم، إننا حين نفقد، لا نفقد أشخاص

بذلك القدر إننا نفقد جزء من ذاكرتنا داخل تلك الأشخاص، صنع من تلك الشجرة علامات يمكنه الرجوع لها حينما يريد، وعاد إلى البيت ثانية، كان هذا البيت هو نفسه البيت الذي يعيش فيه أخويه، البيت مفتوح أمامه مع ذلك وقف أمامه لا يريد الدخول، خاف من أن يكون هناك وحش آخر داخله، تلك النزعة التي تجعلك تخاف من الآمن إن أصبت منه قبلًا، تلك الهشاشة النفسية التي تقضي على المغامرة داخلك، تجعلك حريص أكثر مما يجب، مع ذلك تغلب على ذلك الشعور واستبدله بنزعة أخرى، نزعة الذي لا يبق على شيء، يدخل البيت من باب خلفي غير الذي دخل منه أخويه، تم التحقق أنه من نسل كيفاد، ولم يلاحظ تلك الموجات التي فحصته أثناء الدخول، ألقى بنفسه على تلك الأريكة التي لم يكن قد شاهدها من قبل، بمجرد ما اختبر جسده لين الحرير وطيب الجلوس استوى، غطس في نوم عميق، نوم تأكله فيه جواثيم النوم كل لحظة ربما، فيهرب منها فلا يجد إلا ضغث الأحلام، مع ذلك يستيقظ لا يذكر شيء، الإنهاك أجهده، الشقاء نحل من وبر جسده ولم يبق منه شيء يذكر، إنه يحاول أن يقاتل ولكن لا يبقى شيء معه يقاتل به، ما إن استعاد عافيته وبدأت حواسه في استطلاع ما حوله والاستشعار بما يحيط به، حتى شعر بصوت ما في البيت، أصاب الرعب كبد قلبه، خرج مهرولًا من البيت لا ينظر وراءه ولا يولي على شيء فاته، ما إن أصابه اللهث حتى توقف، يستجمع أنفاسه، لم يكن ما يلحق به فاطمئن، ثم راودته شياطين نفسه أن ما خلفه لا حظه وتركه، ثم اعتقد أنها بقية من أضغاث أحلام فعاد، ولكن عاد حذرًا، البقاء داخل البيت أكثر أمانًا حتى لو البيت فيه الشيطان نفسه، فشيطان غير مرئي أقل خوفًا من شيطان يسمع صوته يريد أن ينهش لحمه ويحطم عظامه، خاف، والخوف بقاء في بعض الأحيان!

سمع الصوت ثانية، ولكن هذه المرة قرر أن يواجه، اقترب من مصدر الصوت، نزل بحذر، تحرك بحيطة، لم يكن يريد أن يتخطى الحدود أكثر، لكنه وصل إلى باب مغلق، بعده كان الصوت أكثر ما يكون وضوحًا، ولكنه لا يستطيع أن يميزه، اطمئن قلبه حينما علم أنه صوت بشر، يأنس الإنسان

بأخيه الإنسان بالرغم من أن ليس هناك خطر على البشر أكثر من البشر أنفسهم، افترش بجوار الباب يتحسس السمع، والخوف يقتله لا يكاد يترك فكرة تدور من خطر إلا وتتوارد على رأسه، يكاد يجن ولكنه يواصل، إنه يريد الحياة حتى بعد أن فقد الحياة، إنه مازال يعلم أن هناك المزيد ينتظره وأنه مازال يتنفس، وطالما مازال يتنفس فهو يجب أن يحاول.

لعل من خلف الباب هم من أهل كيفاد وسيقتلونه، ولعلها تكون سوالكوفا نقلت مكانها، إنه أمام خيارين إما أن يفتح ليبحث عما وراء الباب أو يبقى ويبتعد، تعطينا الحياة ذلك النوع من الخيارات الذي يكون كلاهما فيه مجهول عواقبه، فلا تدري أيهما تختار، حينها تلجأ لقلبك، والقلب يميل لم هو أكثر أمانًا والأمان لم يكن في الخارج أبدًا، مع ذلك وقف حائرًا ألف مرة لا يعرف إلى أين يذهب!

******

كانت المفاجأة التي هزت أركانهما غير عادية لقد انغلقت الأبواب عليهم داخل بيت الضيافة، ثم ظهرت شاشة أمامهما تخبرهما أن عليهما الآن تأكيد تفعيل عملية النجاة وإلا سيتم اعتبارهما غريبين ويتم قتلهما بتهمة عدم فهم اللغة العالمية وتنفيذ أوامر قادتها، يقف كلًا منهما لا يستطيع التنفس، إما أن يقتل الجميع وإما أن يُقتل مع الجميع، هذه هي قواعد اللعبة الآن، سينتظر للثانية الأخيرة ثم يأخذ القرار، هذا هو اتفقاهما، إذا كان باستطاعتنا أن نهب الحياة ولو لدقيقة لهؤلاء المساكين الذين سيقتلون دون أي وعي، العبرات التي نزلت تحمل معنى قهر الرجال لم تكن كافية لإيقاف أي شيء، ما تم قد تم وسيتم دون أي سبيل لإيقافه، طلال داهمته رغبة غير طبيعية في الهرولة إلى هؤلاء المساكين ليلقي عليهم النظرة الأخيرة، لم يتخيل أن يكون الموت قريب إلى تلك الدرجة التي لا يترك لك فرصة فيها في التفكير حتى في الابتعاد عنه إنه ينجو بنفسه وحسب، للحظات تقوقع مهند على نفسه كأنه يخبر طلال أنه يريد الموت معهم ولكن طلال كان يريد الحل الأمثل أن ينجو الجميع، أن

يهربوا من تلك المعضلة حتى ويتم تأجيلها لوقت آخر، أن يغادروا حتى هذا المكان كله ولا يضعوا في أيديهم دمًا حرامًا، مهند أخبر طلال: ليكن سأختار الموت.

أجابه طلال: لو كان موتك سينقذهم سأختاره معك لكن كل ما تفعله أنك ستموت معهم، الخيار الآن إما أن ننقذ أنفسنا مع قليل منهم أو يموت الجميع، بدأ العد التنازلي في العشر الدقائق الأخيرة.

الدقيقة العاشرة قبل الموت: تعرف أنك قد اخترت اختيارًا واحدًا، وأن كل الاختيارات الأخرى قد انتهت وتبدأ أول مراحل القبول.

الدقيقة التاسعة: قد تنتفض غضبًا باحثًا عن أي شيء قد يفلتك مما أنت ذاهب إليه.

الدقيقة الثامنة: تتأكد تمامًا أن كل انتفاضاتك ساكنة وكل صرخاتك مكتومة وأن كل الأرض انحسرت على ضلعيك تهشم ما تبقى منك.

الدقيقة السابعة: تغيب قساوة جفاف حلقك ليس استعدادًا للارتواء وإنما ترحيبًا بمرارة الحنظل التي قررت أن تتخذ من جوفك بيوتًا.

الدقيقة السادسة: تستسلم، بلغة أكثر دقة تتخدر أطرافك كلها، والروح تغادرها.

الدقيقة الخامسة: يمر شريط حياتك كاملًا أمام عينيك، تتذكر كل ما حدث، الأسوأ هو ما يتصدرغالبًا.

الدقيقة الرابعة: حادث ما في حياتك تتمنى لو أن الزمان عاد بك لتغيره.

الدقيقة الثالثة: حينما لا يعود الزمان إلى هذا الوقت تصبح لك الحقيقة كاملة وواضحة وضوح. الشمس في لهيب الظهيرة، لو كان الزمان سيعود كان يجب أن يعود الآن.

الدقيقة الثانية: الروح تغادر العقل، ويتبقى القلب ينبض.

الدقيقة الأخيرة: تبحث عن كل ما يجب فعله للعودة، حينما يموت العقل، يفعل القلب ذلك منفردًا؛ شهوة في الحياة ربما، أو رغبة في إثبات ذاته دون انتصار العقل الذي طالما سيطر عليه، أو قد يكون الأمر لا هذا ولا ذاك وإنما نزعات نفس تتوق إلى حلاوة الدنيا.

ضغط طلال الأزرار التي تعلن موت كل من في تلك اللعبة باستثناء من بقوا على قيد الحياة وتعساء الحظ الذين ستختارهم الآلات لتريهم من بطش الحياة، المزيد وعلى رأس هذا البطش أن حياتهم كانت سدى!

*****

في السفينة التي عليها سوالكوفا ومن معها من مطاريد كيفاد كانت سوالكوفا ما زالت تسيطر على الأمر كأنها إله، برغم كم المرات التي شردت فيها إلى الهاوية، برغم السبات العميق الذي كان عقلها يذهب بها إليه، كأنها لا تريد أن تخرج من تلك الدائرة، إنها ممسوسة بتلك اللعنة المسماه رأسها، نموذج متكامل لم يصنعه الطغاة في البشر، في عباب البحر لا يوجد أحد يستطيع أن لا يؤمن، في البحر أنت محمول على ما ليس في يدك، في البحر أنت مسير بما لا تملك، وهذا يكون جليًا لك، فكيف لا تدرك أن هناك قوى أخرى، قوى بارعة في العقل يمكنها أن تفعل ذلك، صعدت سوالكوفا إلى أعلى السفينة في الليل، كان الليل قارص وكانت هفوات الثلج تتهدهد على الهواء تسقط في البحر لتذوب معه، السماء معتمة عتمة لا مثيل لها، نجم وحيد ينافس القمر المتراخي خلف الغيوم لكي لا يضيء الطريق، لحظة واحدة انشرح قلبها لشيئًا ما، لأن قلبها سرعان ما جف بعد لين، ألجمت حجام قلبها لكي لا يأخذها إلى أي حنين، وأطفأت مشكاة عقلها من كل سراج منير، عليها أن تبقى هنا، لكي تصنع مجدها هنا، آفة البشري الطاغية تكمن في شيء ما من إصراره على البقاء في موضع واحد من الفكر، صعد ميرفي إليها، استأذنها أن يقترب من الذات المقدسة، فأذنت له، سألها أن ترضى عنه، زبد في الكثير من المواضيع لكي يحاول إقناعها أنه كان مؤمن بها ولكن دوشان هو صاحب الحيل التي

أفسدت إيمانه بها وأنه كان على علم بقدومها، سخرت منه في داخلها، أيها الغبي، مع ذلك ابتسمت له ابتسامة صفراء تخفي أنيابها من تحتها قائلة له: أنا أعرف كل شيء ميرفي. أنا أعرف كل شيء!

حتى كل ما سيواجهنا في الطريق أنا أعرفه، وأعرف ما الذي كنت ستقوله قبل أن تقوله، لكن يا ميرفي عليك أن تعلم أن بقاءك من عدمه يتوقف على استمرار إيمانك، أمس هو ماضي لا حساب عليه، اليوم هو حاضر عليك أن تتجاوزه، غدًا هو مستقبل تأكد أن تكون جاهزًا له يا ميرفي. تأكد من ذلك!

استغرب ميرفي ولكن الكلام أخذه بطريقة ما، آمن بها بشكل معقول، هناك جزء من الإيمان بالباطل يقبع في تصالح مصلحتك مع هذا الباطل، حينها لا يُختبر هذا الإيمان، ولكن الإيمان الحقيقي يختبر مع أول تضارب بين مصلحتك وبين ما تؤمن به، الإيمان لابد دومًا له من اختبار. حتى لو كان إيمانًا بالكفر ذاته!

بعد أيام في البحر، ضربت السفينة عاصفة هوجاء اقتلعت السفينة كأنها لعبة صغيرة بين يدي موج غريز لطماته.

وقفت سوالكوفا على رأس السفينة تهدد الجميع أنها إن سقطت في البحر سيهلكوا جميعا ولن يبق منهم أحدا، التف الجميع حولها، تخيل أن الضلال يصل بالفرد في بعض الأحيان أنه يستطيع حماية الإله، لا أحد يعمل عقله كما ينبغي، الخوف أيضًا هو سلعة كل المضلين في الأرض.

مع ذلك مرت العاصفة، وقفت سوالكوفا تخبرهم أنهم حينما التفوا حولها هذا أنجاهم من غضب الآلهة، وأنهم الآن نجحوا في الاختبار وأنهم مستعدون للنجاة، قالت ذلك وهي لا تضمن حتى أن تمر خطبتها ولا تداعب سفينتهم عاصفة أخرى، ستجد مخرج آخر، وكذبة أخرى عندها، فالعقول جاهزة تمامًا للتصديق، إنها عقول تتعامل بمنطق أنها الفرقة الناجية، والطبيعي أن قائد الفرقة الناجية دوما على صواب، الغريب في الأمر أن كل الفرق تعتقد أنها الفرقة الناجية وكل الديانات تعتقد ذلك، بالرغم من أن

الفئة الناجية بحق هم قلة قليلة للغاية في هذا العالم، لكن صدقت النبوءة ووصلت السفينة إلى شاطئها حيث مرسى لها غريب بعض الشيء!

٦

عليك أن تعرف ما الذي ستفعله بعد الثورة.

الحق الوحيد يبدأ من رفع رءوسكم عن السجود للبشر

****

عند باب الغرفة يسمع الصوت، يتحسسه كما يتحسس الأعمى وجه من يحب، كلما شعر أن الصوت مألوف لديه اهتز قلبه فرحًا، استراحة القلوب فرحة ولكن شكها خوف لا مناص منه، لا يطمأن ما إن داخله الشك، قرر فتح باب الغرفة فجأة، يقتل الشك الذي بداخله بقرار سريع مغامر، الطبيعة البشرية تستريح باتخاذ القرار من حيرة الشك في كثير من الأحيان، لم يصدق عينيه حينما رأى إخوته وايلد وديرو، كانت ديرو منشغلة بترجيل شعرها أمام مرآة مصقولة غير لامعة نحو لمعة مثيل جديدها، للحظات ارتعبت ديرو، لم تذهب لتحتضنه كما فعل وايلد، إنما بحثت خلفه، أن يكون معه سوالكوفا، وأن يكون معه الموت، حينما اطمأنت أنه وحده ألقت بنفسها على قلبه، سألاه عن أخته كيفاد، فأخبرهما بما حدث فبكيا... وهما يعلمان ماذا يعني البكاء، آنس من فقدهما استسعادهما بصحبة بعضهم بعضًا، تفارق ثم يأتي من ينسيك آلام الفراق لكي يكون فراقه بعد ذلك ألمًا لك، ربما تلك واحدة من أكثر ألغاز الحياة، أننا برغم يقيننا التام أن كل من نحب سنفارقه ما زلنا نحب، وما زلنا نصنع معًا كل تلك الذكريات، خرجا إلى الحديقة ليتناولا الطعام، يأخذا من الثمار ما استطاب، يتفننوا في طهيه وإعداده، يصنعون ما تيسر لهم من أدوات، ذات يوم بينما هم مشغولون بذلك، حتى وجد إيفان

زهرة غريبة الشكل والملمس، بديعة وريقاتها الحمراء الذي تشع شيء أشبه بضوء غريب، ساقها يكاد يقارب اللون الأسود، عليه أشواك حادة حدة نصل سيف قد استل من غمده لأول مرة بعد طول حد وسن، تتدلى من تلك الساق أشبه ما يشبه بثمار تفاح غير ناضجة من لون أخضر لامع يطيب للناظرين، نظر إليها إيفان بتمعن، كاد أن يلمسها، صرخ فيه وايلد من خلفه:

-إنها قاتلة.

استعجب إيفان:

- هل يوجد نبات قاتل؟

ابتسم وايلد:

- نعم، انظر.

جلب وايلد فرخ صغير لطائر ما وألقاه على وريقاتها، تحرك أحد السيقان وقد أظهر سنًا مدببًا وخز به الفرخ الصغير ليشل به حركته تمامًا ثم التفت الوريقات عليه لتنغلق عليه وتعطي ذلك الشكل للتفاحة الغير ناضجة، مظهر غاية في الروعة وباطنه كائن في غاية الموت.

علق إيفان:

- على ما يبدو أن تلك الطبيعة تحتاج القليل من الحذر في التعامل!

أردف وايلد:

- اسمع يا إيفي، كل شيء يحتاج للحذر حتى تعرفه، حينما تعرف الشيء ستبدو متهورًا للغاية للذي لا يعرفه، أما لو تهورت وأنت لا تعرف، ستكون النتيجة قاسية

شرد إيفان، تذكر أخته، أجاب وهو ينظر للاشيء:

- تعتقد أني كنت متهورًا حينما سمحت لكيفاد بالنزول للمياه، وفقًا لكلماتك هروبنا من سوالكوفا نفسه تهور!

ابتسم وايلد:

- لا يا ايفي، أنت لا تتحمل مسئولية كيفاد، لقد كنت تحاول أن تستريح، لو كنت مكانك لفعلت، ولو كانت تلك الزهرة قضمت يدك الآن، هل كنت سأكون مسئول، الأشياء السيئة تحدث دومًا!

لم يعلق ايفان، فقط واصل الشرود والإيماء بأنه يستمع! عادا لتناول شيء من الطعام الذي أصبحت ديرو ماهرة في صنعه، عاشوا الأيام سليمة تمامًا كل واحد فيهم مصدر لحماية أخيه!

كان كل ما يمكن أن يعتصر رأسهم هو التساؤلات التي لا يستطيعون الإجابة عنها

من خلق سوالكوفا؟

من خلق الذي خلق سوالكوفا؟

ما الغرض من كل ما نحن فيه؟

كيف ينبت النبات؟

لماذا هذا النبات مختلف عن هذا؟

لم يكونوا يعرفون لشيء معنى، يعيشون كي يعيشوا وحسب، وينتهي اليوم لكي يبدأ الذي يليه، أحيانًا تطارد إيفان لحظات الشرود التي لا يستطيع تمالك نفسه عنها، سرعان ما يعود متذكرًا أنه بات حرًا الآن وأن عصر تحكم سوالكوفا قد رحل إلى الأبد، لمعت في قلبه فكرة زينتها له شهوة نفسه، أن يكون هذا هو مصدر كل شيء، الحرية هي مصدر كل شيء.

سوالكوفا كانت تحولنا إلى عبيد لذلك لم يكن لنا أي نوع من أنواع الاستمتاع بالحياة، أما حينما تحررنا من سوالكوفا، حينما أصبحنا نملك إرادتنا بأنفسنا أصبحنا أحرار.

سوالكوفا هي نتيجة تكون عشوائي للطبيعة، وخوفها من كل شيء حولها خصوصًا حينما حكت لنا عن آلام المخاض التي عانتها وهي تلدنا جعلها تستحقر كل من حولهم وتتخذهم عبيدًا وتصنع الأساطير التي يمكن أن

تجعل لحياتها معنى بها، ولكن حينما تحررنا منها انهدمت تلك الأساطير، موت كيفاد كان رد فعل من الطبيعة التي كانت توضح لي أن الأشياء تعود إلى ردتها، العودة إلى العشوائية التي خلقت منها سوالكوفا والتي نشئت منها الحياة، لم يكن هناك أكوان قبلنا، فقط سوالكوفا ورجل آخر، ربما لا يكون هذا الرجل موجود من الأساس وتكون الإناث حينما تبلغ سن معين يمكن لها أن تنجب، أليست النباتات تنجب دون شيء، وربما يكون البعض ينجب والبعض لا ينجب، بعض النساء يكون من عشوائية النباتات فينبت دون الحاجة لذكور، والبعض يكون من عشوائية الحيوان فيكون في حاجة لذكور.

مجموعة من نظريات الخرافة كونها عقل إيفان في لحظات شروده، كان يأتيه في نومه كل يوم رجل كبير الحجم طويل اللحية أسود الوجه يمسكه من رقبته ويقبض على رقبته ويصرخ فيه: لا تقصص أوهامك على أخيك!

كان ينطقها بلغة لا يفهمها ولكنه مع ذلك تصل إلى وعيه باللغة العالمية التي يفهمها جيدًا، يستيقظ مفزوعًا كأنه مات ثم عاد من الموت.

في اليوم التالي قرر الذهاب إلى الشجرة التي دفن فيها أخته فعندها يمكن أن يقص عليها نظرياته تلك ولينظر ماذا سيفعل الرجل الذي يأتيه في المنام؟

تخيل أن تقتنع بمجموعة من الأوهام، ثم تقوم باختبارها بمجموعة من الأوهام العشوائية الأخرى، لا يستطيع أحد فعل تلك الضلالات المركبة بتلك الاحترافية مثل الإنسان.

حاول وايلد إقناعه بعدم الذهاب ولكنه أصر على ذلك، لمرات عديدة حاول وايلد أن يستفهم منه ما المغزى من الذهاب؟

كان الجواب دومًا:

-سأذهب لكي أجد الخالق، أظن أن الفوضى التي أنتجت الموت مازالت موجودة هناك عند تلك النقطة، بالتأكيد آثارها هناك!

رد عليه وايلد:

-ماذا ستفعل بها؟ ماذا ستفعل بالإله إذا كان لا يفعل لك شيئًا؟ لقد تركنا الإله هنا ومضى يا أخي، تركنا لمصيرنا نواجهه وحدنا.

سخط عليه إيفان:

- استمع يا أخي، لا أقصد الإله هنا، بأن أجد الخالق، الإله هنا الذي أبحث عنه شيئًا أخر، أنا أبحث عن المغزى لم يحدث لي، تعرف في كل يوم تأتيني أحلام مفزعة في أثناء النوم، لا أعرف لها سبب، بل إن عقلي لا يستطيع أن يميز وقت تلك الأحلام أني مجرد نائم. ما المغزى من كل هذا؟

ما المغزى من العيش يا ويلي إن كنت لا تعرف لماذا تعيش؟ ولماذا تموت أيضًا؟

أخبره وايلد متسائلًا:

- كم تبعد المسافة بين ذلك المكان الذي تود الذهاب إليه وموقعنا هذا؟

أجابه:

- يومان سيرًا على الأرجح!

-انتظر سنعد أنفسنا ونأتي معك؛ لنواجه مصيرنا سويًا!

رفض ذلك إيفان رفضًا قاطعًا:

-لا أريد أن أتحمل أحلام مفزعة أخرى إن حدث لكما أي مكروه سواء أنت أو ديرو!

خرج إيفان في الليل متسللًا، ترك خطابًا لإخوته، استيقظ وايلد وشاهده وهو يخرج، لم يثنيه عن عزمه، تركه، حينما استيقظت ديرو سألت اخوها عن السبب في تركه أخبرها أنه يؤمن بالحرية، يعتبر الحرية إله، ليفعل ما يشاء يا ديرو هو حر، لقد اختار وعليه أن يواجه عاقبة اختياره.

خرج إيفان يواجه أحلامه البائسة وحده، حينما حلَّ آخر الليل كان قد ابتعد بما يكفي لينام ثانية، فجاءته الشياطين المفزعة في أحلامه ثانية، يأتيه صورة

مشوهة لشخص أحدب، قدميه قدم ماعز، ورأسه رأس غول أشعث صارخًا فيه: ستقتل أخيك، ستقتل أخيك كما قتلت أختك، يستيقظ مفزوعًا

يحاول النوم مرة ثانية، يشاهد طائرًا سواده سواد ليل لم يصعد لسماءه قمر، يهبط عليه لينثر ريشه فوق رأسه فيأخذ من هذا الريش ما ينغرس في رأسه ريشة بعد ريشة!

يرفع كفيه يخاطب ما لا يراه ولا يعرف حتى هو نفسه من هو: أيتها الحرية العظيمة، أيتها الطبيعة الفاعلة، جئتك حرًا وحيدًا لكي أخبرك من أنا، ولماذا أنا، ومن أين أتيت، أليس هذا هو ما تريدينه، أن يكون العالم لك، ألست جزء من العالم، ها أنا ذا لكِ!

هتف بأعلى صوته:

-هل من مجيب لي، هل من مجيب لي؟

ظل يهتف ويشق بصراخه عباب السماء! هبط جاثيًا على ركبتيه رافعًا يده إلى السماء مكررًا صراخه عدة مرات.

أنهكه الصراخ فغطس في النوم ثالثة ليأتيه حيوان مشروم الشفاه، مجدوع الأنف، جسده قد امتلأ، مدى البصر يمخر البحر فالقا إياه نصفين، حتى يبدأ هو في صراخه بصوت مكتوم، فكلما نطق تنحف جسد الحيوان فينقبض البحر عليه حتى يصمت، فما إن صمت حتى تضخم جسد الحيوان ثانية، فيعاود الصراخ فينغلق عليه البحر، فيستيقظ مفزوعًا مهرولًا، يهرول بين واديين أطلق على اسم الوادي الأول وادي البحر وعلى الواد الثاني وادي الشروح، لتكون هذه أول أرض سميت بعد كيفاد!

ينقش أسماء الأودية على الأحجار في كل واد باسمه، ثم يغادر ويسير حتى يصل إلى تلك الشجرة التي دفن داخلها أخته، يحتضنها ويبكي على جذعها، يخبرها أنها تحتوي على رفيقته التي نشأ معها طوال سنوات طفولته العظيمة، ينام على جذعها، ويغفو هذه المرة لا يحلم بشيء، منذ زمن طويل لم ينم جيدًا، غرق في نومه طويلًا.

*****

والتر زال عنه السجن الضوئي بعدما كاد أن يسقط إيمانه، السجن اختبار للإيمان الحقيقي، ذلك أن الإيمان يحتاج أُفق واسعة لكي يتمدد فيه، فحينما تُحاصر داخل السجن، يتبقى إيمانك ونفسك، هنا لا مجال للإيمان أن يتمدد في أي أفق سوى أفق النفس، فإن كانت نفسك تسمح للإيمان أن يتمدد فيها حينها تستطيع مواجهة السجن، وإن كانت نفسك تضيق كأنها تصعد في السماء حينها لن يكون هناك مفر سوى أن تفقد أحدهما، إما نفسك أو إيمانك!

تكور والتر على نفسه، وواصل الذكر، لم يتوقف عن الذكر لحظة واحدة طوال فترة سجنه!

حينما انقشع عنه ظلمات السجن التي اجتمعت فوق بعضها بدأت تهاجمه خيالات الوحدة ووحشتها، لم يعد يعرف كم المدة التي قضاها في هذا العالم قبل أن يتحدث مع بشري!

بدأت الهلاوس تسيطر على عقله، ذهب للمحراب مناجيًا ربه، رب إني مسني الضر، رب لا تذرني فردًا وأنت خير الوارثين، عاد إلى الشاشات يراقبها، في لحظة ما تغير كل المعروض على تلك الشاشات، بدأت الشاشات تذيع ما يسمى ببرنامج الإنقاذ الوطني لكيفاد، بدأ عرض مباشر للناجين، أصبح يشاهد كل الناجين، لكن البرنامج لم يكن يحدد مواقعهم بسبب عدم قدرته على تحديد المواقع، بالإضافة لذلك كان برنامج الاتصال معطل، كل ما يعرض هو مجموعة من الصور التي تتوالى خلف بعضها البعض، شاهد بعض الصور الغير معروفة لأشخاص لم يعرفهم، هناك صورة واحدة عرفها جيدًا، تلك الصورة كانت صورة سوالكوفا وحولها مئات الأشخاص من الرجال!

لم يعرف من هؤلاء الرجال، خمن أن يكونوا أولاده، أو ربما من نسله على الأقل، تكون سوالكوفا استطاعت الوصول إلى أي شيء يمكنه تخليق أجنة

من أمشاج أولاده وفشلت في التجربة فصنعت أشخاص مشوهين كالذي شاهدهم. لم يستبعد أن تفعل سوالكوفا أي شيء!

ما تفاجئ به حقًا هو ذلك البث الحي لبعض الكبسولات بداخلها بشر في غاية السعادة، وتلك الكبسولات تسير في أرجاء ما تبقى من الأرض، الغريب أن أحد تلك الكبسولات كان خاليًا من أي فرد، انطلق ذلك الكبسول خارج نطاق الأرض بسرعة مذهلة، لدرجة أنه غادر الغلاف الجوي للأرض ثم انقطع البث من تلك الكبسولة!

لم يترك الزمان له فرصة للتفكير حتى فوجئ بكبسول يقترب منه!

سقط الكبسول على الأرض في هبوط مريح إلى حد ما، ثم خرج من الكبسول امرأتان يتحدثان اللغة العالمية مرحبين به، فزع منهما فزعًا غير قليل، سحب سيف وهمَّ أن يضرب أعناقهما، وجدهما تخضعان في وضع يشبه السجود:

-اغفر لنا أرجوك يا سيدي، إنها أختي الوحيدة، لم يكن علي أن اتركها للموت أرجوك، اتركها وحسب!

استعجب من طريقتهما، ولكن بالتأكيد ليس وراءهما شر، إنهما مجرد فتاتان غاية في الضعف، وضع السيف جانبًا وسألهما، ما قصتكما؟!

أجابت الكبرى بعد أن وخزت الصغرى بالتوقف عن الحديث:

- ما قصتك أنت؟، كيف تعفو عنا بهذه السهولة!

رد في استعجاب أكثر:

- كنت خائف أن تكونا هنا لتقتلاني، وجدتكما تطلبان العفو!

استفهمت:

-ولماذا نقتلك؟

- لأنكما من كيفاد في برنامج الإنقاذ الوطني خاصتها!

- لسنا من كيفاد، أنت الذي من كيفاد، نحن من برنامج تخليقي صنعته كيفاد لكي تصنع أشخاصًا يعيشون بلا هوية، فتسجنهم طوال فترة حياتهم مقتنعين أنهم يعبدون الوهم، بعضنا ظل طوال حياته يعبد هذا الوهم ومات عليه والبعض رفض ذلك وأعلن الأمر علانية فتم سحقه وتدميره، والبعض الآخر عرف وأخفى الأمر، منذ فترة غير بعيدة والجهاز لا يمكنه اكتشاف الخلل فينا ومن فعليًا يقوم بالعبادات ومن لا يقوم ولكن الذين كانوا في حالة عبادة الوهم ظلوا كذلك، ولكن جاءت اللحظة الحاسمة وانتهى أمر ذلك المكان القذر، ومن الواضح أنه من حسن حظنا أننا جئنا إليك ولم يكن توزيعنا لشخص آخر!

ظن والتر أن تلك حالة من الهلوسة، وأن الهلاوس قد اجتاحت عقله تمامًا، وأنه لم يعد يستطع أن يفعل شيئًا بعد ذلك!

صمت صمتًا طويلًا، وصمتت المرأة الكبرى هي الأخرى، أما الثانية ففضلت تركهما وشأنهما وصنعت لها كوخًا بجوارهما وسكنته هادئة، سادت حالة من الصمت كانت بين الجانبين لم يكن لها مثيل، هي تصمت لأنها تخاف أن يفكر في شيء ما، وهو يصمت لأنه يعتقد أنها غير حقيقية!

الغريب أن كلاهما أصبح يمارس حياته بطريقة طبيعية، والأغرب أنها كانت تسأله عن الطعام والشراب والحاجيات الأساسية لطرق العيش، ويخبرها حينما أطعمها لأول مرة خطرت بذهنه فكرة جلب أرنب، وحبسه ليوم كامل ثم وضع لها طبق مليء بالطعام وأمرها أن تنهيه كاملًا، بعدما أنهته قدم الطبق فارغًا للأرنب، وانتظر أن يأكل منه، بالطبع لم يجد الأرنب المسكين ما يأكله، تأكد أن هذه المرأة حقيقية وأنه لا يعاني من هلاوس ولا شيء، فلا يمكن أن يخدعه الأرنب ويقاوم جوعه، جلب الكثير من الطعام للأرنب وذهب إليها ليخبرها جملة واحدة: إذًا أنت حقيقية!

- وهل تعتقد أنني خيال!

- نعم كنت أعتقد أني مصاب بهلاوس نتيجة بقائي منفردًا فترة طويلة،

ثم حكي لها قصة الأرنب؛ ابتسمت في داخلها لا تعرف الضحك ولا تعرف السعادة، ولا تعرف أي معنى للابتسام، فقط شيء غريزي داخلها فعل ذلك الشيء وشعرت بالسعادة، هي لا تعرف كنه شعورها ولكنها تفعله!

يطلب منها أن تحكي له عن المكان الذي جاءت منه!

أخبرته كل شيء عن هذا المصنع، يعلم أشياء من هذا الجانب أثناء تواجده في كيفاد، قد كانت هناك بعض المصانع لزيادة عدد المواليد في حالة نقص المواليد على كيفاد!

ولكنها أخبرته الحقيقة المروعة لتلك الأشياء، الرعب ملأ قلبه مما كان يفعل، ومما شارك في فعله!

للحظات انتابته حمى أنه سيحاسب على كل هذا!

وأنه سيقف أمام الله ليسأله عن كل ما فعل وعن كل شخص شارك في قتله، جحظت عيناه، أخبرها مخاوفه، لم تفهم شيء، لم تفهم معنى كلمة الله، لم تفهم معنى الكلمة، توقف عن الحديث معها، ذهب إلى حيث مدونات ومؤلفات المسلمين حيث يؤمن!

بحث أولًا عن كلمة عاقبة القتل فوجد أن الله يغفر كل الذنوب طالما لم يصب المسلم دمًا حرامًا، ازداد هلعًا، فبحث ثانيًا عن كلمة الشراك بالله فوجد أن الله يغفر الذنوب جميعًا إلا أن يشرك به، صرخ، صرخ بأعلى صوته، هل لا يحق لي العودة؟ لم أكن أعلم، ألن تغفر لي يا خالقي؟ ماذا عساي بفاعل؟!

اعتقدت السيدة الصغيرة التي تركتهما وشأنهما أنه جن، خافت على أختها فهرعت إليهما، وجدته جاثيًا على ركبته وهي تحاول تهدئته، لا تعرف كيف، تجلب له الماء، وتمسح على وجهه، الماء هو الشيء الوحيد الذي تعرفه كمهدىء، لا تعرف أن تربط على كتفه ولا تعرف أن تواسيه بأي شيء سوى أن تمسح على وجهه بالماء كما كانوا يفعلوا في خرابة البشر التي جاءوا منها!

نظرت أختها الصغرى لها، وأخبرتها أن تدعه وشأنه وتأتي معها للكوخ ويسكناه! لم تذهب معها!

فقط تبقى بجانبه، حتى لم تسأله عن شيء من أسباب صراخه، فطرتها الإنسانية أكدت لها أن في حالة الانهيار يكون محاولتك للدعم مجرد محاولة هزلية لإبقاء ما لن يبقى، وأن كل ما يحتاج منك الشخص في تلك اللحظات أن تتقبل كل انهياراته المدوية وأنت تحتضن ركامه الذي سقط منه!

في الليل سقطوا من التعب، غرق في النوم بعد أن صلى، طلب من ربه أن يدله ثانيةً!

توقع أن يباغته حلم ما يدله، لكن لم يحدث، غرق في نوم طويل هادئ وحسب، استيقظ للفجر، صلى كثيرًا، في صلاته راودته فكرة أنه يبحث بطريقة خاطئة، إنه لم يبحث بأي طريقة عن طرق التوبة، لقد سأل عن العقوبة ولم يسأل عن الطريق!

أيقظ المرأة الكبرى واصطحبها معه يقول لها: أخاف أن أكون وحدي.

تخبره: مما تخاف وقد عشت العمر وحدك، ووجدت الحقيقة وحدك.

يجيبها: لم يكن العمر كله وحدي، والحقيقة أن الحقيقة ستنهار إن لم أكن على صواب هذه المرة!

اصطحبها ليذهبا إلى حيث الحقيقة مدفونة دائمًا، الحقيقة مدفونة دومًا حيث الكتب!

بحث، ثم بحث، ثم بحث، اكتشف أن الإسلام يجب ما قبله وأنه غير محاسب قبل تلك اللحظة التي لم يكن فيها مسلمًا، هدأت نفسه، وتنهد حيث أخرج زفرة الغضب كلها، حمد الله وأثنى عليه، شعرت بالارتياح لراحته ثم طلبت منه أن يشرح لها ما حدث، شرح لها كل ما حدث منذ أن كان قائدًا في كيفاد إلى رحلته التي غادر فيها ليجد نفسه، اعتقدت أنه موهوم بزيف وأنه يقتنع بشيء لمجرد كفره بكيفاد، أخذ في سرد كل ما يتعلق بمعرفته للإسلام،

أخذ يتعلم المزيد عن هذا الدين ويقنعها بالمزيد عنه، في عقلها الفطري فإن حقائق هذا الدين وثوابته تتناسب مع الفطرة البشرية ولا تتناقض مع العقل، لا يوجد اختلاف بين النص والعقل في هذا الدين ولكن ما حدث لها يمنعها من الإيمان بأي شيء، لقد عاشت طوال عمرها وهي ترفض الإيمان وترفض كل مصطلح يتعلق بتلك الكلمة، لذلك حينما تأتي لها الكلمة في أي صورة أخرى أيًا كان محتواها فهي لن تقبلها بسهولة!

الغريب في الأمر هو موقف أختها الصغرى، لقد آمنت بسهولة حينما استمعت لكلام والتر، في الخفاء سألتها الأخت الكبرى:

-هل إيمانك بما يقوله يتعلق بخوف ما منه؟

أجابت الصغرى:

- لا فقط أشعر بمنطقية كل الكلام الذي يقوله لذلك أؤمن به حتى يتبين خطأه!

الكبرى: ولماذا لم تؤمني بما شاهدناه ونشأنا عليه هناك؟

الصغرى: لأنه كان إجبارًا، شيئًا ما في قلبي دفعني لرفضه، أما هنا فالأمر اختيار، وهذا هو مفتاح الإيمان يا أختاه، أن تختار، أن تدخل الباب بمحض إرادتك الكاملة، وأن يكون لك حرية المغادرة في أي وقت!

والتر يستمع إليهما من خلف صخرة اتكأ عليها ولم يكنا يعلما بوجوده، ذهبا وأطلق والتر لنفسه العنان في حديثهما، ذهب للكتب، أسوأ ما فعلته كيفاد أنها تركت ملايين الكتب، يعتقد الطغاة أن جعل الناس لا يقرأون يكون قد حل مشكلة التفكير، ولكن الكتب تدافع عن نفسها حتى ولو لم يقرأها أحد، الكتب هي ولدان العلماء المخلدة، وتظل خالدة طالما لم تتسخ أحبارها، ولو جلست ألف ألف عام دون أن يقترب منها أحد، فإنها تظل وفية منتظرة لمن يأتي لها، الكتب مخازن النور، المكان الوحيد الذي يمكن أن تخزن فيه النور هو الكتب، في كتاب ما، وجد والتر بعض النور مؤلف عتيق يتحدث عن الرؤية الإسلامية لقصص الأنبياء، توقف عند قصة سيدنا إبراهيم، توقف عندها

كثيرًا، إبراهيم كان مثله، قصته تشبه قصته تمامًا، لقد بحث عن الله بنفسه ولكن الله أوحى له، لماذا لم يوح الله له مثلما ما أوحى لإبراهيم، علم أن محمد هو خاتم الأنبياء بعد ذلك لذلك لا يمكن أن يكون هناك نبي بعده، تعلم قصة الذبح، وعرف حكمتها، عرف لماذا فعل إبراهيم ذلك أيضًا؟

إبراهيم حينما آمن كان إيمانه مختلف تمامًا، فإيمانه قائم على رحلة عقل، لذلك التسليم كان عنده أكبر مما يمكن!

عرف قصة إبراهيم مع الطير أيضًا، حينما طلب النبي إبراهيم عليه السلام من الله أن يريه كيف يحي الخلق، علم أنه في تلك المرحلة، أنه بعدما آمن كان يريد أن يرى بعينه البعث بنفسه لكي يطمئن قلبه، يحتاج العقل بعد إيمان الحدس إلى إيمان الحس، أن يرى بنفسه؛ لكي يطمئن قلبه!

تلك الكلمة علم أنها هي ما تنقصه بعد رحلة العقل، وسكون القلب واطمئنانه!

بحث عن الطريق هذه المرة، تعلم شعائر الحج، أخبر التي لم يطمئن قلبها للدين بعد أن مكة لا يدخلها إلا مسلم، وأنه سيتركها على حدود مكة إن جاءت معه، قبلت بذلك، واصطحبها في الطريق، استعان بالكثير من الخرائط لكي يصل إلى ما يريد، لا يعلم إن كانت الخرائط تلك ما زالت صحيحة أم غيرتها عوامل الزمن، لكنه أصر أن يصل، إنه يريد أن يعرج بروحه إلى السماء، فعليه أن يتغلب على مسافات إسراء الأرض.

بيت الله هو مراده، لم تكن الرحلة الأولى لبيت الله على هذه الأرض، السؤال يراوده هل مازال البيت على قواعده سالمًا، الامرأتان التي كانتا معه كانتا تخافا الهلاك في الطريق ليس أكثر، ولكن والتر بالنسبة إليهما هو الأمان، هو يعرف عن هذه الأرض كل ما لا يعرفا.

سألهما:

- أليس لديكما أسماء يمكن مناداتكما بها؟

استغربا الفكرة، ولكن الكبرى أجابت: أنّ الأشياء فقط هي التي لديها أسماء أما نحن فلدينا أرقام، أنا رقم واحد وستون وهي رقم ستة عشر وهذا ما ساعد على هروبنا معا، عن طريق استخدام أكواد خاطئة لأن الرقمين متشابهين، فقط قمنا بلعبة صغيرة على الماسح الضوئي الخاص بحجز كل واحدة فينا!

والتر أغمض عينيه محاولا الاستفهام:

- كيف كنتما تتواصلان؟

استمرت الكبرى في الرد: عن طريق شفرة من الأرقام والنقر على الأبواب، كان كل حرف يساوي عدد معين من النقرات على الأبواب، وكانت الفاصلة بين كل حرف وحرف صرخة تحية من أجل كيفاد، ابتدع تلك الطريقة رقم اثنان وستون وتم نشرها من حجز إلى حجز، ونقشها على جدران الحجز، حدث هذا في السنوات الأخيرة حينما سقطت سيطرة كيفاد علينا إلى حد كبير وبدأنا نتأكد من عدم صدق ما يحدث!

والتر كان يستمع إليها ويتذكر كل الذين استجوبهم، تذكر كل المتمردين في كيفاد الأم، علم عندها أن فكرة السيطرة الكلية هي محض خيال لدى الطاغية، الحرية تسير في ابن أدم مجرى الدم، دومًا يتوق لها، يتنفسها، المجال الخاص للإنسان يتمدد في كل ما يمكن أن يتمدد فيه، حتى لو قمت بسجنه في نصف متر من الأرض، سيتمدد فيه، ستتمدد الحرية حتى في الشعارات التي يقولها المظلوم في مدح الطاغية!

خرج من أفكاره إلى الحديث إليهما:

-حسنًا سنسميكما من الآن، الكبرى بتول، وصغيرتنا هذه مودة، تلك أسماء عربية، ربما تكون تلك الأسماء هي أول أسماء من العرب تطلق في عصر ما بعد كيفاد.

ابتسم والتر مع ضحكة صغيرة أطلقها، لم يفهما معنى الابتسامة، لم يكن يضحكا هناك، كان الضحك جريمة، ولم تكن تعلما أن هناك ضحك، ولكن

نفسيهما بدأت تتوق إلى فعل شيء مثل هذا، تحدثا وتعلما، ألفا بعضهما البعض.

لكن الأخت الكبرى لم تسلم في قرارتها بعد، لم يستطع الإيمان الوصول إلى قلبها بعد، برغم أنها أحبت والتر، أحبته بطريقة لا يمكن أن تصدق!

تستيقظ صباحًا تبحث عنه، وفي الليل لا تنام إلا في خيمة ملاصقة له، حينما بدأ الطريق إلى مكة لم تكن تريد أن تصل، صرحت له بذلك ذات يوم، أخبرها أنهم يسيرون حسب تقويم يسمى التقويم العربي، وهو تقويم وفق حركة القمر، وأن الحج يستغرق مجرد أسبوع واحد من شهر ذي الحجة، هذا لو وجدوا البيت الحرام مازال قائمًا بعد!

استعجبت:

- أيمكن أن يهدم بيت الله؟

أجابها:

-للبيت رب يحميه، هكذا كانت تقول العرب!

زادت استفهامًا:

-ولكن ماذا لو كانت حدود مكة ليس بها طعام ولا شراب، أتتركني في العراء من أجل الحجر؟

غضب ربما وهو يقول:

- أولًا ليس من أجل الحجر تلك وثنية، لا أخوض تلك المسافات من أجل الحجر، ولكن لكي أرى إبراهيم، لكي أشاهد ماذا فعل، هذا النبي رحلته للإيمان تشبه رحلتي للإيمان!

واصلت استفهامًا:

-من إبراهيم؟

أجابها: إبراهيم نبي الله في العصور ما قبل البدء، حيث كانت الدنيا ليس فيها شيء، مثل هذه الأيام التي نحن فيها، كان قومه يعبدون الأصنام ولكنه

اعتزلهم وبحث عن الله، وجده في الشمس، وجده في القمر، قال في القرآن أن تلك آلهته، فلمَّا وجد القمر يغيب، ووجد الشمس تأفل انصرف إلى البحث عن الله، حتى وجد الله وأوحى إليه!

الكلمات التي لم تكن تفهمها كثيرة، الأمور بدلًا من أن تزداد وضوحًا كانت تزداد غشاوة بعد غشاوة وظلمات بعد ظلمات، عقلها لا يستطيع أن يصل ولا يفهم، عقلها بدائي كعقل طفل لم يبلغ الحلم بعد، ثوابت جحود بيئتها تمنعها من التسليم، التسليم يعني لها القيد، ولكي تدرك أن التسليم هنا يعني الحرية كانت تحتاج للكثير من الوقت!

بتول الصغرى تستمع وتزداد إيمانًا بعد إيمان، ترى في ذلك الإيمان شيء يدفعها نحوه لاتعرفه، شيء واقر في قلبها كلما ازدادت منه ازدادت، أما مودة فكان الأمر يثقب قلبها، كلما انفتح ثغر للنور انغلقت عينيّ قلبها عنه، لعل من لا يعرف النور قاضيًا عمره في الظلمات إن رأى النور ظن أنه الموت فيغلق عينيه مدى حياته!

يسير في الخرائط، فالخرائط منضبطة إلى حد كبير، فيجد البحر يقف أمامه باتساعه، وعرضه، وكبرياؤه، يعرف البحر وقد خاضه سابقًا، ولكنه لن يخوضه هذه المرة، في المرة الأولى التي خاض فيها البحر، خاضه تائهًا لا يلوي على شيء، أما هذه المرة فهو يخوضه وقد أكتمل عقله، لذلك القفز في المجهول لا يناسبه، يسير على سيف البحر برغم أن المسافة أطول مئات المرات، ولكنه يفعل يخوض صحراء طويلة تتغرب يمينه، وبحر يتشرق يساره، الصحراء في الليل تشبه البحر تمامًا، لا يمكن التفريق بينهما، هل يمكن التفريق بين ظلامين بامتداد الأُفق، لجة البحر تهدر أصواتها على الثلاثة، وحدهم وسط كون هائل لا يجدان مفر في أن يعترفوا بضالتهم وسط اتساعه!

مودة تشاهد قطيعًا من الإبل تطوف الصحراء، تستمع إلى صوت والتر وهو يردد في الآفاق بصوت مرتل قوله تعالي:

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾[٣]

تتأمل في لفظة كيف خُلقت الإبل، وتقوم إلى القطيع، وتأسر إحداها، تقيدها، فخلقها مبهر فعلًا، فالإبل متعة العين، الإبل عز لأهلها، هي النوق، وهي العيس في البيداء، مضرب الأمثال، وتوق الهربان، وملجأ الظمآن هي، وخلقها عجيب، وطلعها وجيد، ونفرها سديد، سبحان الخالق الوهاب، تشبه قلب مودة وهي تتقلب ببصرها في الأفق.

تنظر إلى الجبال كيف وصلت إلى هذا العلو، أشكالها: حمر وبيض وغرابيب سود تخطف الناظرين من فرط علوها، تصعد أحد الجبال وتهيم بالنظر في السماء للنجوم، مصابيح متلألأه، ولكن مع ذلك يضيع جوابها، هي تنبهر وحسب.

يستمروا في السير، يمروا على مدينة كاملة، بيضاء ثراها وبها أكواخ ملؤها بياض من حبيبات لؤلؤية، ولكن بمجرد الإمساك بها تتحطم إلى ثرى أدق، حينما سقط الماء من يدي والتر في تلك الحبيبات ذابت فيها تماما، كانت مدينة كاملة من الملح، تتوسطها عينًا كبريتية، كانت منتجعًا صحيًا للاستشفاء والاستجمام، نزل والتر في العين الكبريتية، ترك أملاح الكبريت تمتص كل ما في جسده من آلام!

يخرج منها ليستأنس برفيقتيه، يتحدث معهما، يتسامران، يميل إلى مودة برغم أنها لم تسلم بعد لكن قلبه يميل إليها أكثر، يثقب ذلك قلب بتول، منذ فترة غير بعيدة كانا حلف واحد ضد عدو غير مرئي لهما، الآن الغيرة تأكل قلبها من أختها!

*****

[٣] الغاشية: ١٧ - ٢٠

وصلت سفينة سوالكوفا في الليل إلى مرساها بعد أن مخرت من البحر ما مخرت، وصلت ليلًا والبحر مظلم تكاد لا ترى كف يدك إن بسطته أمام عينيك، كانت أرض جدباء لا زرع فيها ولا ماء، تعتبر تلك الأرض هي محطة انتظار تقع تحت مرسى كبير لأحد سفن كيفاد، وبينهما منطقة كاملة مفرغة من الماء لكي يسقط فيها البشر الذين كانت ترسلهم، دوشان وميرفي هرعا إلى سوالكوفا يخبراها أن الأمور لا تسير كما ينبغي، حدثها دوشان أن أرض المرسى يجب أن تكون مليئة بالزروع وينابيع المياه العذبة ومصنع التخليق الوراثي الذي تُخلق فيه الأجنة استعدادًا للبدء، ولكن كل هذا لا يحدث!

أردف ميرفي أن الأمر قد يحتاج إلى قليلًا من الوقت، أو ربما نحتاج للترحال!

شردت سوالكوفا في غير شرود ضال كأنها تعرف، أشارت لهم بالصمت!

أمرت دوشان وميرفي بأن يجمعا لها خمسة رجال غيرهما من خيرة الرجال، وأن يجلبا لها كل ما تبقى من طعام تبقى على سطح المركب، أمرت الرجال السبعة أن يصطادوا من البحر كل ما يمكن أن يحصلوا عليهم من صيد!

جمعت السمك وأمرتهم أن يجمعوا كل الرجال للطعام، ماعدا دوشان وميرفي والخمسة رجال الذين اختارتهم لا يقربوا الطعام الذي سيعد، قامت بإعداد الطعام بنفسها، جمعت الجميع للطعام، نظرت لهم نظرة جامعة، مائدة السمك يجلسوا عليها جميعًا والرجال السبعة على رأسها لا تمتد أيديهم إلى الطعام وهي من فوقهم، أمرت أحد الرجال الخمسة أن ينقش المنظر على أحد الجدران، كانت لوحة كلاسيكية، غاية في الإتقان وبهرجة الألوان، رجال كل منهم بعاهته يجلسوا إلى السمك مختلف ألوانه وأشكاله، وسبعة رجال ينظرون لهم في ترقب وتقف على رأس الجميع متربعة بالنظرات التي تثقب القلوب من فرط حدتها، أخذ الفنان في الرسم سبع ساعات متواصلة حتى تجمدت دهون السمك في أطباقها وأصبح زيت حوتها دهنًا صلبًا بدلًا من سيولته، ثم أمرت بالبدء في الطعام بعد انتهاء النقش على الحائط، نزل الجميع على الطعام طحنًا بعد طحن بعد أن انتهوا من الطعام فعلت ذلك معهم في

اليوم التالي، تعد الطعام وتقف، تجعل الرجال السبع ينظرون، يتضرعوا جوعًا، ثم يأكل الرجال السبع بعد ذلك من طعام غير الطعام الذي يأكل منه سائر القوم!

في اليوم الثالث بعد أن انتهوا من الطعام سقط القوم مغشيًا عليهم، غرقوا في سبات عميق، جلبت بعد ذلك خشبًا قامت بجمعه بنفسه وصنعت مواقد خشبية، أشعلت تلك الأخشاب، أمرت الرجال السبعة بحفر ثقوب في الأبواب الخاصة بأرض المرسى!

حينما خرج دوشان وميرفي كان العجب في عجين من الفضول قد تيبس في حناجرهما يريدا أن يسألا عن المغزى؟!

كلاهما كان يريد من الآخر أن يبادر بالسؤال، الغيرة بينهما مشتعلة منذ اللحظة الأولى، وفي تلك الحالة تكون الغيرة قائمة على أن من يربح هو من يثبت أن الثاني غير جدير بالثقة!

فات على الاثنين الفرصة، وسأل أحد الرجال الخمسة، فكانت الإجابة ضربة ببلطة شجت رأسه نصفين ناثرة الدماء في الفراغ وصانعة على الأرض لوحة من الفن السريالي بلون الدماء، لم يجرؤ أحد بعدها على التفوه!

يسيطر الطاغية بالأسطورة على كل من يريد، هذه المرة الأسطورة كانت تدعي معرفة مالا يعرفه أتباعه، لكن الحقيقة أن سوالكوفا كانت تكسب المزيد من الوقت لكي تستكشف المكان لكي تجد أرضًا أخرى غير تلك الأرض العقيمة التي لا تصلح لشيء، استغلت معرفتها الطبية في إدخال قومها في سبات عميق، والاحتفاظ بسرية صغيرة من المساعدين تمكنها من البحث عن أرض جديدة، قامت بالبحث حينما خرجت من ذلك المرسى كان هناك نفقًا غارقًا بالمياه إلى نصفه إلا أن هناك حافتين على جانبيه يسمحا لفرد واحد بالمسير، باتت ليلتها تراقب حركة المياه في النفق، حركة المد والجزر مهمة لعل النفق يغرق بالمياه في توقيت ما فيكلفها الأمر حياتها، هي أيضًا لا تستطيع أن تعتمد على أحد هؤلاء الذين معها وحده!

ما توقعته حدث تمامًا، حينما انتصف الليل امتلأ النفق بالمياه حتى غابت الحواف منه تمامًا، لم يكن هذا نصب اكتمال المصيبة، طيور جارحة خرجت من النفق حينما امتلأ بالماء، مخالبها لم تكن خالية، كانت ملطخة بدماء وقطع من أسماك غير معروفة لكيفاد أو ما قبل كيفاد، خطفت الطيور الأبصار في حركتها، ولكن سوالكوفا أحدت نظرها ولم تلتفت إلا بطرف عينيها لترى أعشاش الطيور، أعشاش الطيور دلتها على شيئًا ما في رأسها، تلك الأعشاش كانت في تجاويف تخفي ما يثير ريبتها، ولكن قررت مواصلة ما بدأته، مراقبة المياه في النفق!

دوشان وميرفي وأربعة رجال آخرين متعبون من انتظار ما لا يعرفونه، ولكنهم مغلوبين بسيطرة الفكرة على أذهانهم، كيفاد صدقت حينما أرسلت لهم سوالكوفا، إذًا ستكون كيفاد دومًا صادقة وعقوبة من لا يصدق الموت الفوري!

حينما جزرت المياه عن النفق دخلوا فيه، حملت معها شيء من الأقواس والسهام، سارت في حالة تأهب وترقب ما يحدث، لكن النفق لم يصل بها إلى شيء، لم تهتز فقط عادت، نظرت في أعين الجميع نظراتها الشاردة كأنها تختبرهم، كأنها تنظر إلى أعماقهم، أمرت أحد الرجال الأربع أن يذهب لجلب الطعام لهم بعد أن خرجوا من النفق، ما إن ذهب حتى رمته بسهم في كبده أرداه على الأرض، أتبعته بسهم آخر في قلبه، ذهبت إلي جثته التي تنفخ آخر رزقها من أنفاس، أطلقت سهمًا آخر فقعت عينه اليمنى، وسهمًا آخر فقعت عينه اليسرى!

الرجال الخمسة الآخرين انخلعت قلوبهم من أغشيتها البروتينية، نظرت لهم قائلة: السهم الأول كان من أجل الشك، والسهم الثاني لأن هذا القلب أخفى شكه، والسهم الثالث والرابع لعيون كانت تكذب على الإله، هذا المعتوه سقط في الاختبار الذي صنعته لكم، هذه هي اللعبة إذًا، تحاول فإن لم

تفلح المحاولة في إيجاد الأرض، تقتل أحدهم وتقول أنه اختبار، هذه هي الخطة التي تريدها!

الأعشاش كانت خطتها التالية، صنع الرجال الخمس المتبقيين برج بشري تسلقته لكي تصل إلى الجيوب التي استوطنت فيها الأعشاش، الإله يحتاج العبيد لكي يصعد إلى مبتغاه، إنها لا تعمي الأبصار، ولكن تعمي القلوب التي في الصدور!

ما أن أسقطت سوالكوفا العش حتى لمعت من تحته عين تابعة لكيفاد، أضاءت تلك العين باللون الأخضر مصدرة إنذارًا غريب الصوت، تبعه صوت ارتطامات شديدة وصريخ غير مفهوم، هرعت سوالكوفا في شكل دجال يحاول استيعاب جني قد ظهر له وهو لا يقصد، ولكنه مطالب أن يظهر وأنه قد توقع ما حدث!

كانت الارتطامات لانهيار حائط صلد مجاور لهم، بعد الارتطام ظهر خلف الحائط سلم حلزوني يقود إلى أعلى، هي لا تعرف ولكنها أخبرت الرجال الباقيين أنها تعرف!

صعدت سوالكوفا يتبعها الرجال الخمس، والحوائط ألوانها عجيبة، وكانت الألوان سوداء داكنة مرسوم عليها نجوم كالتي في السماء، العجيب أنه حينما تنظر إليها تتخيل أن تلك النجوم بعيدة للغاية، وأن هذا السلم معلق في الفضاء وأن كل درجة تصعد ما بين سماء وسماء وحينما تلمس بيدك تجد الحائط في موضعه الطبيعي، كأنها شاشة لعرض السماء وليست حائط، الرجال الخمس يموتون رعبًا، وسوالكوفا تشعر بلذة انتصار كلما صعدت لا يعكر صفوها إلا صوت الصريخ الذي يزداد عندما يقتربون، صراخ لا نهاية له ولا مثيل له، كأن يلقى بأحدهم في النار ولكن الصراخ لا يخبو، عند الوصول إلى القمة كان هناك النور يثقب قمة هذا الدرج وصوت الصراخ أقرب ما يكون، وهواء غير عطر لم تعرفه سوالكوفا من قبل، أمرت سوالكوفا رجل ممن كانوا يتبعونها بالصعود أولًا، عرف الرجل أنه اختبار من

سوالكوفا له هو الآخر، ولكن لا مفر فصعد، وما إن صعد حتى شعر بالراحة لما شاهده، ارتاحت نفسه، تنفس الصعداء، قرأت سوالكوفا ذلك على تعابير وجهه فاتبعته، وما إن فعلت حتى أمرت الرجلين الباقيين بالصعود، أما دوشان وميرفي فأمرتهم بالعودة إلى حيث بقية القوم، وأن يقوموا بإطفاء البخور بالماء وفتح المكان حتى يستيقظوا، ثم جلبهم إلى أرض المأوى، ما رأته سوالكوفا كان عشرات الكبسولات الطائرة المحطمة في أرض المأوى، وأناس يهرعون في كل الأماكن يصرخون بصوت عالٍ حول خط أحمر عند تلك المنطقة التي خرجوا منها، وأناس آخرون كانوا قد اجتمعوا في مكان آخر ينتظرون ما الذي يمكن أن يحدث؟!

سوالكوفا تنظر لنفسها، تخاطبها قبل أن تخاطب الناس هؤلاء، تعصر قرائح أفكارها لكي

تنبت ولو زهرة واحدة في ربيع عمرها ولكن زهرات الفكر لا تنبت عنوة، إنما العقل امرأة تحتاج إلي تدليل كي تنجب صحيح الفكر، إنها لا تحب نفسها ولا تكرهها، ما كان ضد الحب يومًا هو الكره، إنما الحب ضده اللامبالاة، اللاوعي أن لا تبالي، وأن لا تحب، وأن لا تعرف لنفسك طريقًا بين الناس سوى ما وجدت نفسك عليه دون أن تعمل عقلك ولو لحظة في المراجعة!

جاء دوشان وميرفي بقومهم إلى سوالكوفا، صعدت بهم جميعًا إلى أرض المأوى، ما إن ظهروا وشاهدهم أهل الأرض حتى تبدل الصريخ إلى نظرات لا تصدق ثم إلى فرحة لا تصدق أيضًا، سوالكوفا قرأت المشهد حينما أمرت الجميع بالصمت، رافعة يدها مبسوطة إلى السماء باستثناء خنصرها منقبضًا، كانت تلك تعنى إشارة الصمت في كيفاد، بدأ الجميع فأدركوا، سجد الكل إلى سوالكوفا حتى المجموعة التي كانت صامتة، لكنهم ذابوا من تمركزهم في مكان واحد إلى المجموع، سوالكوفا بالطبع لم تكن تتذكرهم، ولكنها أدركت أن بين هؤلاء مختلفين، صعدت إلى أعلى رتبة وجمعتهم، هتفت فيهم: أن كيفاد

الآن تعود للنور من جديد، وأن من كان لا يصدق سيعرف، ومن كان كافر سيؤمن، ومن جهل سيعلم!

اعتقدت في البداية أن هؤلاء قادمون من كيفاد، ولكنها عرفت الحقيقة أن هؤلاء ليسوا من كيفاد وإنما هم من ذلك السجن الذي كان يأويهم، استجوبت إحداهن في جنح الليل، وبعدما انتهت من استجوابها قتلتها، علقت رأسها على جذع شجرة يتساقط منها الدماء، كان عدد القوم الذين جاءوا من السجن أكبر من عدد قومها ذلك أنها قتلت ما قتلت في البحر، كان قومها كلهم ذكور و القوم الآخرين كلهن إناث، منحت الرجال الخمسة الذين كانوا معها فائض النساء كله ليتزوجوا بهم وجعلت لبقية الرجال كل رجل منهم امرأة واحدة، امتلأت قلوب الرجال بالحقد على هؤلاء، حتى لو كان الإله من أمر بذلك وهو حاضر أمام أعينهم، فهم لا يقبلوا بذلك، دوشان وميرفي قادة الكهوف من الممكن أن يقبل بقية قومهم بتفضيلهم أما الرجال الثلاثة الآخرين فلماذا، إنهم مثلهم، اشتعلت نيران الغيرة، ثارت حركة خفية بين مجموعة من الرجال أرادت أن تحول تلك الغيرة من القسمة الغير عادلة إلى فعل ضد سوالكوفا، تزعم هؤلاء الرجال رجل يسمى وضاح، رجلًا قمحي اللون جاء لأن عدد أصابع أقدامه بها زيادة إصبع فاعتبرته كيفاد مشوهًا، وألقته إلى تلك الأرض، زوجته كانت من هؤلاء الذين لم يؤمنوا وجاءوا في الكبسولات، استطاع أن يكون مجموعة من الأفراد، هدفها إحداث حركة تمرد داخل مجتمع سوالكوفا، إنهم يعلموا أنها ليست إله، رفيق وضاح وأول من انضم إلى دعوته اسمه شيث، مثله يؤمن أن سوالكوفا ليست إله وأن النظام الذي صنعته مجرد هراء وعبث، مع ذلك لا يؤمن أن بإمكانه تغيير هذا النظام، سوالكوفا معها السلاح ومعها الأغلبية وهم مجرد حفنة صغيرة، كل ما معهم هو الحقيقة، والحقيقة لا تساوي شيئًا في مجتمع الأوغاد!

*****

وضاح بدأ في دراسة سوالكوفا وأساليب سيطرتها، سوالكوفا تتحكم فيهم بشكل أساسي عن طريق الرجال الخمس وزوجاتهم، هي تخطط لأن يكون نسل هؤلاء الخمسة هم الأكثر حتى تتمكن من السيطرة طوال الأبد، تتركز في أيديهم معظم السلطات، السلاح هم فقط من يعرفون طريقة تصنيعه، مخاطبة الناس فهم فقط من يتكلمون، الغذاء هم من يقوموا بتوزيعه، وهم من معهم مفاتيح مخازن الغذاء، سوالكوفا تقوم بعلاج من يمرض بنفسها لكي تعزز سلطة أنها الإله الذي بيده شفاء المرضى، تلك كانت نقطة شك شيث وتراجعه، أنها تملك الشفاء، زال هذا الشك حينما مات أحدهم بعد خلطة أعدتها له فمات متسممًا بها، في العادة يؤمن الأطباء أن الدواء هو سم له جرعة تجعله دواء، أما الآلهة فتؤمن أن الدواء هو شفاء من أيديهم لا من غيرهم!

يواصل وضاح متابعة سوالكوفا، يراقبها لكي يعلم كيف تتصرف؟ كيف تراقب؟ لدى الشعب الوعي الكامل بالحقيقة يثور، ولكن هذه المرة الثورة ضد إله، يومًا بعد يوم تزداد أعداد أتباعه، يخشى أن ينكشف أمره أمام سوالكوفا، ولكنه يعلم أن كل يوم تمر يزداد ملك سوالكوفا وتزداد قوة مملكتها.

تطلق سوالكوفا على مدينتها الجديدة اسم كيفاد الجديدة، صممت سوالكوفا المدينة على هيئة أكواخ متراصة في شكل دائرة وفي مركز تلك الدائرة يقع قصر على شكل هرم لها وحدها، وفي كل زاوية من قاعدة الهرم يقع مخزن للسلع الإستراتيجية، وفي بقية المسافة بين مركز الدائرة والأكواخ تقع أكواخ الرجال الخمس وزوجاتهم، نصيب الرجل الواحد من الرجال الخمس حوالي عشرين كوخًا، دوشان وميرفي كل واحد منهم زائد بنسبة عشرة أكواخ!

كان كلًا منهما عدوًا للآخر طوال الوقت.

*****

مهند فتح عينيه صارخًا في طلال:

-لم يمت أحد يا رفيق، لم يمت أحد يا أخي.

لم يصدق طلال ما حدث، تقريبًا كل الكبسولات انفتحت، كل من كان موجودًا في هذا السجن خرج، ظهرت رسالة لهم أن هناك من لم يصل لهم عدد كافٍ من الأزواج لسبب ما لا يمكن علمه، ربما يكون أن إجراءات الحصر بالماسحات الطائرة دون الأقمار الصناعية!

طلال ومهند فهما أن سجن الضوء كان هو الماسحات الطائرة، كيفاد فكرت في خراب الأقمار الصناعية فاعتمدت على نظام بديل للمسح الإلكتروني، هذا النظام اعتبر كل من في الأرض ناجين ولم يفرق بين أحد وأحد.

تنفس مهند الصعداء، شهق يملأ رئتيه بالهواء أن أحدًا لم يمت

لكن طلال ذهب ذهنه للبحث عن الناجين، من نجا بعد كل هذا يا فتى؟

مهند يتركه في أسئلته ويخرج للناس، فيراهم سجدًا، ينهاهم ويخاطبهم: ارفعوا رءوسكم، سنبني مدينتنا الآن، هناك شر في هذا العالم يجب أن نتخلص منه، الرءوس المنحنية لبعضها لا يمكن أن تبني المدينة التي نريدها، ستُبنى مدنًا أخرى مثل التي كنتم فيها، أيها الناس: جئتمونا بالخوف معجونًا في طينتكم، وجئتمونا بالعمى من كل شر لم تروه، وجئتمونا بفطرة شوهوها لكم، كل ما كنتم عليه باطل، ما سأعلمكم إياه هو الحق، الحق الوحيد يبدأ من رفع رءوسكم عن السجود للبشر، ألا فارفعوها، ألا فقوموا للواحد الأحد!

*****

٧

العفو هو زكاة النصر يا رفيق

الثورة يا رفيق لم تكن يوما في مقتل الطاغية الذي يحكم دولتنا، الثورة يا رفيق تبدأ من مقتل الطاغية في نفس الشعب!

*****

يصل إيفان ليجد الدماء، هال منظرها فامتقع وجهه، يزول ذلك بمجرد أن يرى أخته وأخيه ورجل غريب يقوموا على مداواة امرأة أخرى، وكبسولات محطمة في فناء البيت بنفس تلك الطريقة التي وجد فيها الكبسولة التي وجد فيها فتاته، خمن أن هاتان الكبسولاتان كان بهما الرجل الغريب وتلك المرأة التي يقوموا على مداواتها، جراحها في العنق كانت بليغة، تقدم إليها إيفان مساعدًا، يحاول تضميد الجراح بكل صورة، ولكن شطيرة من زجاج متحطم أثناء الهبوط انفجرت في عنقها، فقطعت شريانها السباتي الرئيسي، فقدت الوعي قبل موتها لفظت جملة واحدة:الآن تسقط كيفاد للأبد.

الأيادي ملطخة بالدماء، والوجوه مذعورة، والنفوس مرهقة، إيفان أكثرهم إعياء، لقد انفجرت الكبسولات بجواره، ديرو كانت بعيدة حينما هبطت الكبسولات، الغريب كان غريبًا لا يعرف ما الذي عليه أن يشعر به، الكلمة التي قالتها تلك المرأة كانت غريبة عنه، من المفترض أنهم هم قلب كيفاد، هم الدماء الجديدة التي تعيد الحياة لكيفاد، كيف حين تموت تنطق بسقوطها وموتها، تلك إذن منشقة، لو كانت منشقة لماذا لم يقتلها سيد القلب!

لماذا لم يلقِ بها إلى الجحيم، لقد ماتت وماتت معها أسرارها.

وايلد يتحدث: ماذا سنفعل بجثتها؟

أجاب الغريب: من المفترض أنها كافرة بكيفاد سيأتي الجحيم ليأخذها ليلًا!

تدخل إيفان: أيها الغبي، أيًا كنت لا يوجد كيفاد، كيفاد سقطت وانتهت!

ديرو: من يدري؟

يسأل وايلد الغريب في لهجة تميل إلى خبث ممزوج بالحيلة: ما الذي يجب أن يحدث لها لو كانت كيفاد هنا؟

أجاب الغريب:الجحيم سيأتي ويأخذها في أي لحظة إنها كافرة بكيفاد وهذا ما يحدث للكفار بها!

هنا تدخلت صاحبة إيفان التي وجدها بجواره في كبسولة أيضًا تشبه الكبسولات المحطمة بجوارهم إلى حد كبير: نعم كلام هذا الرجل صحيح، الكفار مكانهم الجحيم!

قطب إيفان حاجبيه: لا يوجد كيفاد!

واصل وايلد الاستفهام: كيف يأتي الجحيم؟

الغريب: لا أعرف، كل ما كنا نعرفه أن خلية الإنسان كانت تنفتح ثم التقاطه بواسطه ملقاط الجحيم ثم نسمع صوته وهو يلقي في الجحيم.

وايلد: إذا أنت لم ترَ الجحيم!

الغريب: لم أرَ الجحيم!

وايلد: كيف تؤمن بم لم تراه؟!

الغريب: رأيت أثره.

وايلد: هل سبق ورأيت الجحيم، أو ملقاطه يجر موتى.

الغريب: لا لم يسبق، فقط الأحياء.

وايلد: إذا اسمح لي بأن أكفر بهرائك أنت وتلك الفتاة.

انتهى إيفان من متابعة الحوار برأي عرضه عليهم: أرى أن نترك تلك المرأة ميتة ونراقبها، يا هذا كم المدة التي بقيتم فيها منذ انطلاق الكبسولة حتى تلك اللحظة؟

الغريب: فقط خمس ساعات

ايفان: حسنا نتركها ليلةً كاملةً، إن جاء الجحيم فكيفاد موجودة، إن بقيت الجثة فإما أن ندفنها في شجرة ما، أو تأكلها طوافات الأرض!

تفرقا متعسكرين في التلال حولها، وايلد وديرو في ناحية، إيفان وحده في ناحية، الغريبة التي جاءت مع وايلد في اتجاه قربا منه، والغريب في اتجاه آخر قربا من ديرو، كأنهم متعسكرين أربعة وإيفان وحده بعيدًا عنهم، ينظر لتلك الفتاة بشفقة ممزوجة بالإكبار في نظره، كان سيتزوجها تلك الفتاة الملقاة جثة في دمائها كانت ستكون زوجته، يشيح ببصره ليجد تلك الغريبة التي جاء مع وايلد أخيه، تشبه القتيلة إلى حد كبير، لا إنها هي ولكن في نسخة حية، إيفان يعلم أنه لا يوجد كيفاد، ولكنه يختبر الحقيقة لكي تتحول إلى يقين!

مضت الليلة، حينما أشرقت الشمس ذهبوا إلى جوار الجثة، وجدوها كما هي، تشاورا في كيفية التخلص من تلك الجثة، سوالكوفا علمتهم أن الجثث تنتن ويكن لها رائحة كريهة، الغريب والغريبة لم يكونوا على علم بأضرار بقائها هكذا، إيفان سأل وايلد أن يقوم بدفنها في الثرى مثلما علمتهم سوالكوفا ولكن وايلد رفض، قال سندفنها داخل شجرة مثل كيفاد أختي، اختاروا شجرة عريض جذعها وحفروا فيه بأسنان وأنياب صنعوها واستحددوها من كل ما وجدوا، ووضعوا جثتها فيها ثم ردموها بلازب الطين وأغلقوا عليها بنثر الخشب حتى لم يظهر لها شعر ولا ظفر!

عادوا إلى حياتهم.

حياتهم هذه المرة مختلفة، لم يعودوا إخوة وحسب، بل هناك اثنين من الغرباء زادوا عليهم!

وايلد يقتنع تمام الاقتناع أن تلك المرأة التي هبطت عليه من السماء هي زوجته، الغريب لديه تمام اليقين أن ديرو زوجته، وإيفان وحده تمامًا وسط كل تلك الدروب المظلمة، لا يجد له أحد، ستمتلأ الدنيا عليه فراغًا فوق فراغه، يرفض أن يقترب الغريب من أخته، ويرفض تلك الغريبة التي جاءت مع أخيه، يعاملهم بمنتهى العنف، لقد كان يؤمن بالحرية ولكن تلك الحرية تسقط حينما تكون ثمارها التعدي عليه، هؤلاء الغرباء سيأخذون أهله منه ويتركونه وحده، ذات يوم استيقظوا لكي يجدوا الغريبين قد تركوهما ورحلوا، جن جنون ديرو وصمت وايلد معاتبين أخوهما، صرخت فيه ديرو: انظر ماذا فعلت، هل هربت من سوالكوفا لكي تكون نسخة منها؟

أجاب إيفان: مالي أنا بهما، كل شخص حر فيما يفعل!

عاتبه وايلد: كل شخص حر حينما لا يضر أخاه يا إيفان، أنت قدرك أن تموت رفيقتك، فلماذا تحرمنا من رفاقنا.

إيفان: من قال أن التي ماتت هي رفيقتي، لماذا لم تكن رفيقتك أنت، ثم إنهم معاتيه، إنهم يتحدثون عن أشياء لا وجود لها في هذا العالم أبدًا!

ديرو: أنت تعرف أن التي ماتت كانت رفيقتك، الكبسولات كان فيها توجيه للأشخاص أنت تعرفه جيدًا ثم ليكن إنهم معاتيه... ما لك أنت وذلك!

إيفان: أنتم إخوتي وأخاف عليكما من هؤلاء الغرباء!

وايلد: سوالكوفا أيضًا كانت تقول مثل هذا الكلام!

يتركهما إيفان ويمضي، يفتش في كل زاوية محيطة، تلك المتخلفة والمعتوه لا يمكن أن يكونا ابتعدا أكثر من اللازم، إنهم لا يعلمون شيء، غضب وايلد منه فتركه ولم يصحبه، ظل وايلد يفتش، لقد هرب سابقًا، ويعرف كيف الهروب، ولكنه هرب عاقلًا، هؤلاء أغبياء، لا يمكنك أن تلحق بغبي إلا إذا فكرت بنفس طريقته الغبية، هكذا كانت تخبره سوالكوفا دومًا، ولكن تلك الطريقة لم تفلح معها لأنه لم يكن غبيًا كما توقعته، في النهاية وجدهما كامنين في

أحد الكهوف، أجسادهما ترتعش والرعب يملأ عيناهما، فقيران من كل حيلة، لا يملكا من أمرهما شيئًا.

نظر إليهما إيفان في شفقة: لماذا الهرب يا رفاق؟

قالت الغريبة: الخوف خفنا أن تتشاجرا فنكون ضحية، أنتما شقيقان، وأنت أسأت لنا الكثير في الأيام الماضية، ليس أحدنا سبب فيما بينكم من خلاف!

نظر إيفان إلى نفسه قبل أن ينظر إليهما، رأي نفسه صورة من سوالكوفا، تذكر أيام الخوف، تذكر اليوم الذي جرحت فيه أخته، إن أكبر انتصار للظالم أن يحول المظلوم إلى صورة منه، حينها يتغير العالم، شعر بالخجل، أخذهما إيفان، عاد بهما إلى البيت، قام وايلد إلى فتاته وديرو إلى فتاها، العناق هو اللغة الصامتة لكل خصام في هذا العالم، ولكل وحشة، ولكل بؤس، العناق لغة المنكوبين والثكالى والهالكين في هذا العالم، العناق كان ومازال هو الطريقة الوحيدة للغفران دون كلمات، تعانق الجميع، وقرروا أن يصنعوا قريتهم.

تزوجت ديرو الغريب

وتزوج وايلد من الغريبة

إيفان قرر الرضا بمصيره وحيدًا، انتابته بعض الأوهام أن تكون هناك حرية في الجنس، لكن نفسه تقززت، بالرغم من تعاليم سوالكوفا، إلا أن فطرته كانت ترفض حتى التعري أمام أخوته، كان حريص دومًا على أن لا تمتد الحرية إلى أخطاء، يريد الحرية أن تكون في النفوس، وليست في الشهوات، اتفق الجميع أن يكون هو الزعيم، هو الرئيس الجديد لتلك القرية الصغيرة، بيتان فقط، ولكن أنهم يخططون لكي تكون أكثر من ذلك، لكي تكون عالم كبير.

صنع إيفان كتابًا، وضع فيه الكثير من المعايير الأخلاقية، لا تكذب على أخيك، ولا تقتله، ولا تأكل وحدك، ولا تأخذ طعام أخيك، ولا تدخل بيت أخيك وهو يصطاد، من يموت يدفن في الشجرة ويذهب كل ما يملك إلى

كل من في القرية، السلاح من أجل الصيد ومن أجل قتل سوالكوفا وأعوانها فقط، اصنع أشياء جميلة فقط لكي تبقى في هذا العالم!

لا توجد ثورة في هذه القرية، الجميع متساويين هنا، ليس في الموارد، وليس فيما ميز أحدهما عن الآخر، ولكن في القانون الذي يحكمهم، وفي إرضاء القانون الذي يحكمهم، هنا الهدوء والسلام والحرية في ظلال من الفطرة البشرية تعيش.

إنهم لم يعرفوا الدين بعد، ولكن الدين الوحيد الذي اعتنقوه حتى الآن أن يكون العالم بخير، الإله سيكون دومًا راض حينما لا يؤذي البشر بعضهم بعضًا دون وجه حق!

أصبحوا الآن وايلد وزوجته كيرا، هكذا سمت نفسها.

وديرو وزوجها برانكوفيتش، اختار اسمًا وجده على جدران البيت لأمير صربي في عصور ماقبل كيفاد!

والزعيم هو إيفان.

الزعيم كانت وصيته الدائمة أن ينجبوا الكثير من الأطفال، طاردته الوساوس ليل نهار، طاردته الأحلام أن يقتل أخيه، صوت مزعج يأتيه في نومه:

-وقد فعلها أخ لك من قبل... يتكرر الصوت بعمق في أحلامه لوجه سوالكوفا، وأحيانًا وجه لا يعرفه.

-وقد فعلها أخ لك من قبل في أخيه!

بصوت عملاق تتردد في روحه لكي يمتلئ العالم بها، بصوت يخرج من جسده قبل أن يخرج من أحلامه المزعجة، ولكنه يقاوم!

يشاهد أخيه تخالطه السعادة مع زوجته، لماذا أنا وحيد في هذا العالم؟

لماذا تموت زوجتي أنا؟!

لماذا التي ماتت يعتبرونها زوجتي ولا يعتبروها زوجة وايلد!

إنه غبي ولا يصلح لشيء.

أنا من وضعت القانون الخاص بقريتنا، وكل من في تلك القرية سيسير على نهجي، فلماذا من يسير على نهجي لا يكون من نسلي؟!

ألن تكون تلك الجميلة كيرا هي زوجتي؟!

*****

جمع مهند وطلال ما تبقى من الرجال والنساء المحررين من سجونهم، أفهموهم حقيقة أمر كيفاد، بعضهم لم يصدق، جادلوا ولكن لم يكن معهم أي حجة سوى تلك الحجة التي أضاعت الآلاف: هذا ما وجدنا عليه أبائنا وأجدادنا!

الكلمات تنساب من بين بنان رأسه إلى صلد ما وجدوا أنفسهم عليه، قلة منهم اتبعوه فور ما سمعوا، هؤلاء من شداة العقل، والآخرين من أتباع الهوى.

يقول قائلهم: لو اتبعتنا على ما نقول لاتبعناك وجعلناك علينا سيدًا، ولكن لا نتبعك على ما تقول حتى لو كنا عليك أسيادًا.

يجيبهم مهند: والسبب؟

يجيبوا: لا نريد أن يكون لنا في الجحيم بابًا.

يتابع طلال:

- لو بقيت لصرتم أنتم والجحيم سواء!

اتبع مهند وطلال القليل، لم يكن هناك في البداية ما يثير أحدهم ضد الآخر الكل يعبد ما يعبد ويعيش كما يعيش، حتى خرج أحدهم وصنع نفسه زعيمًا للفريق غير المتبع يطلق عليه رقم واحد ولم يكن الفريق غير المتبع يستخدم أسماء بعد، ظل كما هو يعيش نفس تلك المعيشة التي كانوا يعيشونها قبل التحرير من السجون، بل كانوا يدخلوا إلى السجن يوميًا يأدون نفس الصلوات.

لا يتحرر الإنسان بخروجه من السجن، إنما يتحرر بخروج السجن من روحه، بتلك الجملة كان يعلق طلال على إرهاصات هذا الفريق رقم واحد!

واحد لم يكن مجرد شخص عادي، كان لديه من المهارات القيادية المنغرسة في فطرته، كالزعامة التي حصل عليها نتيجة تقوية شوكة غير المتبعين أخذت عصا هواه وذهبت بها إلى حيث تريد النفس: السلطة!

قوم طلال ومهند أطلق عليهم الأغراب، وقوم واحد أطلقوا على أنفسهم أهل الجنة!

ظل طلال ومهند يعلمون قومهم ويدعون الآخرين، ضاق رقم واحد منهم، خصوصًا أن أعداد المتبعين لهم بدأت تتزايد، كان السيل في اتجاه واحد، ينجرف الفرد من أهل الجنة إلى الأغراب!

تزداد خشية واحد أن تضيع مهابته، هنا قرر القيام بالثورة ضد الأغراب الذين كانت لديهم مفاتيح الثروة كلها، هم من يملكون العلم، وهم من يحملون الطائرات، ويستطيعون صيانتها، ويستطيعون تشغيلها، لذلك هم الأسرع في إيجاد الغذاء والصيد، وهم الأقدر على الزراعة، وهم من يستطيعون حفر الأبار وإيجاد الأنهار، بالرغم من أنهم لا يمنعوا واحد وقومه من الغذاء أو كانوا يميزون أنفسهم بأي طريقة من الطرق عن واحد لكن واحد لم يكن يعجبه ذلك، عليه أن يستأصل شأفتهم في البداية قبل أن يتمكنوا منه، ويزول ملكه الذي ليس بمُلك!

بدأ يدبر للأمر، جمع نخبة قومه، وأخبرهم أن هؤلاء أتباع الشر، لا يمكن أن يعيشوا معنا، بل ويتحكموا في غذائنا ودوائنا!

يقول قائلهم:

-إننا نحتاجهم، إنهم خدم لنا يجلبون لنا الطعام والماء، بتلك الوسائل التي معنا ونحن أهل الجنة نعيش في الراحة، والرفاهية!

يرد زعيمهم:

-وماذا لو تمردوا علينا ذات يوم؟ ماذا لو قرروا ذات يوم أن يتوقفوا عن إطعامنا وإعطائنا الماء، إن مفاتيح كل مخازن الطعام وأدوات الطعام وطرق إيجاد الماء، بل ومخازن السلاح معهم، إننا حتى لا نعرف كيف نداوي الجراح!

أحدهم: لو ابتعدنا عنهم نموت، ولو أسقطناهم نسقط معهم، إنهم جزء منا!

الزعيم: أصحاب الجحيم لا يمكن أن يكونوا جزء منا أيها الأحمق، سنصليهم من جبروتنا، وسنريهم كيف هو وضعهم الحقيقي، إنهم خدم لنا!

أحدهم: كيف؟!

الزعيم: عددنا خمسة أضعاف عددهم، غدًا عند الفجر كل خمسة منا يجتمعوا على رجل منهم، ويقوموا بتقييده ووضعه في سجن من سجون كيفاد وحكام غلقه، وسيكون لي ولمجموعتي أمر الغريبين مهند وطلال، ثم نستولي على مفاتيح الطعام والشراب، نأكل ونشرب، ونتركهم بلا طعام ولا شراب، حتى إذا بلغ بهم الجوع والعطش مبلغه نخرجهم هزالى ضعاف، فنأمرهم أن يرشدونا إلى طرق الصيد وغيرها من الطرق، وما إن فعلوا حتى نستأثر بها، ثم نكرر الأمر حتى نتقنه، فإن فعلنا، قتلناهم واسترحنا منهم وقمنا بحاجتنا دونهم!

أُعجب الجميع بالفكرة، وأضات العقول من زهوها، نعتمد على أنفسنا، ونتخلص منهم!

نسوا أنهم بذلك أضافوا عبئًا على عبئهم!

في ليلة التنفيذ، كان مهند وطلال في عشاء سويًا، كل واحد منهما تزوج من أربعة، وصنعوا لهم ملكًا في وسط قبيلتهم الجديدة!

الأيام كانت مزدهرة ولكنهم كانوا يعلمون أن هناك خطران يحيطا بهما، الخطر الأول هو هؤلاء الذين لم يتبعوهم، إنهم لا يستطيعون إجبارهم على الدين، ولكنهم لا يستطيعون قتلهم أو التخلص منهم، إنهم لم يبدوا شرًا حتى الآن،

أما الخطر الثاني فكان يكمن أن سوالكوفا الآن معها رجال كثر وربما تستعد لغزوهم!

طلال يطمئن مهند دائمًا أن الأمور لا تسير هكذا فسوالكوفا لن تكون أعدادًا أكبر منهم، والذين معه من غير المتبعين لا يملكون من أمرهم شيئًا.

يجيب مهند:

-الجموع الغفيرة حمقاء يا صديقي!

طلال: الجموع التي لا تمتلك صنع دوائها وزرع طعامها لا تملك من أمرها شيئًا!

مهند: ماذا لو اجتمع الشران، جاءت سوالكوفا، واتفقوا معًا يا رفيق!

طلال: الذي أنقذنا من ظلمات البحر لا يفعل بنا هذا يا أخي، أحسن ظنك بربك.

مهند: لا تذهب إلى خيمتك الليلة، اقض معي الليلة واجمع أهلك لأهلي!

طلال: أفعل لأن هذا يطمئنك لا لشيء آخر يا أخي!

لم ينم طلال هذه الليلة، إنما استأثر بالخلود شاردًا في الليل، يتدبر خلق السموات، ورعب الظلمات، ليل الصحراء غير نهارها، شرد سيرًا إلى أن وصل إلى حدود الصحراء الموجودة خارج قريتهم، الصحراء لا تعرف الرحمة في ليلها، مع ذلك يرى السماء فيرى نجمها القطبي، مصباح خلقه الله للسائرين فيه، ينتبه إلى صوت الصراخ قادم من القرية، يهرول ولم يكن قد ابتعد كثيرًا، يشق الأنفس وقلبه ينخلع من مرقده، يجد قومهم ينكلون بقومه، يهرع إلى خيمة مهند، يجده يوقظ أهل بيته، يأخذهم ويهربوا بعيدًا، رآهم زعيم المتمردين، لم يأمر أحد من اللحاق بهم، لن يتمكنوا من فعل شيء، سيأتون رغما عنهم، إنهم هربوا بملابسهم وحسب، وليست حتى ملابس تقيهم برد الشتاء.

يبتعد طلال ومهند وأهليهم فترة غير قصيرة، يزمجر مهند: أخبرتك أنهم خطر!

طلال: نعم، كنت على حق، ما العمل الآن؟!

مهند: إذا لم تملك حلًا، انتظر وراقب الفرصة!

ذهبا بعيدًا، واستويا على تلة تطل على قريتهم، بزجاجات مياه ضائعة في الصحراء منذ العصور البائدة صنع طلال نظارة مكبرة بدائية، بدأ في الرقابة، هو وأهله في العراء، ليست تلك الكارثة، الكارثة أن كل ما يملكون من أدوات العيش هناك، قريتهم أشبه بواحة وسط الصحراء، لا يمكن الخروج منها فرادى، حينما دخلوها كان معهم من الحياة ما يكفيهم، هذه المرة ليس معهم من الحياة شيء سوى الرغبة فيها، تلك أول مرة يشعرون بقيمة المادة.

أثناء الرقابة سأل طلال مهند مرة: ماذا يفعلون؟

أجابه: يحاولون تعلم طريقة قيادة أنفسهم، الكارثة أنهم فقط يحاولوا تعلم طريقة التشغيل!

طلال: ولا يستطيعوا تعلم أكثر من ذلك، جزء من العلم مع صاحب علم يعتقد أنه يملك العلم الكامل بالشيء هو قنبلة ستنفجر في أي لحظة، سيهلكون أنفسهم!

مهند: ننتظر حتى يهلكوا ونستعيد قريتنا!

طلال: لن يكون هناك شيء نستعيده، علاوة على ذلك هناك فئة مؤمنة معهم!

مهند: ألديك خطة؟

طلال: نصطادهم.

مهند: كيف ذلك؟

طلال: نصنع خندقًا عميقًا، نغطيه بما استيسر لنا من حطب وشباك، نضع لهم طُعمًا، يهرعون له، يقعون في خندقنا، نأسرهم!

مهند: الأمر أعقد من ذلك كما أعتقد!

طلال: هو كذلك، ولكن تلك الخطوط العامة!

بدأ طلال ومهند في المسح الطبوغرافي للمكان، يريدون وجه الثورة، إذا أردت قمع التاريخ فعليك بقمع الأرض أولًا، إنهم يؤمنون أنهم يصنعوا التاريخ، إنهما منبت الحضارة، التاريخ القادم، يظنا أنهم يمكنهم إيقاف التاريخ، إنهما يعلما أخطاء الماضي، ويريدا منعها، ولكن لا أحد يستطيع منع الأيام أن تمضي.

في الليل يتحايلوا على ظلمات الليل بعلامات بسيطة يضيئوها في أخدود كبير يصنعوه، وفي النهار يختبئوا، التعب يغزوهم، والعرق يغرقهم، ولا يجدوا سبيل لغير ذلك الشقاء لإعادة بيتهم!

العراء اعتادا عليه، أما أهاليهم ومن لحق بهم فلم يكن يعرفون سوى البقاء صامتين دون فعل شيء، لم يكونوا بائسين بشقائهم بقدر ما كانوا يستمتعون أن الآن لهم هدف ما، وعقيدة ما، قالت إحداهن لطلال: نحن الآن امتلأنا بعد أن كنا فوارغ ممتلئين باللا شيء!

أعجب طلال بالجملة، فسجلها على صخرة بخط ديواني عربي أصيل، أخبره أنه سيترك للزمان اختبار صمود كلمتها على تلك الصخرة!

يذهبون للصيد، ويبعثون أحدهم لاستجلاب المياه من واحتهم!

أتموا صنع خندقهم في ثلاثين ليلة أو يزيد، ثم بدءوا في المرحلة الثانية من الخطة: الدفع بالعدو إلى المصيدة، يحتاجون لطعم، من الصعب أن تستخرج جبان لقتال، ومن الصعب أن تستدرج مغتصب خارج حدود حقل أمنه، هناك غريزتين يمكن من خلالهما صنع ذلك: الطمع أو الخوف!

في أحد النهارات، خرج طلال ومهند على نياق شاردة في صحرائهم استجلبوها ترويضًا حتى تكون نفعًا لهم، أمر طلال مهند بالبقاء مع قومه عند نقطة آمنة قريبة من الخندق، سيبدأ طلال بإخافتهم، صنع منجنيقًا صغيرًا يمكنه قذف كتلة نارية لمسافة تصل إلى مئتي متر أو يقل، اقترب بحذر، صنع نقطة محكمة وضع فيها منجنيقه وأدوات بدائية لإشعال النيران وقليل من

القذائف، على بعد من النقطة التي وضع فيها المنجنيق صنع حفرة صغيرة استحكم فيها، ووضع غذائه وما يحتاج من مستلزمات العيش، بالإضافة إلى منظار استخدم فيه زجاجات المياه وقليل من الأدوات البدائية، كان يراقب ما يصنعه واحد وقومه، أعاد واحد قومهم إلى السجون التي كانوا فيها من جديد، استولوا على مخازن الطعام، يحاولون قدر الإمكان تشغيل الآلات التي صنعها طلال ومهند، لكن لا فائدة، ولكن مخازن الطعام تكفيهم لمدة ثلاثة أشهر، سيسببون كارثة لأن تلك المخازن تمثل الوقود إن حدثت أزمة، أو قلت المياه!

في إحدى الليالي قام طلال بإلقاء أحد القذائف من منجنيقه، سقطت القذيفة لتضيء السماء على أحد الأكواخ التي لم يكن يقطنها أحد، ولكن الكوخ اشتعل، استيقظ القوم صارخين هربًا من النار، أطلق طلال قذيفة أخرى، يريدهم أن يروا السماء مشتعلة بالنيران، قال قائلهم السماء تمطر نارًا، سيطروا على الحرائق وأطفئوها، ما إن ركنوا إلى مخادعهم حتى أطلق طلال قذيفة أخرى، حاول طلال أن تكون القذيفة هذه المرة على أحد مخازن الطعام، سقطت بالفعل على مخزن للقمح، ولكنها لم تدمره، كانوا أكثر استعدادًا هذه المرة لإيقاف تأثير القذائف، قال أحدهم: هذا الطعام لم يكن من صنعنا لذلك غضب الإله علينا!

سخطه واحد قائلًا:

- ربما تؤمن بإله الغريبين، ثم أمر جنوده بإلقاءه في السجن مع قوم طلال!

لم يكن لـواحد حيلة في الأمر سوى أن يستطلعه، خرج مع فرقة صغيرة من قومه يستطلعون الأمر، لاح المنجنيق لهم في الأفق، لم يكن يعرفونه، ثم ظهر لهم طلال، ما إن بدا لهم طلال، حتى فرَّ طلال مترجلًا في جنح الظلمات إلى النقطة الثانية، وكمن هناك، خاف واحد من ملاحقته، فقرر البقاء محاصرًا بالنقطة التي فيها المنجنيق دون أن يتوجه إليه!

عند بزوغ الفجر هجم واحد على النقطة ليجد المنجنيق وقد أشعلت فيه النار، فقط أثار تلك النقطة كلها متفحة، هتف في سره: يا للشيطان، ابن الجحيم هذا يهاجمنا!

عاد واحد إلى قومه وجمع الناس، خطب فيهم أنه سيصنع من طلال هذا حريقًا لمدة ثلاثة أيام، أمر بجلب مجموعة من متابعيه، وربطهم في جذوع الشجر للنقطة التي كان يرمي منها القرية، لم يكن يعلم طلال رد فعله هذا، لقد غادر تلك النقطة، إلى جهة أخرى وصنع مثل فعلته الأولى، نقطتين واحدة للرماية، والأخرى للكمين ومنجنيق آخر، في الليلة التالية بدأ الرمي، مثل الليلة الأولى تمامًا ولكن هذه المرة الاتجاه مختلف للرمي، كاد الجنون يضرب واحد، لماذا لا يخرج في مطاردته هؤلاء الجبناء، هرول إليهم، لم يرَ من ناحيتهم شيء، هذه المرة القذف استمر طوال الليل، أكثر من خمس عشرة قذيفة طوال الليل، آخر واحدة لم تكن قذيفة، كان صوت طلال على ناقته يشق عباب السماء ليصل إلى أذانهم، أن وقت التحذير قد انتهى وإن لم يسلموا فسيبدأ في قصف مناطق أكواخهم بدلًا من قصف مخازن الطعام ومراعي الحيوان!

الليل يخفيه عن الأنظار، وقوم واحد بطيئين في صنع النار، لا يكشفوه وهو لا يكشف نفسه، يتحرك كشبح غير مرئي لهم، يغير من اتجاهه كل ليلة، يخرج واحد في طلبه فلا يجد أكثر من نقاط استحكامه، لا يجرؤ على الخروج للصحراء المكشوفة، لم تفلح حيلة الرهائن لأن طلال تجاهلها، أعتقد أن طلال لا يعنيه أمر قومه، كأن لسان حاله يقول، إنهم منك قبل أن يكونوا مني، فأرجعهم السجن بعد أكثر من ليلتين قضوهم مربوطين في العراء!

خرج واحد لطلال في الليلة الرابعة صارخًا له، كاشفًا عن نفسه: أربك يأمرك أن تهلك الناس حرقًا؟

ناداه طلال:

- أعرفت ربي حتى تسأل عم أمرني به يوم أن استحللت سجن قومي؟

واحد : قومك الذين لم يهمك أن يموتوا جوعًا.

طلال: شجاع وصاحب مروءة، تقتل رجال يقولون ربي الله، كانوا قومك قبل أن يكونوا قومي، قبل أن نخرجكم من ظلمات السجون التي عشتم فيها!

واحد : يا طلال، أقسم لك بكيفاد، إن لم تنته، وتأتي رغم أنفك، سأخرج بكل قومي في طلبك، ولا يمنعني عنك أحد، حتى الصحراء لا تمنعني عنك!

طلال: أنت جبان لا تقدر على الخروج متر واحد خارج نطاق أمنك!

واحد : الصحراء مكشوفة لا تستطيع الاختباء فيها يا طلال، فلا تراهن على ذلك كثيرًا!

طلال: أراهن على جبنك، لا على الصحراء.

طلال يستفز مروءته، يعرف أنه إن تركه لنفسه فسيبتكر ما يغنيه عن مطاردته، في صباح اليوم التالي كان واحد قد جمع قومه على الخيول والرواحل، حمل معه الماء، وخرج في حملة لمطاردة طلال، أشار عليه أحد قومه بترك ولو قلة خلفه، ولكنه كان يريد استعراضًا للقوة، ترك النساء وحسب، بمجرد خروجه كان مهند قد التف إلى السجن وأخرج كل من فيه، لم يواجه إلا امرأتين تغلب عليهما بسهولة وقيدهما، أخرج الجميع وأخذهم هربا من جنوب قريتهم، ظهر طلال لهم بالقرب من الخندق، ثم ولى هاربًا منهم، انطلقوا حوله، واطلقوا السهام، لم يكن لديهم بارود، لم يصب طلال، واصلوا الهرب حوله، مروا بالخندق، وقع أول صفين من ثلاث صفوف داخل الخندق، التفوا وارتبكت صفوفهم، أشعل طلال النيران في حطب صنع على شكل دائرة، لم يستطيعوا الكر من أمام الخندق، حوصروا بين الخندق والنيران، حاول أحدهم القفز بخيله من فوق لسان النيران، اصطاد خيله طلال بسهم لم يفلت صدر منها، فسقط في داخل النيران، ولكن سقوطه أطفأ شيئًا من النار، ممر صغير أوحى لـواحد بمحاولة إطفاء النيران، ما إن اقتربوا من ألسنة اللهب، حتى وجدوا ست قذائف تسقط بجوارهم وصوت مهند

ينادي في الأفق: من لا ينزل في الخندق طواعية سنقذفه فيه مشتعلًا بالنيران، اتركوا الخيل والرحال، وانزلوا!

نزلوا جميعًا الواحد تلو الآخر، من ينزل يلقي بنفسه لا يستطيع الصعود ثانية، بدأ طلال ومهند ومن معهم في تمشيط المنطقة، حراسة بالقوس والسهم وقفت على حواف الخندق تمنع من يخرج بخطر الموت، تأكدوا أنه لم يعد هناك أحد آخر يمينًا أو يسارًا في القرية، هذا الغبي ليس لديه من فنون القتال شيء، أن تكون زعيمًا لثورة يعني أن تمتلك من أدوات القوة ما يمكنك من تنفيذ ما تريد، أما أن تثور وحدك، دون أيدلوجية، دون شوكة تنتصر بها على من تراه طاغية هو مجرد إراقة للدماء ليس أكثر، ليست عصبية الناس لك هي كل مؤهلات الثورة!

بدأ طلال ومهند وقومهم المحررين في إخراجهم من الخندق، رجلًا رجلًا، ومن يخرجونه يقيدونه، في صف طويل من القيد عادوا إلى قريتهم، العطش والجوع يكاد يهلكهم، أمر طلال بسقايتهم ومشربهم، رفض واحد الشرب، عقب أفضل الموت على العودة لحكمكم!

ابتسم طلال مقتربًا منه:

- يا أخ الإنسانية، لماذا تموت هباء؟ غرضكم لو طلبتموه قبل أن تطردونا لأجبناكم إليه، العلم ليس حكرًا على أحد، تريدون أن تتعلموا فنون الصيد والعلوم ويكون لكم مخازنكم وأرضكم، نفعل لسنا عليكم بمسيطرين، إنما علينا تبليغكم ودعوتكم لهذا الدين.

واحد : ألن تقتلوننا؟!

طلال: نقتلكم!

واحد : نعم لقد عصينا الأوامر هذه قوانين الأرض!

طلال: لا نقتلكم، معصيتكم كانت عن جهل، ولا نحسبها أنها كانت على شر بنا، فقط نؤتيكم ما رغبتم به، يجب أن تظل هذه القرية موحدة، إن شئتم أمنتم، وإن شئتم كفرتم!

واحد : والثأر؟!

طلال: العفو هو زكاة النصر في هذا الدين يا رفيق!

واحد : ما أفعل لكي أؤمن بهذا الدين.

طلال: الشهادة...

واحد : أشهد أن لـــ... انتظر قليلًا، وما فعلت بكم ليس عليه جزاء بعد إسلامي.

ابتسم طلال: أكمل شهادتك يا أخي، فإن الإسلام يمح ما قبله!

واحد : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله

دخل الجميع بعده معتنقين دين الله إلا واحدًا أخرج خنجره وكاد يقتل نفسه، فلاحظه مهند وأسرع إليه ومنعه من ذلك، سأله مهند عن سبب ما يفعل، أجابه: كيف يمكن للمرء أن يقتنع أن كل ما فات من عمره كان على ضلال، ما أدراني إن كنتم على حق؟ أأتبعكم فقط لأن هذا تتبعكم؟

مهند: فليكن لا تتبع، ولكن لا تقتل نفسك!

المنتحر: وماذا عساي أن أفعل وأنا على غير شريعة كل القرية؟

مهند: تبقى تعيش آمنًا.

المنتحر: دينكم يحرم عليّ زوجتي.

مهند: وهل كان لك زوجة قبل تحريرك، احفظ نفسك، عش آمنًا وابق مدافعًا عما تؤمن به، ولو كنت وحدك!

المنتحر: تأمرني بحربك؟!

مهند: لا، الدفاع عن ما تؤمن به لا يبدأ بالحرب أبدًا، وإنما يبدأ أن تقتنع بما تؤمن به أبدأ بنفسك، ثم تبدأ في إقناع الآخرين به!

المنتحر: أطلق سراحي إذن.

مهند: ولا تقتل أحدًا ولا تقتل نفسك؟

المنتحر: أريد كوخا فقط على أطراف القرية.

مهند: لك ما طلبت!

طلال ومهند أثقلهما الحمل، ليالٍ طويلة تنتظرهما، وأيام لا يعرفون سبيل لمواجهة دوائرها سوى أن يصبروا ويعدوا العدة، يعرفون أن سوالكوفا ستأتي لهم، وربما لأبنائهم من بعدهم، يعرفون أن هذا الذي يعيش على أطراف القرية خطر عليهما، يعرفون أنهم الآن يصنعون دولة، هم آخر ما تبقى على الأرض من مسلمين، ومن نبتتهم تنبت أرض أخرى، أسسوا معيارًا لمواجهة التمرد الذي حدث عليهم، تنبهوا إلى أنهم من الممكن أن يتحول العادل إلى الطاغية الذي هرب منه ذات يوم دون أن يدرى، البشر جميعًا ينظروا إلى آخر مدى بصرهم ينتظرون أن تأتيهم الفتنة في نفوسهم من كل بعيد، وهي قابعة بين أقدامهم يكادون يزلوا فيها بخطوة خاطئة واحدة، ربما دون أن يدروا، ولكن ستر الله جميل، ليس أجمل من جميل ستره وفضائل نعمه ، سبحانه تقدست أسماؤه وحده.

*****

يصل والتر مع رفيقتيه، يقول لهما: إن صحت حسابات الفلك نكون على بعد شهر من الزمان لوقت شهر ذي الحجة!

بتول: كيف تعرف الوقت؟

والتر: فقط الأقمار الصناعية التي كانت تعمل حيث وصلت لديها خريطة بالتفاصيل الكاملة لجميع التقويمات المعروفة، تعمل على حواسيب ذاتية

الحسابات، كيفاد لم تستطع أن تتخلص كليًّا من التاريخ الإنساني، كان لديها هاجس دومًا أنهم ربما يحتاجون لذلك!

بتول: قد تكون تلك الأشياء تخربت!

والتر: تقويم الهجرة يعتمد بطريقة أساسية على حركة القمر وشكله، دومًا في منتصف الشهر يظهر القمر كاملًا، فلو كان هناك خطأ في التقويم فلن يتوافق شكل القمر مع تاريخ الشهر.

بتول: لذلك تحمل هذه الأسطوانة وتطيل النظر إلى السماء كل ليلة.

والتر: نعم ولذلك نتحرك في الليل أحيانًا، حينما لا أستطيع الرؤية جيدًا لغير مكاني، إننا نعتمد على الرؤية منذ أن ابتعدنا!

مودة: حسنًا، هذا يعني أننا نقيم فى تلك الصحراء القاحلة ما يزيد عن الشهر!

والتر: يمكننا الدخول وتكون إقامتنا مكة ويكون ميقاتنا مكة، ولكني أحب أن أذهب إلى الجحفة حيث ميقات أهل الشام ومن قدم من الشمال، لا أريد أن أدخل مكة إلا حاجًا.

مودة: هذه صحراء، هل تفهم؟!

والتر: هذه كانت تسمى المنطقة الخضراء، تلك المنطقة لم تزِل مَعْلَم واحد من معالمها، لقد حافظ عليها المسلمون بكل ما امتلكوا من قوة في العصور الفانية، حينما ستدخل الجحفة، ستعرفين!

مودة تحترق غيظًا، نترك ملاذًا آمنًا، مزود بكل التطبيقات التي قدمت من كيفاد، لكي نعسكر في صحراء قاحلة، ما الذي يمكن أن نجده في الجحفة، لو وجدنا عين مياه سنكون أكثر أهل كل الأزمنة حظًا.

على مداخل الجحفة وجدوا لافتة كتب عليها أهلًا بكم في عين الشمال!

احترقت مودة حينما قرأ لها والتر اللافتة، قالت وهي تكاد تقتل والتر: عين الشمال! هل ضللت الطريق أيضًا، قلت إننا ذاهبون إلى الجهفة!

والتر: اسمها الجحفة، ثانيًا أسماء المدن تتغير، كان اسمها أولًا الجحفة ثم صارت رابغ، ثم أصبحت عين الشمال في عصر كيفاد، مكة نفسها ومحيطها اسمها المنطقة الخضراء، تلك المنطقة التي امتلأت بأكبر اقتصادي العالم لبناء سفن كيفاد، كل أموال سفن كيفاد جاءت من هنا، لم يكن الوقود النووي قد وصل إلى تقنية التشغيل من طاقة حركة الأجساد بعد، فكان يستخرج من جزيرة العرب الوقود اللازم لتشغيل الحياة، كانت منطقة استثمار خدمي رائعة، على ساحل تلك الجزيرة الشرقي لو مازال موجودًا ولم يغرق كان هناك أكبر مبنى في العالم!

مودة: كل ما أتمناه أن تكون محقًا، وألا يكون هذا كله خيال، أنت لم ترَ حرفًا مما تقول، فقط قرأت عنه وسمعت عنه في كتب أرشيفية لم تتأكد حتى من صدق انتسابها لكيفاد!

تتدخل بتول:

- بدأت أميل لرأي مودة أكثر!

والتر: من تحب منكما أن تعود سأعيدها إلى حيث تريد ثم أعود وحدي!

رقت مودة لكلامه، هي تحبه، قلبها يميل إليه، الحب يجعلك تفعل كل ما لا تريد، لا تعرف ما يسمى ما تشعر به، ولكنها ألانت له في الحديث من بعد غلظة، أمسكت بيده وحسب، كل ما فعلته أن أمسكت بيده ونظرت له أنا أتمنى أن لا تخذلني!

بتول قتلها أن تقترب منه، هي لا تعرف لماذا تشعر بالغيظ كلما اقتربت منه مودة، ولكن ما الفائدة؟!

شعَر والتر أنه يريد أن يجاري مودة في مشاعرها، عليه أن يتزوج الاثنتين، المنطق يقول هكذا، أخبرهما ففرحتا، رضيت كل منهما أن تتساوى مع الأخرى في قلبه، بتول تعلم أن قلبه يميل إلى مودة... فالغيرة تقتلها!

دخلوا عين الشمال، كانت أشبه بعش كبير لعنكبوت لم يهدم منزله منذ ألف عام، بيوت صغيرة بدائية متناثرة، ومحلات لطعام قد فسدت منذ ألف عام على الأقل، هياكل عظمية ملقاة داخل مسجد، ومشفى قد خرب عن آخره، وخزانات للمياه نمت الطحالب فيها حتى تحولت إلى برك من الحديد الذي سقطت جلفنته ولم تعد تقاوم الصدأ أكثر من ذلك.

نطقت بتول وهي تشهق رعبًا: هذه مدينة ماتت منذ ألف عام!

مودة: المياه، حيث نجد المياه نعلم إن كانت ماتت أم ما زالت الدماء تجري فيها، في سجننا قالوا لنا متى جفت المياه من الصنابير فالموت قد جاء!

والتر: مودة على حق، حيث نجد المياه نجد الحياة!

فتشا في المدينة باحثين عن الماء العذب فلم يجدوا، المدينة على سيف البحر، والتر يعرف كيف يقوم بتقطير مياه البحر إلى ماء عذب، ولكنه يريد أن يظل يبحث أولًا!

في الليلة الأولى جاءه الطير ليدله على الماء، تذكر قصة نوح عليه السلام، فكان الطير عنوان سفينته لمعرفة أن اليابسة قد جاءت بعد الطوفان، والطير إن وجده أخبره أين الحياة، أين يمكن أن يعود، تقلب وجهه في السماء باحثًا عن ما يمكن أن يجد من طير، مرت ليلتين ولم يجد، مودة وبتول تنظران إليه كأنه قد فقد عقله، تخفيان الهوى ومدامعها تبديه، لا هما تقدران على تركه، ولا تقدران على البقاء معه!

في الليلة الثالثة أتاهم من أوابد الصحراء قطيع ذئاب، ذئاب تعوي وقد نحفت ما بين قدميها من شدة الجوع، لعابها سيقضم قبل أن تقضم أسنانها، وقفوا أمامهم، لا الهروب يغنيهم، ولا البقاء يعفيهم، ولا التقدم ينجيهم، وما يزيد عنهم شيء.

تماسك والتر بنزع الرجال للقوة أمامهم، بتول التي كانت تفكر في قتل مودة بسبب الغيرة، اختبأت خلفها، أحاطتها مودة بذراعيها، وأحنت جسدها عليها، تذكرت بتول تلك اللحظات التي طالما كانوا فيها سويًا، كيف تفكر في

الحقد على أختها وقد قضوا مع بعضهما كل الصعاب، تخبرنا الحياة بصغر كل ما تعلقنا به حينما توشك على الانتهاء، نعلم القيمة الحقيقية للأشياء وقتها فقط، لو أدركنا قيمة كل شيء من البداية ما أكلنا من الشجرة، جميعنا أكل من الشجرة، وجميعنا جئنا إلى هنا لنعلم الحجم الحقيقي لتلك الثمرة!

والتر وجد جذعًا مدببًا، فأمسكه بقوة عضلات رجل تجاوز كل تلك الدروب ألقاه فيمن يبدو له أنه زعيم القطيع، نشب في بطنه فسقط صريعًا على الأرض يثعب دماء لم يلتفت إليه من رفاقه الذئاب أحد، إنهم يريدون الغنيمة، أفلتت مودة بتول ونزعت عنها ردائها لفته حول يدها وأمسكت بنبتة صبار قد بلغت من الكبر ما بلغت حتى اشتد شوكها وغلظ لحائها، خلعت تلك الصبارة فأصبحت كالسيف في يدها، اتبعتها بتول بفعل مثلها ولكن جعلت ردائها في قطعتين حتى أصبحا سيفين في يدها من تلك الشوكية الباكية على أغصانها يمينًا ويسارًا، والتر أمسك بجذع آخر يضرب به، الضربات المتلاحقة أسقطت ذئبين صرعى ففر الباقون، اتبعهم والتر فزعتا عليه مودة وبتول دون فائدة، هو يعرف أن الذئاب وراءها الماء، بعد فترة من الفرار استقرت الذئاب راقبهم، وجدهم يرون عطشهم من بئر لم يجف ماءه، وجد مصدر المياه، ما كاد يقتله أصبح يدله على مصدر الحياة في تلك المدينة، عاد إلى بتول ومودة وأخذهما حيث البئر، استمرت أعمال تنظيف البئر أكثر من يوم وليلة، بنى كوخ صغير بجوار البئر وصنع العديد من الأقواس والسهام، هامَ في المدينة يبحث عن الصيد، يصنع منه اللحم ثم يقدده ثم يجففه ليكون صالحًا للتخزين، يتعلم البشر أن يتكيفوا مع الطبيعة، حينما اقترب موعد الحج، قرر أن يقوم بتجهيز ملابس إحرام لنفسه، تبعته بتول في ذلك، أمرها ألا تفعل فصمتت ولزمت الصمت، لم تبكِ كل البكاء الذي أرادت أن تبكيه، تركته وغادرت، علمت أنه يريد أن تبقى مع مودة، ولن يأخذها معه، لو كانت مودة هي من أسلمت، وهي من يحق لها دخول مكة لأخذها، هكذا حدثت نفسها، عادت إلى سيرتها الأولى من الغيرة، ينسى

الإنسان كما لو كان خُلق من النسيان لا من الطين، كانت منذ أيام تحتمي بها كأنها نفسها والآن يمتلك قلبها غيرة منها!

تحترق بتول والغيرة في غير محلها، وزيادة عن حدها، هي حماقة لا مفر منها، وليس لها من أمر، يراها والتر فيحمد الله ويسترجع، ويدعو لها بالهداية، حاول ذات مرة أن يفاتحها في الأمر فثارت عليه بمكنونات سرائرها قائلة: لو كانت مودة هي التي على الإسلام كنت ستتركها معي؟ هل دينك يأمرك بأن تتركنا في العراء من أجل رحلة لبيت من الحجارة؟ أليس دفع الضرر مقدم على جلب المنفعة في هذا الدين؟ فكيف تترك امرأتان في العراء لكي تذهب للحج؟

والتر: أترككما معًا خير من أن أترك واحدة، لا يحق لغير المسلمين دخول مكة!

بتول: لا يحق لغير المسلمين دخول جزيرة العرب كلها، أين هي جزيرة العرب، هل تعرف العالم كله تغير، الأرض لم تعد أرضًا وغرقت، والبحار لم تعد بحارًا وظهرت فيها من اليابسة ما ظهرت، المياه أصبحت آمنة، والأرض غير آمنة، كيف تتركنا في العراء!

والتر: أريد أن أكون مثل إبراهيم، أريد أن أكون وحدي، التجليات تظهر لي وحدي بعيدًا عن ما طاب لي من الحياة.

مودة: خذنا واتركنا في بيت الله الحرام، واذهب حيث شئت، نأوي إلى ما نأوي وندبر أمر أنفسنا، لا عليك بنا، ولكن القرب خير من البعد يا رفيق!

والتر: بتول لا يحق لها دخول البيت. هذا دين!

مودة: نكون في مكان آخر، ليس أكثر من شعاب مكة!

دخلت عليهما بتول في وسط الحوار بعد أن كانت أنصتت غير مهتمة في البداية، ثم تابعت حديث مودة: أبقى أنا حيث مكاني، وتذهبان أنتما، ذاك هو الصحيح!

سخرت مودة:

-ما كل هذه الملائكية، إني لا أستبعد أن يكون الأمر من تدبيرك وإيعازك في البداية!

نظرت لها بتول في غير رضا، بتول تعلم أنها تغار، ولكن ليس لها من أمر قلبها شيء، ولا من أمر قلب والتر شيء، هاتفتها: في يوما ما غير بعيد عن هذا اليوم، كان لا يوجد بيننا كلمات مثل تلك، كان مجرد الحديث كلانا للآخر هو هدف لو كنت تذكرين، لا تأتي اليوم وتتحدثين إلي كأني ملكة الشر في هذا العالم!

استحت مودة من حديث أختها، هما أختان حتى لو كانت الدماء غير الدماء!

قاطعهما والتر، سآخذكما معي للضرورة أحكام، وسأعلمك أحكام الحج وأركانه يا بتول، وتأويان إلى ركن بعيد، وإن شئتي أن تحجي يا مودة يكون وحدك، لا تخاطبيني كأنك لا تعرفيني، المسافة بين المناسك كلها لا تتجاوز العشرين كيلو متر!

مودة: وتخالف أمر ربك في عدم جواز دخول غير المسلمين مكة!

والتر: للضرورة أحكام، هذا الدين يجيز حتى أن تسرق لو اضطررت، ولكن لا تعتدي يا بتول، فلا تمارسي أي شعيرة وثنية داخل مكة!

بتول: أنا لا أؤمن بشيء، باستثناء أنّ قلبي يميل إلى هذا الدين!

بعد أيام حينما حان توقيت الحج دخلوا مكة، ساروا في الليل، والتر سمى نفسه إبراهيم وأمر بتول ومودة أن يناديا بالإسم الجديد، يصير هذا الحج ولادة جديدة، الحج لم يكن يومًا نزهة في آخر العمر يكفر بها المرء عن ما سبق من سيئاته، بالرغم من أن هذا مهم، الحج في عرف المسلمين هو رحلة يتخلص المرء فيها من أدران حياته ليبدأ حياة جديدة، ولكنه في الحقيقة هو ولادة جديدة للناس، طريقة يمكن أن يتحول فيها المرء من ذات إلى ذات، من شخص كان عليه لشخص يحب أن يكون عليه.

المناسك كلها ليست مجرد حركات وأفعال تؤدي بها الشعيرة بقدر ما هي استحضار لذات هي أصلك وتاهت منك وسط ظلمات لا تُرى!

نبي الله ابراهيم عليه السلام حينما جاء إلى هنا كانت البداية، بداية لأمة لم يكن مقدرًا لها لو استمسكت بشرعها أن يحدث ما حدث لها على مر التاريخ، كان والتر إبراهيم حاليًا هو الأمة كلها، هو كل ماتبقى من الإسلام على وجه هذا الأرض، أو على الأقل هو يعلم ذلك!

وجدوا مكة مثل صورها في المراجع تمامًا، قبل أن يرى صورة الكعبة كانت قد حلت في روحه قبل أن تحل في عينه، شعور ما بالرهبة يضرب قلبه، رهبة بها شيء من السكينة، عظمة ما يشعر بها ولا يعلم سببها، يظن أن وساوس قلبه قد ملأت عليه حياته، يظن أنه قد أصبح بشكل ما غير واعي، أو انفصل عن واقعه بصورة ما، إنه هنا لكي يطمئن قلبه، يقول لنفسه ذلك، حينما وقعت عينه على البيت أول مرة، دعى ربه: أسألك أن يطمئن قلبي!

ترك بتول ومودة، في واد غير ذي زرع ولا ماء، ولكنهم يعلمون طريقًا للماء في آخره، بدأ بالطواف يتأبط إزاره وإحرامه ويطوف وحده في وسط العالم، وحده يلبي: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لبيك!

تقع كلمة لا شريك عميقًا في قلبه تكاد تخطف قلبه من إثر وقعها، يشعر أن العالم يردد معه، ليس وحده هنا، هناك آخرون يعلو بصوته أكثر، فتسقط في قلبه أكثر، كل علو بعده سقوط، وكلما كان الارتفاع أكثر كان السقوط مدويًا أكثر، فيلبي أعلى سبعة أشواط كاملة وضع فيها الكعبة على يساره والعالم كله إلى يمينه، لا يعلم ما الحكمة من ذلك، ولكنه يشعر أنه يرتكز على الكعبة بيده اليسرى ويلملم العالم بيده اليمنى، يجد الحجر فيضع وجهه فيه ويلبي، وتسيل دموع لا يعرف لها مصدر، يغرق بدموع تحبس الكلمات من صوته، يزيح التراب عن الحجر فيظهر أكثر، يغيب ويغيب أكثر، روحه تتصعد في السماء مع ذلك لا يشعر بضيق، يواصل الطواف، ويعود للحجر حتى سبعة أشواط، سبعة مرات من تدبير الذات بلحاف اليقين!

الله أحد يقولها عالية في السماء، الرسول حق يقولها عالية مرة أخرى، الدين حق مرة أخرى، لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك...

يشعر إبراهيم أنه قد أنهك، التعب يضرب أقدامه من السير، سار مسافات أطول بكثير، ولكن هذه المرة كان وزنه يزداد في كل شوط يقطعه، روحه تثقل بما تؤتى من فيض علم، وقلبه يخشع بما يؤتى من فيض حكمة، إلى مقام إبراهيم يذهب، بسورتين هما الحد الفاصل بينه وبين كل الكفر الذي عاشه في حياته يصلي، الإخلاص بيان من الذات واعلان بوحدانية الواحد الأحد، ليس عجيب أنها سميت بسورة الإخلاص، هي خلاص القلب وبداية إعلانه ذلك، والكافرون: قل يا أيها الكافرون، يبدأ بمخاطبة الكافرون، لا يدرى أين هم، ولا يعرف لماذا يقولها الآن، لا كفر يعرفه في هذا العالم ولا أحد يسمعه، ولكنه بصورة ما شعر أنه يخاطب أحد أهم الكافرين في حياته كله، كان يخاطب الكافر الذي كان عليه، جميعنا لدينا كفر في ذاتنا، نخاطبه من حين لآخر، هذه السورة تخلصنا منه، النفس الكافرة التي تعبد الدنيا فالدرهم، والدينار، والمال، والولد، والنفس، والزينة، ولمعة الذهب، وبريق الفضة، وشهوة الأشياء، كل هؤلاء الكفار الذين يتزعمهم الهوى، كلهم كان يخاطبهم في تلك السورة، كلهم كانوا الكافرين، وكان قلبه هو المؤمن الوحيد، قلب لم يتبع هواه، هو مؤمن في وسط دولة من الكفار يتصارعون داخل جسد واحد، ينتهي فتذرف دموعه ثانية، مقام إبراهيم أمامه، هنا النبي الذي كان يريد أن يطمئن قلبه، هنا النبي الذي تسمى باسمه، المسجد حوله من جدران ومعمار تهدم كثيرًا، وأصابه ما أصابه من فعل الزمان، الكعبة باقية في الوسط لم يصبها شيء، ملوك وأمراء وحكام، نقشوا أسمائهم على بوابات هذا المسجد، أين هم الآن، أين الملوك الذين افتخروا بنقش الأسماء والصفات، وسموا البوابات بأسمائهم، ملوك أخرى ربما من نسلهم ونزعوا أسمائهم، ثم نزعها الزمان عنهم جميعًا، باب الكعبة كان من الذهب الخاص، خُلِع من مكانه وسرقه السارقين حينما حلت الفوضى العارمة، والكسوة التي

كان من الممكن أن تشبع مئة ألف جائع وتكسي مائة ألف آخرين، أين هي الآن؟!

الكعبة الآن كما صنعها أبرإهيم، الكعبة التي أرادها الله لنا، وليس ما صنعت أيدي الحكام والملوك، لله الملك وحده.

بعد سنة الطواف بدأ السعي، سبعة أشواط أخرى بين جبلي الصفا والمروة، يستدل بصعوبة على أماكن الجبلين، لكن السعي هنا كان لديه معنى آخر، السعي هنا كان يعني أن الباب لا يفتح من الطرقة الأولى، حينما سعت أم إسماعيل عليه السلام هنا، كان من الممكن أن تتفجر البئر من الشوط الأول، ولكن كان يجب أن يكونوا سبعًا، يجب أن يتعلم العبد أن الأمور ليست من الدعاء الأول في كل الأحوال، التأخير هنا كان يجب، لأن هناك أمة من بعد ذلك ستتبع، على هذه الأمة أن تتعلم، إنه هو آخر هذه الأمة، والطفل إسماعيل كان بدايتها. عند واد غير ذي زرع.

أنهى الطواف فتحول إلى منى يقضي ليليتي السابع والثامن من ذي الحجة، وحده يسير، وتراقبه بتول، تفعل ما يفعل، بعدما ينتهي من فعله.

في منى كان معنى الأمة حاضرًا، كان الناس يأتون من الشرق والغرب، من كل أنحاء العالم، ترك وعرب وفرس، بيض وحمر وسود، أشداء وضعفاء، كانوا يأتون هنا لكى تكون المنى مستقر لهم، على الأمة أن تتجمع، الحج كان للأمة لقاء.

في التاسع من ذي الحجة بدأ التحرك إلى عرفات، من الفجر إلى غروب الشمس يبقى هناك، ذهب ووجد بقايا المخيمات المتعددة الأدوار التي كانت قد صنعت، الحج كان للأغنياء فقط في الأيام الأخيرة ما قبل كيفاد، كانت رحلة الحج الواحدة تتكلف ثروة لا يقدر عليه إلا مليومليارديرز، رجل يمتلك فوق المليون مليار من العملات الإلكترونية التي سيطرت على العالم، الخيام كانت أشبه بسفن كيفاد، كان يريد أن يحطمها إبراهيم، تذكر مشهد إبراهيم وهو يحطم الأصنام وتخيل نفسه مثله، ولكن خشي أن يكون بينها

كائن حي فيقتله فيضيع إحرامه، هو لا يصطاد، يأكل مما خزنه من طعام، في الطريق إلى عرفات كانت الهيبة حاضرة، في وسط شدة الحر طوال الطريق، المشاعر لم تكن كذلك، المشاعر كانت تمطر، عرفات كان يمطر بشدة، صوت الرعد وضوء البرق كان يخطف قلبه، يشعر أن الحياة تهبه من السماء، شعر أن السماء تنفتح ثانية له، عرفات ليس مجرد جبل، عرفات يمثل قمة الصعود الإنساني إلى رقيه، هنا كانت الخاتمة في حجة الوداع، يوم تمام هذا الدين، تذكر الجبل في قصة إبراهيم عليه السلام أيضًا، لم يكن جبل عرفات، لكنه كان جبلًا، بل أربعة جبال، ذبح الطير إبراهيم، وفرقها مختلفات على أربعة جبال، كان يريد أن يرى البعث يؤمن، ولكنه يريد أن يرى، العقل بداية اليقين، والروح إنائه وإيوانه، والنفس عقله، والعين تمام اطمئنانه، حينما رأى البعث بعينه، الجبال كانت شاشة الرؤية وثقب النظر، على رءوس الجبال، كأن الجبال أرادت أن تشهد، الثابت المستقر الراسخ يزداد رسوخًا ليس بما عليه وإنما بما يحويه، جلس يتلو ويسبح بحمد الله حتى غروب الشمس، في عرفات تضرع كثيرًا وكثيرًا جدًا، مع غروب الشمس، بدأ نافرًا إلى المزدلفة، في الطريق تذكر كيف كان الناس ينفرون إلى هناك، كانت الأمة كلها تنفر إلى المزدلفة، فكرة الأمة هي المسيطرة على شعائر الحج، والأمة كلها بميقات زمني واحد، وميقات مكاني واحد، تجتمع وتُلبي وتصلي، حتى الذين غير حاضري البيت يصومون يوم عرفات، مناسك المزدلفة تبيت فيه الأمة، تعرف على الطريق بصعوبة، تفقد المزدلفة، هناك محطة للقطارات الطائرة مخربة وملقاة وبعض كبسولاتها هناك، يبحث عن بيت يأوي إليه، أو خيمة يبيت فيها، أرهقته المناسك السابقة، أقام ليلته في العراء بركعتين صلى فيهما بالكافرين والإخلاص ثانيةً، واصل البحث، خلفه بمئة متر أو يقل، كانت بتول تراقبه وتفعل مثله، تشعر بصفاء ذهن، ولكن حياتها خاوية من الكثير مما يمكن أن يلهمها، حياتها بدأت حينما رأت والتر، عند حلول الفجر صلى إبراهيم في المزدلفة، فرمى جمرة العقبة الكبرى فتحلل، وطواف آخر، وسعي آخر، وعودة إلى المنى، وفي يومين آخرين أو ثلاثة، رمي جمرة العقبة الكبرى

والوسطى والصغرى، يروى أن إبراهيم عليه السلام فعل رمي الجمرات تلك في سباق مع الشيطان نكاية به، وأنه رماه حقًا، لكي ترمي الأمة كلها من بعده، هنا الأمر صراع مع النفس ثانيةً، أن يرمي ما لا يرى، ولكن قلبه كلما أدى أحد المناسك كان يطمئن أكثر، كلما مر عليه يوم شعر باستقرار أكبر، في نهاية الحج ذهب يطوف بمكة مودعًا، بعد أن أنهى طواف الوداع، جلس مستريحًا إلى الكعبة، تكاد تخطفه سنة من النوم حتى فوجئ بسلسلة من الرجال الملثمين بالأسود تحيط به، تخيل أنه يحلم، وتخيل أنه لا يشعر بشيء، ولكنه فوجئ بأنهم يحملون رماح حقيقية ويحيطون بقلبه!

نظرات الشر في أعينهم من بين لثامهم الأسود يكادون لا يفقهون قولًا، يكاد الموت يخطف بصره، كلما شعر أنه استقر، بادرته الأيام بتقلب حالها فجعلته موجات تتلاطم بعضها مغرقة كل ما على سطحها، فقيدوا قدميه ويديه تحت تهديد سلاحهم، ولم تُجدي المقاومة، حركوه إلى حيث زعيمهم، هناك وجد مودة وبتول مقيدتان مثله!

*****

سوالكوفا كانت تستثمر كل ثانية في اتساع قريتها، تريد لتلك الحفنة الصغيرة من الناس أن تصير كيفاد أخرى، وتستصلح الأرض وتزرعها، تهدم الغابات لكي تجعلها حدائق، تواصل العمل في معملها لكي تصنع المزيد والمزيد من التجارب، كلما استحدثت سلاحًا قامت بتدريب الرجال عليه، الرجال الخمس وعلى رأسهم دوشان وميرفي تقوم بتلقينهم التعليمات، تصنع الضغائن بينهم، لا تتوقف عن التمييز بينهم، إذا كانوا منقسمين فهي الفائز الوحيد، وإن اتحدوا ستخسر كل شيء، لم تكن تشعر للحظة أنها ليست إله، أو أنها تتمثل شخصية الإله، الطاغية يشعر أنه إله في صورة بشري دومًا، حتى ضعفه يكرهه، حتى مرضه يكرهه.

شيث ووضاح كانا يستعدان للثورة عليها، تمرد سيطيح بها من ذلك الهرم الذي صنعته من أناس هم في الأصل مجموعة من الأصل الواحد!

اعتقدا أنهما على استعداد لبدء ثورتهم، لقد عرفا مداخل ومخارج كل شيء في المملكة، خمسون يومًا من الرقابة المستمرة لكل شيء يدور في أروقة الحكم لكيفاد الحديثة قادرة أن تجعلهما على معرفة بأدق الأمور لكي يقوموا بتمردهم، كان معهم الكثير من الأنصار ليسوا الأغلبية ولكنهم كثير، شيث ووضاح لا يعرفهما أحد، ولكن هي سلسلة من الأشخاص وفي كل سلسلة يوجد شخص واحد يتواصل مع آخر يعرفه ولا يعرف الآخر، الثورويون كانوا لا يعرفون بعضهم، الثورويون تجمعهم روح الثورة، يكفي أن تكون ثائرا لكي تعرف رفيقك وتدافع عنه حينما تحين لحظة الثورة يكون الجميع إخوة، يكون الجميع رفاق، لحظة اشتعال الثورة هي لحظة بث الروح في الجنين الذي ينبت في الرفاق يومًا بعد يوم، هذا الجنين هو حمية الثورة، حمية كره الظلم في النفوس الحرة، حمية الرغبة فى الانتقال ببلادك إلى وطن أفضل، لكن الطغاة مشهورين بالقتل، يعرفون متى يكون الوأد، ومتى يكون الإجهاض، ومتى يمكن أن تبث السم في تلك الروح لكي تموت الثورة، لكي يزول الإسم الثوري من الجدران المشتعلة في النفوس، هكذا كان يكتب دومًا وضاح إلى رفاق الثورة، يقرأون الكلمات، لا يعرفون من أين أتت، ولكن كلمة الثورة تلهب النفس حينما تموت تحت رماد الطغيان!

سوالكوفا تفرض عليهم أعمالًا شاقة طوال النهار، يريد الطاغية دومًا أن تكون حياة الناس شاقة، لا يريد الطغاة الناس أن يفعلوا شيئًا سوى أن يبقوا منشغلين بأقوات يومهم، بصراعاتهم الداخلية، يجب أن يبقوا في قاعدة هرم الاحتياج الإنساني، يبحثون عن الأمن، عن الطعام، عن المأوى، لأنهم لو وجدوا طعامهم ومأواهم سيبحثون عن شيء يكرهه الطغاة، سيبحثون عن حريتهم!

قرر وضاح أن تبدأ الثورة في نهاية دورة العمل من الأسبوع الأول للشهر العاشر في السنة الثانية لكيفاد الحديثة!

سيكون يوم واحد من شهر سوالكوفا، سميت سوالكوفا الشهر الأول باسمها، ثم جعلت بقية الشهور مجرد أرقام، لكي يكون بعدها اثنا عشر حاكمًا يسمون الشهور بأسمائهم، ولكنها تكون رأس السنة!

الخطة ستكون أن يتوقف كل رفاق الثورة في توقيت واحد عن العمل وأن يجتمعوا بجوار الخيمة الخاصة بدوشان وأن يهدموها فوق رأسه، في نفس اللحظة ينطلق شيث ومعه مجموعة من الرجال، إلى مخزن الوقود وذخيرة السلاح ويقومون بإحراقه، لكي تشتعل الفوضى ويعم الاضطراب فيهرع الرجال إلى إطفاء الحرائق وتكون الفرصة مناسبة لتجمعهم فيكونوا عصبة قوية مجتمع أمرها يمكنها الوصول إلى رقبة سوالكوفا!

في اليوم المعلوم وعند بداية وقت زوال الشمس، بدأ وضاح في إطلاق إشارة البدء، صعد إلى أعلى برج فيه راية كيفاد وأسقطه، رفع راية حمراء نقش عليها "الحرية"!

هنا انفعلت الجماهير صارخين في السماء، تسقط سوالكوفا، تسقط سوالكوفا، سوالكوفا التي كانت هي الإله أصبحت تنادى بمجرد اسمها عاريًا، ذُهل بقية الناس بم يقول بني جلدتهم، ما يقولوه هو الكفر الصحيح، الكفر البواح، بدءوا في الغضب ولكن لم يكونوا ليعلموا ماذا يفعلون؟!

الناس ثائرون، ولكن كلمتهم لا تجتمع، ينتظرون توجيهًا من سوالكوفا التي غابت تمامًا عن المشهد، كانت منهمكة في عملها داخل المعمل، لم يكن مخزن الوقود قد انفجر بعد، لم يكن الفحم قد اشتعل، والبارود قد أنذر بوجود الخطر!

في لحظة واحدة تجمع خمس دولة سوالكوفا وقاموا بهدم بيت دوشان وزادت حميتهم فهدموا بيت ميرفي وانضم لهم من الناس من انضم بدافع السخط، كأن شرارة الثورة قد اشتعلت، كلمة الحرية التي ظهرت فيهم جعلتهم يهدمون بيوت الرجال الخمس وقُبض على الثلاث رجال الكبار، وهرب دوشان وذهب ميرفي إلى سوالكوفا، تشتتوا ثم انفجر مخزن البارود، اشتعلت

النيران لكي تصل إلى عباب السماء، لكي يكون للثورة صوت ورؤية، ظهر الدخان ليعلن أن هناك ثورة في الأفق، سوالكوفا شعرت أن اللحظة الحاسمة للهروب قد حانت، ولكنها لا تترك الأمور تسير هكذا، لقد فقدت السيطرة على الأمور، مخازن الذخيرة تحطمت، اصطحبت معها بضع من الرجال وهرعت إلى مخزن الذخيرة الاحتياطي، لم يكن يعلم أحد عن هذا المخزن شيء، صعدت على برج عالي تحمل فيه بندقية بدائية الصنع بالقرب من مدفع قديم يشبه أول مدفع ربما استخدمه العثمانيون، مظهر المدفع الرهيب وهو ينكشف عنه الستار في وسط القرية، وهي على قمته تمسك ببارودتها كان مرعبًا، أطلقت الطلقة الأولى فسقطت في وسط الجموع، تناثرت أجساد الثوار واختلطت بدماء الأتباع، لا تفرق طلقات الطاغية بين متبع وثائر، في بداية الثورة لا يوجد إلا الموت، وفي نهاية الثورة لا يوجد إلا الموت، إن الثوار في هذا العالم قدرهم أن يموتوا لكي يعيش الطغاة، هتفت سوالكوفا عاليًا، تحيا كيفاد ويسقط الخونة، تسقط الأدمغة المشوهة، اتبعها من اتبعها من قليلي الحكمة، الإله يقف يدافع عن دولته ببارودته، أي إله هذا سوى أنه طاغية ألبس نفسه ثوب الدين لكي يكون له الحكم مدى الحياة!

صرخ وضاح عاليًا:

- ليثبت كل من يريد حياة جديدة بقتل الطاغية!

أطلقت سوالكوفا سهما أخطأه وهي تصرخ: نحن الحياة الجديدة أيها الأحمق!

وصل رجال وضاح إلى البرج اقتلعوها من عليه، ركلها أحدهم في مقدمة بطنها ليسقطها أرضًا من فوق البرج صارخًا في الجميع:

-هل شاهدتم قبل ذلك إله يمكن ركله هكذا!

هلع الجميع، ظنوا أنه سيخسف به الأرض في الحال، أو ستقتلعه مناشير كيفاد ويسمعون صراخه كما كان يحدث معهم قبل ذلك، لكن ذلك لم يحدث كله، سوالكوفا تألمت، قامت من جديد، أمسكت بالسيف في يمناها والخنجر في يسارها، أخذت تطعن يمينها ويسارها كل من تقابله أمامها، التف حولها

الرجال من جديد، القتال اشتد، أهل القرية الواحدة يتقاتلون، نخبة هنا تقاتل على مصالحها ونخبة هناك تقاتل على مصالحها، وبينهما جيش من العامة قد أُريقت دمائهم باسم الفكرة التي لا يوجد أحد يموت من أجلها حقًا!

انفجرت الشرايين وانتفخت الأوردة، وجحظت العيون، جثثًا هنا وهناك، الموت حق على الجميع، انتبه أحدهم أن الثورة التي بدأوا بها ستنته ببركة دماء تحصد الجميع، رفع راية بيضاء، ونادى فى الناس:

-الحرية تبتغي السلام، والدولة تبتغي السلام، وكيفاد تبتغي السلام، فمن كان صادق فليلقي بسلاحه قبل أن يذوق الموت من أخيه!

تسربت السكينة إلى النفوس فهدأت، كان هناك المناوشات ولكن أخذت مياه السكون تطفئ النيران شيئًا فشيئًا تراصوا كجيشين، جيش بقيادة وضاح وشيث، وجيش آخر بقيادة سوالكوفا، سوالكوفا وضعت مخزن الذخيرة المتبقي ومخزن المياه والطعام خلفها، مع ذلك وضاح وشيث موقفهما أفضل، معهم الأغلبية من الناس، ومعهم ثلاث من القادة الكبار أسرى لديهم، وعندهم بئر للماء خلفهم، والطعام موجود في كل مكان يصطادوا ما يجدوا، تقدمت سوالكوفا إلى وضاح: كيف تجرؤ على فعل ما فعلت؟!

وضاح: لم يكن هناك مفر من تلك الفعلة!

سوالكوفا: لقد دمرت مخازن الذخيرة، وتسببت في قتل الكثير من العبيد!

وضاح: لقد أردنا حريتنا!

سوالكوفا: أنتم عبيد أرسلتكم لي كيفاد!

وضاح: حسنا الآن العبيد خرجوا عن السيطرة، أريني ماذا تفعلين؟

صمتت سوالكوفا، صمتت بذلك الشكل الذي يظهر أنها لا تدبر أمرًا، لكن في الحقيقة لم تكن تدبر شيء، عاجزة تمامًا عن فعل أي شيء ممكن، تنظر في الأمر، لا يوجد لديها حيلة!

هنا صرخت في وجه وضاح:

- قريبًا ستعلم ما الذي يمكنني فعله!

وضاح: وإلى أن يأتي قريبًا هذا، لا تملكين أي حق علينا، نعيش هنا ونفعل مانريد، ولا يوجد تصنيع سلاح بعد ذلك اليوم، ولا يوجد تخزين مواد نحن في غنى عنها، ومعملك هذا سنحرقه أو تسلميه لنا، نعيش جميعًا في بيوتنا، نأكل مما نجد ونخزن ما نستطيع لأيام الجفاف، نبحث عن المياه، نحسن من بيوتنا وأكواخنا ونستزيد منها، نصنع الحدائق والبساتين، نصنع العطور التي لا تصنع إلا لكي يكون من حقنا جميعًا أن نستنشق رائحة طيبة، نتزوج من نريد ومن نحب، لا يعتدي أحد فينا على الآخر، ولا يُقتل فينا أحد، ولا يسرق فينا أحد، من يتعب يأكل من تعبه وحسب، ومن لا يتعب لا يأكل إلا إن كان مريضًا!

هذا هو القانون، جميعا سننفذ العدالة يا سوالكوفا، وستكون العدالة بمحل إجماع الجميع، ومن معنا من رجالك سيكونوا أول المقتولين ثأرًا لم فعلتيه!

استشاطت غضبًا، عيناها قد جحظت مقلتاها من فرط قلة الحيلة مجتمعة مع غيظها، تمالكت نفسها لكي لا يضيع ما تبقى من هيبتها، غادرت في حزم، وهي تردد في همهمة غير مفهومة: الحروب سجال، يوم لك ويوم عليك!

اتبعها التابعون، الغريب أنه قد بقى معها أتباع على رأسهم ميرفي ودوشان ورجالهم، ربما تكون عقلية تلك الأتباع ليست موجهة بالإخلاص بقدر ما هم فيهم من نفس الطاغية مثل ما فيها من طغيان، إنهم يرفضون فكرة أن يكونوا على خطأ!

استولى وضاح وشيث على الخيام والمعامل، أعادوا توزيع الثروات، صنعوا نظامًا أقرب ما يمكن تسميته فيه باللانظام، يعيش كل مواطن كما يشاء، ويدبر أمره كما يشاء، ولكن يتطوع بعض المواطنين بشكل دوري للأهداف الجماعية للقبيلة، يدير ذلك وضاح وشيث بعدل تام، فيخرج من القبيلة كل شهر قمري مجموعة من الناس تكون مسئولة عن تخزين الطعام وعن توفير

الماء وعن تدبير ما يلزم لإقرار النظام وحماية العالم، سوالكوفا ومجموعتها عاشوا أشبه ما بشبه بأهل الكهف، يشاركون في ما يطلب منهم على مضض، لم يمض يومًا، لا يتوقفوا فيه عن إثارة المتاعب، يريدوا أن يثبتوا فشل نظام شيث ووضاح، يلجأ الطاغية لإقرار الفوضى في النظام العادل لكي يثبت أن صرامته كانت له مبرر وأن طغيانه كان من أجل أن يمنع الفوضى، مع أنه نفسه هو الفوضى!

اختفت تمامًا من المشهد وتواصلت مع أعوانها برسالة مشفرة علمتهم إياها، تترك الحروف على الأشجار منحوتة، يأتي أحدهم ليقرأ وينفذ، يومًا مشاجرة، ويومًا حريقًا كبيرًا، يومًا حريق في منزل أحدهم، وهكذا استمرت، لم يتوقف الأمر على الاعتداء على أهل شيث أو وضاح فقط، إنما تجاوز الاعتداء على أعوانها أيضًا، يحرق الطاغية حتى نفسه في سبيل أن يظل هو المسيطر.

تفرق أمر الناس، لم يملك وضاح وشيث من أمرهما شيئًا، دومًا لا يستطيعون معرفة الجاني، وإن استطاعوا يظهر مرة أخرى بطريقة أخرى، الأيام كادت تفتك بهم من فرط الحيرة، لو انقلبوا واشتدوا أصبحوا طغاة آخرين، ولو لانوا وتهانوا ولم يأخذوا أحد بالظن فإنهم لن يحصلوا على استقرار قريتهم!

جمعوا الناس، قام وضاح خاطبًا فيهم: من يفعل الشر منكم، ومن يشتكي منه منكم، لا نريد قتل أحد، وما أردنا هذا، فقط أردنا أن يعيش الجميع سعداء، حتى سوالكوفا تركناها هي وأتباعها، نعلم أنها وراء هذا، الجميع يعلم أنها وراء هذا، ولكن لو قتلناها قلتم أننا قتلة لأننا ببساطة لا نملك دليل، إننا لا نعرف حتى الطريقة التي تتواصل بها مع من يفعلون ذلك!

لم يعترف أحد ممن قبضنا عليه، ماذا نفعل؟!

زاد الصخب والضجيج في وسط الناس، يسألوننا ماذا نفعل؟!

أليس هم أصحاب تلك الثورة وذلك النظام الجديد، إنهم لا يدرون ما أمرهم ولا يعرفون عن ما يفعلون إذا.

انفضَّ الناس دون رأي، ولكن الجميع بدأ يعلم أنه غير آمن، انحلت المجموعة التي كانت تحافظ على الأمن وأصبح أمن كل فرد مسئوليته الشخصية، هنا أمرت سوالكوفا بزيادة الشغب فبدلًا من حادثة واحدة، أصبحت خمس حوادث، انفلت عيار الناس، والكل بلا قانون، أصبحت القرية غابة مشتعلة، الحكماء من الناس لا يدرون ماذا يفعلون، لقد خرجت الأمور عن السيطرة، هنا صعدت سوالكوفا، تجمهر الناس حولها، خطبت فيهم: الآن علمتم لماذا كنا نعمل، ولماذا كنا صارمين، ولماذا كانت الشدة، فأنتم حينما تراخيتم، انتشرت بينكم وساوس الأعداء الإله من الشياطين وما سواهم، وذهبت أنفسكم لقتل أنفسكم، فعودوا إلى رشدكم طائعين، وأئتوني برءوس الفتنة نحاكمها محاكمة عادلة أمام السماء!

خطبة عصماء ألقتها في الجماهير التي حجبت الحقيقة عن وعيها!

من كانوا ثوارًا هم من جلبوا قادة الثورة إلى سوالكوفا لتشنقهم أمام الجميع وتترك جثثهم تنهشها الكلاب وأوابد الغاب، تركتهم حتى دون أن تدفنهم لكي تظل الذاكرة الجمعية لعامة شعبها أن هذا جزاء من يعصيها، زادت غطرسة فوق غطرستها، سوالكوفا تحكم بالحديد والنار، تأمر فتطاع دون بنت شفه، ضاعفت ساعات العمل، وقللت المؤن، لم يتبق من الثورة شيء، حتى بيت شيث ووضاح تم حرقهم بالكامل، لم يتبق إلا رسالة بين شيث ووضاح كان يشرح فيها له الأوضاع ويكتبها إليه قبل إعدامه:

كان علينا أن نحرر أنفسنا وشعبنا أولَا من الجهل قبل أن نحرره من الطغيان، فالثورة يا رفيق لم تكن يومًا في مقتل الطاغية الذي يحكم دولتنا، الثورة يا رفيق تبدأ من مقتل الطاغية في نفس الشعب!

*****

٨

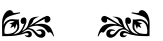

ولكنه يعرف أن الألم خير معلم للناس، من يتألم أول من يتعلم!

القلب لا يمتلئ فى ساعة واحدة، وقلبه ليس خاويا وحسب بل إن وعاء قلبه ذاته مفرغ من داخله، لا يستقر فيه سائل ولا صلب، كل ما يمكن أن يستقر هو الرياح، والرياح لا تثبت قلب يا رفيق، القلوب التي ملئوها الرياح هي سفن بالية لا وجهة لها.

****

انتهى الصراع عند إيفان بأن يتركهم ويغادر، لا يستطيع التغلب على النار داخله وهو يرى أخيه أفضل منه، ولا يستطيع أن يطيع هواه فيقتله، لقد رأى ظلم سوالكوفا، حينما قرأ قصة قابيل وهابيل عرف من هو أخيه الذي فعلها من قبل، ولكن قابيل وهابيل كلاهما لم يرَ الظلم في حياته، لذلك أوجداه، بل أوجده قابيل حينما لم يرض بقسمة الله في أرضه، فقتل أخيه، تريد الأحلام التي تأتيه أن تجعله مثل قابيل، أن يقتل أخاه، ولكن سوالكوفا وما رآه منها لا يمكن أن يكون في يومًا ما صورة منه، ما يردعه هو أن يرى نفسه في المكان الذي كرهه ذات يوم، ولكنه لا يستطيع أن يبقى، حينما علم أن كيرا وديروا أوشكا أن يضعا مولودهما الأول غادر، لا يريد أن يرى ابن أخيه، لأنه في الحقيقة لن يرى الطفل الصغير بقدر ما سيرى نفسه مقطوع النسل، هذا الولد

الذي سيأتي من أخيه والولد الآخر الذي سيأتي من أخته لن يكونا طفلين أو طفلتين، سيكونا ما يتميز به إخوته عنه، ترك البيت الآمن، ترك كل الحاجات الإنسانية التي أوجدها لنفسه في الطبيعة، خرج من جنته مغاضبًا ربه، لم يكن يعرف الله سوى في الكتب التي وجدها، في مكتبة ليست بالكبيرة، تعرف على الكتب لأول مرة من سوالكوفا، تعلم منها القراءة والكتابة، لكنه لم يعرف أن هناك كتب إلا بعد سوالكوفا، بل كانت تمنعهم حتى من مجرد تجميع الأوراق غير ذات المعنى، يخشى الطاغية من مرض عظيم يسمى وعي من يحكمه، ولكن برغم أنه لم يؤمن فالكتب حفظت له الهدى الذي يمكن أن يهتدي به، لكنه لم يكن يقرأ بدافع المعرفة، أو بدافع حتى القلق الفكري، كان يقرأ بدافع الفضول، دافعيه أشبه بمحبة المعرفة وحسب، لكن الحقيقة هو يقتنع أنها ليست في الكتب، الحقيقة في عقله، يكتشفها دومًا وحده، إلهه في عقله ولا غير، لا يذهب أبعد من ذلك، ولكن قدماه تأخذاه إلى أبعد من ذلك بكثير، ترك رسالة لإخوته أنه يريد أن يكون وحده، تألم الجميع لفراقه، ديرو كانت أشد الجميع ألمًا، إنه كان رفيقها الوحيد، اختلط ألمها بآلام مخاضها، كرهت برانكوفيش، ابتعدت عنه وعاشت منعزلة حتى يأتيها ألم الولادة الحقيقي، ابتعدت لدرجة أوشكت بها أن تصل أن تقتل جنينها الذي في بطنها، إنها لا تتحمل الآلام التي تعيشها هذه الأيام، لا تتحمل أن تكون وحدها أيضًا، لكنها لا تريد أن ترى زوجها، لا تريد أن ترى برانكوفيش، يقترب منها أخيها وايلد يحدثها: ألا تكفي مغادرة إيفان حتى تغادرينا أنتِ أيضًا؟!

تجيبه: لا أغادر ولكني لا أطيق البقاء حيث لا أخي!

يجيبها: ومن يطيق؟ ولكن ليس الحل أن تعتزلينا يا أختاه!

تجيبه: لكل نفس قدر، وقدري لا يجيز لي البقاء هناك!

يصمت، ثم ينطق في لمحة فكر: نغادر جميعًا من هنا، نقتص أثر إيفان حيث نجده!

تقول في يأس: تعرف أن لا أحد يستطيع الوصول لإيفان، إنه يجيد الهرب، هو يريد أن يكون وحده، لم يجد نفسه بيننا!

شعر وايلد بشيء من الذنب في رأسه: هل أنا السبب؟!

أجابته ديرو: جميعنا كنا السبب، لقد تركناه وحده قبل أن يتركنا!

لا يعرف متى تعلمت الحكمة ولا يعرف كيف أصبحت تنطق أخته هكذا، ولكنه يعرف أن الألم خير معلم للناس، من يتألم أول من يتعلم!

شعر وايلد أنه بحاجة إلى أن يواسي أخته بشيء ما، اصطحبها ذات يوم إلى حيث دفن إيفان أخته كيفاد، كيرا وبرانكوفيش استعجبا من أمره، تريد أن تخرجها من حزنها فتذهب بها إلى حيث الحزن كله.

وايلد مقصده أمر آخر، إنه يريد أن يريها حزنه، أخت إيفان التي كانت هي الأقرب إليه ماتت أمام عينه، ودفنها بنفسه ويعلم أنه لن يراها ثانية، أما هي فإيفان هناك أمل ما أن يعود، أن يستوحش الحياة بمفرده فيعود، نعم كيفاد كانت أختها الصغرى أيضًا، ولكنها لم تُفجع بموتها مثل فجيعتها بفقدان أخيها، وصلا إلى حيث دفنت، نمت الشجرة عليها من جديد، كأن الحياة تغشى الموت بأظافرها ولحائها، استنشقا أرج المسك يفوح بين جنباتهم، لا يعرفا له مصدر، ولكنهم استمتعا بطيب الرائحة، بكت كثيرًا ديرو، وبكى وايلد، كيرا وبرانكوفيش حاولا المواساة دون جدوى!

لا يد لك في الفقد إن كان من غادرك لا تملك أن تعيده، الموت والرحيل سيَّان، الموتى لا يعودون، والذين رحلوا رحلوا لأنهم لم يجدوا ضالتهم عندك فرحلوا!

في ناحية أخرى كان إيفان يسير على ضفة نهر صغير، يكاد يكون جدول ماء، استراح وهبط برأسه في جمام ماء النهر، ترك الماء رواء لبشرته ولظمأه، حبات من منضود فاكهة على عود قد استوت طلب إياها!

*****

سار مع النهر، الأنهار كالبشر تشيخ من منبعها إلى مصبها، أراد أن يشيخ مع النهر، يسير على ضفته إلى حيث يأخذه، لم يخف أن يذهب إلى سوالكوفا ثانية، لم يخف أن تكون هناك، الإنسان يخاف لأنه يشعر أنه يملك، فيخاف من فقدان ما يملك، أما الإنسان الذي لا يملك شيئًا لا يخاف، هو يعلم جيدًا أنه لا يملك شيئًا، حتى روحه يشعر أنه لم يعد يملكها، ما قيمة أن يملك روحًا لا تستطيع أن تفعل شيئًا لنفسها، الحرية التي كان يؤمن بها، ويؤمن أنه طالما يعيش حرًا فقد حاز الدنيا بما فيها أصبحت لا تساوي له شيئًا، ذلك أنه رأى أبعد من الحرية، أبعد من أن يكون ثم يفنى، رأى أن يخلد، تلك هي الخديعة الكبرى فى نفس بني أدم منذ بداية الخليقة بعد أن يستقر، بعد أن يأمن، يطمح أن يخلد، أن يبقى أبد الآبدين، بعضهم يخلد في ماله، وبعضهم يخلد في ولده، وبعض آخر به سنة من العقل يخلد في علمه، ولا يعلموا أنها دار فناء، تلك هي الفانية، لكن هو بلا إيمان، هو لا يعلم كيف يعيش من الأساس، ولماذا يعيش، لقد عبد حريته فترة، وما إن ألفها، بحث عن ما بعدها، فلما لم يجد، ذهب مغاضبًا، تاركًا الكل وراءه، حتى روحه!

حينما وصل إلى مصب النهر وجد القوم الذين تركتهم سوالكوفا حينما رحلت من القارب، تفاجأ بهم وراقبهم، وجدهم يعبدون النساء، كان القوم عبارة عن مجموعة من الرجال المشوهين وحسب، حينما جاءتهم سوالكوفا، شعر هؤلاء القوم أنهم عاشوا على خدعة، مثلوا الجنون حتى تركتهم سوالكوفا، وتركت العيون عليهم، عرفوا العيون وقتلوهم، وقرروا أن يعيشوا أحرارًا، حتى جاءتهم الكبسولات تحمل لهم النساء، لأول مرة في حياتهم يشاهدوا نساء، استأنسوا بهم لدرجة عبادتهم وتقديسهم، أصبحت المرأة عندهم هي هدية السماء لهم، مجتمع أنثوي كامل تسيطر فيه المرأة على كل شيء إلا أن الزعامة في يد الرجل، شعر إيفان بشيء ما من البدائية في التفكير، لو نزل إليهم لربما صار إله، سيكون الرجل الوحيد المعافى فيهم، ها هو يمكنه أن يختار أي امرأة، هذا ما غادر من أجله، ولكنه لم يغادر لكي يبحث عن شريك حياة، لقد غادر لأنه تائه، لأنه شعر بعدم الجدوى، لم ينزل

إليهم، مر عليهم وراقبهم فحسب، شعر بأنه أفضل حينما غادرهم، حينما قرر البقاء وحده في النهاية، ربما انتصر على نزعته الإنسانية، ربما يشعر الإنسان في التخلي بشيء ما من العظمة، هو لا يعرف، ولكنه بعد مسيرة يومين بعدًا عنهم، اختار لنفسه كوخًا صغيرًا صنعه بيده، وقرر البقاء وحده فيه، عاش مدة لا يعلمها، عاش يصطاد من النهر ويشرب، ربما يأكل ما وجده على الشجر، خلع ثيابه واحتفظ بشيء صغير يستر نفسه، لم يخزن الطعام، لم ينتبه لمنسوب النهر، تخلى عن إنسانيته تمامًا، عن رغبته في البقاء، إنه يريد أن يبقى حتى بعيدًا عن نفسه، ومازال على ذلك حتى وجده أهل القرية التي مر بها، مجموعة منهم كانت في رحلة صيد فوجدته فأسرته، عادوا به إلى زعيمهم، كاد يقتلهم، اعتقد أن إيفان من أهل سوالكوفا، أو من أهل كيفاد، وأن ما فعله رجاله بأسره هو جلب النقمة عليهم، كاد يقتلهم، ثم يضع قانونًا يقتضي بأن من يعامل غريبًا يقتل، ولكنه لا يريد أن يقتل أحد من أهله، الزعيم اسمه فاسكو دي جاما، رجل غريب المنظر، ليس لأنه به صفة ما أو تشوه ظاهر، ما جعله زعيمًا في الأساس هو أن مظهره لا يوجد به أي تشوه، مع ذلك هو يحمل تشوه ما، تشوه يكاد يقصمه ولا يظهره، قوي بدرجة لا توصف، للقادة عيون، وله عينا قائد، عينان فيهما الحكمة عليها مزيج القوة والحلم، رأى في إيفان شيء من الحزن الذي يعرفه جيدًا، علم أنه يخفي شيئًا ما، أمره أن يدنو منه فاقترب، اقترب إيفان فشعر أن حزنًا ما واحدًا يجمعهما، كلاهما مفقود من شيء ما.

فاسكو دي جاما: ما قصتك؟

إيفان: رجل يسير في الأرض لم يؤذِ أحدًا وجلبوني رجالك إليك كأني صيد، فكوا قيدي!

دي جاما: فكوا قيده.

إيفان: ماذا تريد مني؟

دي جاما: ما قصتك؟ أريد حماية قومي؟

إيفان: أنصت، لو كنت أريد بكم أذى لما رأيتكم ورحلت، لقد مررت هنا منذ أيام ولم أفعل شيئًا لكم.

دي جاما: ما دليل صدقك؟

إيفان: تجد بقايا صيد لي في كهف ما خلف هذا الجبل!

دي جاما: عقلي يخبرني أن الفتى صادق.

ايفان: الأمر كله لا يعنيني، ولو أمرت بهلاكي ما يجديني!

دي جاما: تعيش هنا معي، ابق معي، كن لي صاحب؟!

إيفان: ليس لي صاحب!

دي جاما: أخذلك الناس؟

إيفان: خذلت نفسي!

دي جاما: كيف يخذل المرء نفسه؟

إيفان: بأن لا يعتقد في نفسه غير ماهي عليه، فتسقط من نفسه رؤيته للناس، فيقدم لهم ما لا يستحقون، فلا يردونه قدره، فتضطرب موازينه، وتختل أموره، فلا ينجيه إلا أن يتماهى مع النظام، أو يهرب منه!

دي جاما: وماذا أنت فعلت؟ أهربت أم تماهيت؟

إيفان: لو تماهيت ما وجدتني أمامك!

دي جاما: أتحب البقاء معي؟

إيفان: مجبرًا أم مخيرًا؟

دي جاما: بل مخيرًا، إن شئت غادرت وإن شئت بقيت

إيفان: اذا بقيت على شرطي، متى قررت الرحيل أرحل!

دي جاما: لك هذا.

بقي إيفان ولكن قلبه لم يبق معه، شاردًا معظم الوقت، الهجرة التي هاجرها لم تكن لها مبتغى، حينما وجد بقايا القوم الذين تركتهم سوالكوفا، تذكرها، تذكر ويلاتها وجحيمها التي أهدر فيهم طفولته!

مع ذلك تعلم من هؤلاء القوم الكثير وتعلموا منه الكثير أيضًا، بعض الأفراد تكون إضافتهم لمجتمعهم مثل إضافة مجتمع لمجتمع آخر، ذلك أن الفرد ثقافة، وثقافة الناس إن تهجنت داخل المجتمع الواحد، كان أثرها عظيمًا في الشر أو في الخير!

لقد أسسوا جمهورية الحرية الكاملة، إيفان صنع دستورًا جديدًا لتلك القرية، أسس لهم الكثير من المفاهيم، علمهم الكثير من قواعد الطب التي تعلمها من سوالكوفا، علمهم تخزين الطعام وصناعته، أسس منبت لدولة القانون فيها يمثل معيارًا للتنظيم وحسب، ولا يملك أي سلطات على تقييد الحريات بأي طريقة، من حق أي مواطن أن يفعل أي شيء طالما هذا الشيء لا يقترب من إيذاء الفرد الآخر، كنتيجة انعكاسية لما عاشه إيفان من قهر صنع الحرية الكاملة في تلك الدولة، علمهم فنون القتال والحرب فازدادت قوتهم وزاد صيدهم، علمهم الزرع والحرث فعرفوا كيف يوجدون الحبوب والفاكهة بدلًا من البحث عنها، نعلمهم ليل نهار، حول كل الإبلاس الذي عاشه إلى دولة قوية بتعداد سكان قرية صغيرة، أصبح لديهم جيش، التجنيد فيه اختياري إلا في حالة الحرب أو إن استدعت الضرورة التي يقررها الحاكم، هناك طريقة لتجديد ميثاق الحكم لفاسكو دي جاما، وهو الحاكم الوحيد في الدستور الذي من حقه أن يحكم حتى أن يمل من الحكم، أما من بعده فليس لأحد حق سوى أن يتولى عشرة أعوام، في كل عام يجتمع أهل القرية لكي يجددوا له الثقة لكي يواصل الحكم، هو يعلم أنه الحاكم بعد فاسكو دي جاما ولكنه يريد أن يرسم نمطًا ما للدولة الأفلاطونية التي طالما حلم بها، لقد حلم أن يكون مثاليًا وحده، ثم جاءت اللحظة التي يمكنه أن يصنع لنفسه الجمهورية المثالية التي تمناها، رفع شعارًا كبيرًا للدولة سماه " الحرية"، أصبح

لقريته راية مثل التي كانت سوالكوفا تجعلهم يقوموا بتحيتها ولكن هذه الراية كانت بيضاء وحسب لا يوجد فيها أي شيء سوى أن تكون راية بيضاء، ليست رمزًا للسلام، بقدر ما هي رمز لوجود فراغ كبير من حق كل مواطن أن يتخيل في هذا الفراغ ما يحب، الدولة هنا لا تتعدى عليك، الدولة هنا تتيح لك كل المساحات

مرت الأيام، لم يتزوج إيفان، لم تعجبه أي من نساء القرية الذين جاءوا من الكبسولات، هن كانوا عبارة عن فتيات عاشوا طوال عمرهن مسجونات قيد الأسر ليس لهم حقوق، وما إن حصلوا على الحرية حصلوا عليها كملكات وليس كمجرد أفراد محررين، كل من في القرية يقدس النساء بطريقة لا يمكن تخيلها، لقد توقفوا عن عبادتهن منذ أن جاء إيفان فكرهته النساء، ولكنهم لم يتوقفوا عن تقديسهن، كره تسلطهن لإنه يكره تسلط كل النساء منذ أن رأى سوالكوفا، إخوته لم يراهم كنساء، لقد رآهم كبناته، كفتيات هو مسئول عنهن، لم تركهم، تركهم في عصمة رجال آخرون، لم تتبلور لديه فكرة الحب بعد، لم يعرف الانجذاب لأي فتاة، إلا فتاة واحدة من أهل تلك القرية، لم يتزوجها أحد، جاءت زائدة في إحدى الكبسولات، لذلك لم تكن لأحد، ولم يرغب بها أحد، ولم تقدس، ربما لذلك كانت عادية، كانت ما زالت فتاة، تعيش وسط القرية في كوخ بمفردها، تستمتع بحريتها، بحياتها، بفضيلة أن تكون وحدك، حينما رآها أول مرة بعيونها الزرقاء وسط سمرة اللون تنزل إلى قنينة صغيرة من الماء، تضع يدها الصغيرة تغترف قليل من الماء، تروي ظمأها فينغلق جفنيها كأنها تتذوق طعمًا للماء، ربما حلاوة الحياة التي يمدنا بها الماء، فُتن بها وراقبها أيامًا ليعلم من هي، لاحظ دي جاما عليه ذلك، أخبره إن كان يرغب بها؟

رد عليه إيفان: إنه يريد أن يتأكد أنها لا تميل لأحد رجال القرية.

سخر دي جاما منه:

- نحن القادة ونحن الزعماء، لا يتأخر رجل في القرية لخدمتنا، يتركها لك!

أجابه إيفان:

- لا يأكل الرجل ما يتقيأه قلبه حتى يأكل ما يتقيأه قلب غيره، ثم ماذا لو لم ترغب؟

تعجب دي جاما من مدى صدقه مع نفسه، إنه لا يفهمه في كثير من الأحوال، ولكنه يعجب به دومًا، اقترح عليه قائلًا:

- اسمع، خير الطرق للوصول للحقيقة هي الصراحة، نجلبها ونسألها.

فكر مليًا إيفان ثم أخبره: لا، لا نسألها نحن، بل تسألها زوجتك الكبرى، تذهب إليها وتقترح عليها الأمر كأننا لا نعلم، حتى لا يكون لسلطاننا عليها من أمر!

رد عليه بالإيجاب، العالم كان في غاية البساطة لما فعله إيفان، ولكن بساطة العالم من تعقيده لا تعني شيئًا إلا من بساطة النفس من تعقيدها، فقد يكون المجتمع كله غاية في التعقيد ونفس بسيطة تستطيع أن تستوعبه، والعكس بالعكس بيانه صحيح، إيفان يريد في كل إنسان بجانبه حق أبلج واضح كوضوح الشمس، لا يريد أي علاقات مزيفة، لقد بدأ حياته بخداعه، لذلك لا يريد أن يُخدع مرة أخرى!

يعتبر أن مجرد أن يقبل به أحد من قبل السلطة هو خداع له، فعلت زوجة فاسكو دي جاما ما طلب منها، طلبه فاسكو دي جاما بعد ذلك.

ذهب إليه، حينما لم يجد دي جاما لا يباشر بإخباره بإيجاب الفتاة علم أن الفتاة رفضت، حدثه دي جاما: لو أردت أن أجبرها لأرغمتها وأتتك راغمة!

ابتسم إيفان: لو أردت ما طلبت منك أن تأتيها بتلك الطريقة.

دي جاما: اسمع يا ايفان أنا أعلم في القلوب ما لا تعلمه، من لم يرتدع بكرم النفس يرتدعها بسلطانها، نعم نحن نقدس النساء لأنهم أنقذوا بقائنا في هذا العالم ولكن أنت لنا بمثابة شيء لا يمكن رفض قلبه!

تقبل إيفان جبر خاطره: لا، ولو علمت أنك فعلت أي شيء دون علمي في ذلك الأمر فسأكون في غاية الغضب، إن لها قلبًا مثل قلبي تمامًا، ولا يقبل قلبي أن يجبرها على القبول مثلما لا يريدني قلبها تمامًا!

دي جاما: ألا تريدها؟

إيفان: أريدها.

دي جاما: فلتحارب على ما تطلب!

إيفان: ليست هكذا تورد القلوب يا دي جاما، ليست هكذا يارفيق!

دي جاما: أنت وأمرك!

تركه إيفان ومضى، شاهدها مرات ومرات، راقبها في صمت، الحب أول مرة يعرفه، ربما الجميع لم يحب مثلما أحب، إنه اختار ورُفض اختياره، ومع ذلك مازال يحب، ربما لأن القلوب إن اختارت ما رضيت إلا بالقبول، عرض عليه دي جاما الكثير من النساء ولكنه رفض، تعلق قلبه بها.

كل يوم يخرج لها عند وقت بزوغ قطرات الندى على الورود يشاهدها وهي تشرب وتملأ جرتها بالماء يهيم بها، فعيناها مليئتان بالسواد يرى فيهما ماضيه كله قد اختبأ في ثقب أسود، وقطرات المياه تسقط من شفتيها كلؤلؤ قد نثر فلم ينضد منه إلا ما استقر في قلبها، ذات يوم اقترب منها حد الرؤية، وقف خلفها والتفتت إليه، في قرارة نفسها كانت تشعر بوجوده، تشعر أن هناك هالة من الدفء تحيط بها، ولكنها تفاجاءت حينما رأته، علمت أنه يريد شرًا لا محالة، ما يمنعه من أخذها بالقوة لو أراد وهو في مقام الحاجب والرفيق من سيد المدينة كلها، لقد كانت قرية وأصبحت مدينة على يده، إنها نفسها تدين له بالفضل في شكل بيتها الجديد الذي اتخذته لنفسها، هو من رسم تصميمات البيوت وعلم البنائين كيف يكون البناء، إنه رجل من المستقبل لتلك المدينة كلها، اختصرت كل هواجسها في سؤال واحد:

-ماذا يريد سيدي؟

وجهها الذي تركه الدم وهرب لينجد قلبها من رعبه جعله يشفق عليها، أجابها ببساطة: لاشيء يدعو للخوف، إنكِ في أمان يا عزيزتي!

استعادت شيئا من الدفء مرة ثانية قائلة: لبيك سيدي!

أجابها: دعك من لفظة سيدي، ودعك من حظوتي في القوم، دعك من العالم كله، أعطيكِ الأمان على أن تجيبيني بصدق!

تنهدت كأنها تستنشق الصدق لا الكلمات: لك الصدق كله!

سألها: لماذا قمتِ برفض أن تعيشي معي؟

أجابته: لم أرفضك، بل رفضت البقاء مع أحد، أي أحد!

سألها أن توضح أكثر!

أجابته: تعلم الظروف التي مررت بها في سجن كيفاد، تعيش عمرك كله على وهم ثم تكتشف أن هذا كله لا شيء، ثم جئت إلى هنا، لم أثق في أحد، لم أرد الزواج بأحد، لا مشوهًا ولا صحيحًا، لا معطوبًا ولا سليمًا، لقد قررت أن أعيش بمفردي، تعلمت كل الطرق، صنعت لي حياة أنا سعيدة فيها للغاية، معظم رفيقاتي الآن تغيرن كثيرًا، لقد أصبحوا أشخاص آخرين، لقد تعلمت أن أعيش بمفردي، لماذا أوافق على أن أغير ذلك، لا أريد أن أتغير لأجل أحدهم يا إيفان، أقصد يا سيدي!

أجابها: يمكن أن تقولي إيفان، تعلمين صوتك يشبه صوت أختي كيفاد كثيرًا، أنتي لا تعلمين عني الكثير، لماذا لا يمكننا أن نتعارف، أن نجد سويًا طريقة للعيش إن نجحنا أصبحنا أزواج، أكملنا بقية أعمارنا سويًا، إن لم نستطع، يترك كلانا الآخر في سلام لسلامه ولسلامته!

أطرقت ثم أجابت:

- دعني أفكر!

غادرته ولم تغادر قلبه، في الليل خرجت وحدها تستطلع هدوء العالم بينما قريتها غارقة في نومها، روحها الباهتة التي تتماهى مع ظلام الليل تجد نفسها تحن إلى جزء ما فيه، ولكن حريتها حينما يشرق الصبح هي أثمن ما تملك!

المخلوقات من حولها أزواجًا، سنة الكون هي أن لا تعيش فردًا، إنها وسيلة من وسائل البقاء، ولكن ما جدوى البقاء؟ البقاء لم يكن يعنيها، تركت الفجر يبزغ على وجهها، سمعت الطبيعة وهي تردد في قلبها إعجابها به، عليّ أن أتخلص من الأحكام المسبقة، المستقبل ليس له علاقة بأضغان الماضي سوى أن عليّ التخلص منه، شاهدة كحق أبلج أمام عينيها، ما الذي يمكن أن تخسره إن رافقته؟

أخبرتها وساوسها الكثير، ولكنها أقدمت، أقبلت إليه موافقة على طلبه، ولكنها وضعت شروط لقبول طلبه، كان الأول أن ذلك لا يعني أنها موافقة على الزواج منه!

الثاني أن من حق أي طرف أن يغادر دون إبداء السبب!

وافق إيفان على الشروط.

يلتقيان في الصباح، يسيران في الأودية، يجمع لها حبات التوت البري، يصنع لها حليبًا من البقر ويتركه في العراء حارسًا له يبرد حتى يقدمه لها في الصباح، يصطاد من أجلها ويعد لها الطعام بطرق لا تعرفها ولا يعرفها أحد في القرية، انشغل حتى عن دي جاما بها، لم تحبه لكل ذلك، أحبته أكثر حينما حكى عن نفسه لها، تمنت لو رأت إخوته، هي لا تعلم كيف يكون للمرء إخوة، لم يكن لها أخ من قبل، أو كان لها ولا تعلم، إخوة الدماء لا تعلمها، فالجميع في السجن كان يطلق عليه أخيك وأختك!

استدعى فاسكو دي جاما إيفان ليستفهم منه الأمر، أفصح له عن الاتفاق، ضحك منه، سأله:

-لماذا هي تحديدًا؟

إيفان لا يعرف إجابة حقًا، هو يكون في غاية السعادة حينما يراها، يطرب للغاية فقط لمجرد ابتسامة صغيرة منها، ولكنه لا يستطيع أن يخبر دي جاما بهذا، أخبره إيفان بتلك الحقيقة ولكن دي جاما لم يستوعب شيئًا!

ظن أن إيفان ربما يخادعه أو ربما يكون هذا سر لا يريد لأحد أن يعلمه!

دي جاما يعلم أنَّ إيفان يعلم مالا يعلم، ربما يكون في تلك الفتاة ما ليس في غيرها، لم يطمئن، جاءه في الليل من ينادي عليه:

- لقد جاء بما لم يأت به الأولين، اطرده!

صرخ صرخات مكتومة، صرخات تخرج من حنجرته، يسمعها، ولكن يشعر أنها لا تخرج، صرخ ثانية وثالثة، تعرقت جبينه، شاهد حية غير رقطاء ملساء كبير حجمها بين نابيها جوهرة تسحر عينه، كلما اقترب منها زاد السم تقطيرا من نابيها، فحيحها ملأ عليه السماء، كلما اقترب زاد الفحيح، يضع يده ليلتقط الجوهرة فتنهشه، ولكنه لا ينزف دماءًا، فقط يعود لتلك الصرخات المكتوبة في عباب بحر عظيم يسير فيه على الماء دون مشكلة، يصرخ:

- من أنت؟!

الصراخ لا يخرج خارج حنجرته، يكاد يموت مختنقًا بصوته، يشعر بيد تلتف حوله، تتبعها أياد أخرى، يدان حول عنقه، يدان حول كبده، يدان حول قلبه، يدان حول قدميه، ينعصر بين الأيادي، يبكي، يبكي بكاءًا شديدًا، يستيقظ مذعورًا، كان يحلم، لا يستطيع أن يميز بين اليقظة والنوم لبقية ليلته، في النهار ينظر لإيفان خائفًا منه، اقترب منه ذات يوم، قام من على عرش قبيلته، وقف أمامه مباشرة قائلًا له: هل تريد أن تجلس على العرش يا إيفان؟

رفع إيفان رأسه له بعد أن كان يعبث بشيء ما في الأرض:

-لا يا رفيق، لا أريد العرش!

نظر له فاسكو دي جاما: هل يمكن أن تقتلني يا إيفان!

غضب منه:

-لماذا أقتلك؟

دي جاما: أشاهدك كل يوما تقتلني وأنا نائم!

إيفان بغضب: اطرد عنك وساوسك قبل أن تقتلك يا رفيق، جمعتنا الصدفة، ولا أريد شيئًا من هذا العالم سوى الحقيقة وتلك الجميلة التي رأيتها في قريتك!

دي جاما: الحية الملساء!

إيفان: هل تراها في المنام كحية؟

دي جاما: هذا تأويلي. أرح بالي وصارحني، ما الذي فيها يميزها عن غيرها؟

إيفان: ما بك؟ أحقا تظن فيَّ السوء لأني أردت الفتاة، بعد كل ما فعلت لك، ما يمنعني منك بعلمي شيء، يا...

قاطعه دي جاما: نعم، بعلمك بعلمك، ما الذي في علمك يخيرها عن سواها!

إيفان: ما رأيك أن أغادر أنا وهي إن خفت على ملكك مني.

دي جاما: ماذا لو أمرتك أن تغادر وحدك.

إيفان: تكون قد ظلمت، ولكن أطيع!

دي جاما: ولو أمرتك أن تبقى وتغادر هي!

إيفان: تكون قد قتلت نفسين بغير حق!

دي جاما: أما الأولى فنعلم أن هلاكها سيكون لا محالة وأما الثانية فمن؟

إيفان: أنا.

دي جاما: ما هذا؟

إيفان: هذا هو ما لا أعرف له اسمًا، كأنه حنين لشيء ما داخلي، كأنه قدري!

دي جاما: الآن يموت آخر وسواس في قلبي!

إيفان: لا تترك نفسك لذلك. فإن مالت نفسك فألجمها بعقلك!

دي جاما: أتمنى أن لا يكون بيننا حديث آخر مثل هذا!

لم يكن يعلم إيفان شيئًا عن طبائع النفوس، كل ما قاسى وما واجه لا يأتي بنت شفة فيما عاناه فاسكو دي جاما، دي جاما يشعر دومًا أنه في خطر، اطمئنَّ ووجه اهتمامه كله إلى رعاية ما تبقى من قومه وحسب هذا وحده يعطيه أهميه وقيمة في نظره.

*****

إبراهيم الذي كان والتر، وزوجتيه بتول ومودة، اللتان أصبحتا أعداء بعد أن كانتا إخوة، ثم جاء السجن فأعاد أخوتهما، مقيدون جميعًا في الصحراء، لا يعرفوا شيء عن ما سيحدث لهم، بتول ومودة ممتلئتان بالحقد على إبراهيم لسان حالهما يقول: أنت من جلبتنا إلى هنا، تصرف الآن، نحن لم نعش طوال حياتنا نبحث على الحياة لنجد فيها موتنا!

لم يتحدثوا، حينما تحدثت بتول، أمرها إبراهيم بالسكوت، ليس ضروري الحديث الآن يا رفيقة، يجب ألَّا تظهري لمن سجنك ما يدور في رأسك، هذه أول معلومة يريد معرفتها عنك، لذلك علينا أن نصمت، كانت بتول تصمت مجبرة، والتر كان في سلام نفسي أن ما سيحدث سيحدث، أن تمر بكل المشاق يجعل منك إنسانًا لا تكترث بشيء، وربما يجعل منك إنسانًا تكترث لأتفه شيء!

ليلتان بدون طعام ولم يجوع برغم أن معدته تتمزق من خوائها القاتل، ظمأ فأدار وجهه في السموات متقلبًا، تذكر تقلب وجهه في السموات حينما طلب الحقيقة أول مرة، الآن لا يهمه شيء، الآن اليقين يملأه، يظن أنه خاض غمار الحروب كلها، الحرب كلها كانت في نفسه، سألته مودة في لين: ما الجدوى؟ ما الجدوى من كل تلك الرحلة؟

أجابها: تأدية فريضة الحج.

تابعت السؤال: أليس لمن استطاع إليه سبيلا.

شرد، شرد في معنى أعماق سؤالها، في دافعه الحقيقي لتلك الرحلة، كانت الرحلة هي إجابة على سؤال في داخله يكاد يهلكه، هل كان سيؤمن لو كانت لم تنته كيفاد؟ لو كان مازال برتبته وبسلطته، هل كان سيتغير؟

هل كان سيترك كل هذا ليذهب إلى غيره، كان يريد أن يترك المنطقة الآمنة لكي يثبت لنفسه أنه كان دومًا قادرًا على ترك المنطقة الآمنة.

حينما رأى البيت الحرام لأول مرة طلب من الله الاختبار الحقيقي، لم يكن يعتقد أن مجرد ترك مكان آمن إلى مكان لا يعرفه يكفي للاختبار، الآن هو يعتقد أن هذا هو الاختبار، يصبر ولا يسخط، دومًا القلوب التي مارست قلق اليقين، التي لم تولد على العقيدة التي اختارتها، التي تحركت من أقصى اليمين لأقصى اليسار تحتاج للثبات، تحتاج لأن تهدأ حتى تتشرب كل موقف فكري يمر عليها.

مودة تزداد حنقًا بعد حنق على الجميع، إنها لا تعرف لماذا عليها أن تتحمل كل هذا، كل ما تعرفه أنها تحب والتر، إنه الوحيد الذي معها، هل لو كان هناك آخر لكانت أحبته، لا تعرف، فقط هي تزداد غضبًا، كلما غضبت فقدت القدرة على التصرف، قطع عليهم كل هذا أن جاء حفنة من الرجال الذين اعتقلوهم، فكوا قيدهم، وتركوهم، لم يتحدثوا إليهم، تركوهم وغادروا، انتظرهم إبراهيم وزوجتيه، ولكن لم يأت أحد، أن ينتظر المسجون السجان، أن لا يكون له حيلة في الهرب، تعجب إبراهيم من نفسه، لماذا الاستسلام إلى هذا الحد؟!

لم يعرف مغزى ما حدث، ويظن أنه لا يعرف، لم يعد لهم أثر، كأنهم من غير بني الإنس، أين يذهب؟!

سألته بتول السؤال ذاته: أين نذهب؟

أجابها: لا يجب أن نذهب إلى أي أرض، يجب أن نبقى هنا!

كادت بتول أن تنفجر، ومودة أن تختنق غيظًا، هتفت مودة غيظًا: نبق هنا!

ثم تابعت مودة: هل نحن نمتلك أدمغة متخلفة لدرجة أن نبقى لكي نموت هنا!

شرد إبراهيم في كلمة الأدمغة المتخلفة أكثر من شروده في الرد، تذكر حينما كانت كيفاد تجلب له المتهمين ليحاكمهم، كانوا دومًا ينعتونهم بالأدمغة المتخلفة، كانوا قليلي الذكاء حقًا، ولكنهم كانوا أقوياء العقيدة بشكل لا يمكن أن يتصوره أحد.

نظرت له مودة وبتول استعجابًا، أصبحا يغالبهم الظن أنه أبله، اقتربت منه مودة، وضعت يدها على رأسه وأحنت عليه، ربما عانقته بعينيها قليلًا، همست:

-ماذا يدور في عقلك؟

أجابها: أبحث عن الحقيقة.

مودة: ألا تراها بعد كل هذا؟

تجهم: ما يدريني؟ الحواس كاذبة يا رفيقة!

مودة: القلب ليس بحاسة، ماذا ترى في عينك حينما تغمضها يا إبراهيم!

عبرات تتساقط منه دون مقاومة: ظلام وخيط وحيد من النور!

أحنت عليه:

- أين منبع خيط النور؟

- من هناك من البيت الحرام.

- ألا ترى ما حدث لنا فيه؟

- ماذا حدث؟ نحن بخير. أنخشى مما لا نعلم؟!

- ألا تعتقد أنهم سيعودون لقتلنا؟

- هل يغادر المحب حبيبه خوفًا مما سيحدث منه!

- كأنك تتسلم للهلاك؟

- أيكون الهلاك على أيدي من تحب؟!

- هذا حجر لا ينفع ولا يضر.

- هذا الذي أخرج العباد من عبادة الحجر والشجر إلى عبادة رب الحجر والشجر!

- إلهك يأمرك بالبقاء هنا؟

- قلبي لا يريد أن يغادر.

- فلتطع قلبك.

شجبت بتول الحديث عليهم، مستهجنة:

-أجننتِ أنتِ أيضًا؟

خاطبتها مودة بالعقل:

- اسمعي يا بتول، لا يفلت الصياد إلا الفريسة التي لن تهرب من مرمى صيده، نحن لم نهرب من هؤلاء، هم من أفلتونا لذلك هروبنا من بقائنا متساويان في احتمالات هلاكنا، فلنمت إذًا أحدنا نفسه مستريحة!

استمعت بتول أكثر إلى صوت العقل فهدأت.

مر أكثر من أسبوع وهم باقون، في اليوم الثامن جاءهم الخاطفين، عرفوا أنها قد حانت لحظة النهاية فلم يقاوموا، انتظروا أن يقيدوهم فلم يفعلوا.

شعرت مودة بشيء من العته، أن تستسلم لقاتلك بتلك الطريقة هو الخبل ذاته، هي لا تعلم غاية لحياتها سوى أنها تتبع إبراهيم!

مودة تقول لنفسها على الأقل إن مت فإن الجنة تنتظرني، هي مؤمنة برغم غيرتها من بتول!

لم يقتلوهم، ولم يفعلوا بهم شيء، فقط اقتادوهم إلى مكان آخر حيث زعيمهم، الزعيم لم يكن يزيد عن هؤلاء الرجال في شيء، رجل بدوي من العصور الوسطى، يرتدي ثوب أبيض وكأنه من الثلج، ويغطي رأسه بشماغ

أحمر وعقال أسود ويربط على صدره حزامًا للرصاص يشكل حرف الإكس في اللاتينية وعند خصره سيف غمده مطرز بالشهادتين في طوله.

يبتسم إبراهيم حينما يراه، يتعجب الزعيم مما يرى، يتساءل:

-فيما الابتسام؟

يتحدث بعربية فصيحة، يزداد ابتسام إبراهيم، يشعر أنه قد تلاقى مع من يريد، يزداد غيظ الزعيم من تلك الابتسامة، ربما يزداد معها قلقه، يسعل حتى يكاد يقذف رئتيه في سعاله، يبصق في خرقة بالية يخرجها من جيبه، يقترب إبراهيم منه قائلًا:

- هل تسمح بمعاينة ما تبصق؟

يوجس الزعيم خيفة قبل أن يريه ما قد سعل، بصاق مختلط بالأحمر، يراه إبراهيم، يخبره أن يسمح له بفتح شيء من متاعه، يأذن له بدافع من معرفة ما وراءه مختلطًا بشعور من الحيطة وشيء من الترقب، يُخرج إبراهيم شرابًا قد صنعه من بعض النباتات، ثم يخبره قائلًا:

-تفضل، هذا هدية لك، في هذا الشراب دواء لك!

مودة وبتول لا تعلمان من العربية الكثير ولكن يكادا يفقدا عقلهما أو يعتقدان أن إبراهيم قد علمهما شيئًا غير العربية!

يأخذ الزعيم الشراب، يسكب فيه لكلب صغير يعسكر أمام مخيمه للحراسة، ثم يترقب ساعة كاملة والجميع يتوقع سقوط الكلب ميتًا، لم يتغير شيئًا في الكلب أبدًا.

يطمئن الزعيم ويسأل إبراهيم:

-من أنت؟!

يجيب إبراهيم:

- اسمي إبراهيم، أحد الناجين من كيفاد.

الزعيم: هل انتهى ذلك الخراب من العالم، ربما لذلك أمطرت في الشهور الماضية!

إبراهيم: قصتي طويلة، أشر تريد بي أم خير؟

الزعيم: نحن لا نريد الشر إلا لمن أراد الشر بنا، الشهور الماضية حدث ما لم يحدث في العمر كله، وعمر الأباء والأجداد أيضا.

قص إبراهيم عليه قصته كلها منذ أن شهد هذا العالم إلى تلك اللحظة التي هو فيها، اندهش الزعيم ولكن لم يكن بقدر دهشة إبراهيم حينما علم بقصة هؤلاء القوم، هؤلاء القوم هم عربان تائهون في الصحراء منذ فجر التاريخ، لم تستطع كيفاد أن تنقلهم أو تقتلهم، المنطقة الخضراء لم تقصف بأي نوع من القنابل أثناء الحصاد الكبير الذي قامت به كيفاد، هرب هؤلاء إلى الجبال فرادى وبيوت، إنهم يعرفون الشعاب كما يعرفون خطوط أصابعهم، زعيمهم هذا يرجع نسبه إلى شيخ من هضبة حضرموت يسمى خالد العولقي، أخذ معه ستة أرطال من القات ومثلهم من الخبز المجفف وصنع صهريجًا للماء في كهف أحد الجبال وعاش قرابة ستة أشهر يحمل سلاحه ويقتل كل من اقترب منه قنصًا، اعتقدت كيفاد أن الغبار الذري على الأقل سيقتلهم، ولو نجوا إنهم بلا شيء، في وسط شرق أسيا أيضًا فعل الأفغان مثلما فعل هؤلاء العربان ولكن كيفاد محت أفغانستان ودول جوارها من على الخريطة بالسلاح النووي، هناك جبالًا كاملة تم نسفها لاشتباه وجود أحد الأفغان على بغلته متربعًا فيها، برغم قوة الجذور الاجتماعي لتلك المناطق حتى اللحظة الأخيرة لم قبل كيفاد إلا أن السلاح لم يرحم إلا ثلاث بقاع، الأولى كانت القدس الشريف ولكن تلك المنطقة قتل كل من فيها وهرب الباقون إلى كيفاد، حيث كان الصهاينة أول من هاجر إلى كيفاد، وأول من صعد بعد أن تركوا ديانتهم كاملة ولم يتبق إلا أحبارهم الذين ماتوا في طوفان بيروت، البقعة الثانية كانت الفاتيكان حيث تحولت إلى متحف كبير، يضم ملايين كتب التاريخ ولم يتبق إلا الرهبان. الذين ماتوا بعد عدة عقود لكي تعشش العناكب في صوامعهم،

والمنطقة الثالثة كانت هي المنطقة الخضراء والتي كانت منطلق السفن من على الساحل الواصل بين جدة وينبع، كان هذا هو الجنون الكامل الذي حكاه جدي الرابع عشر لنسله حتى وصل إلينا!

بعد انتهاء القصص تحدث الزعيم العولقي قائلًا: لقد تجمعنا بعد أن توقفت الطوافات والماسحات عن القدوم، تمركزنا حول البيت الحرام، نحج إليه كل عام ونؤنسه إلا هذا العام، حينما جئتم لم نحج، انتظرنا نعرف من أنتم، ولما علمناكم لستم أهل حرب جلبتكم إلي!

أجابه إبراهيم:

-هل لنا أن نعيش بينكم ونكون منكم!

نظر إليه العولقي:

- أليس أن تأخذنا أنت لتلك القاعدة التي جئت منها فيكون لنا معيشة أفضل!

أجابه إبراهيم:

-هذا المكان هو الشر بعينه، أنت لا تحب أن تذهب إلى هناك، قد تجد بعض وسائل العيش المرفهة، لكن مشقة الصيد وعرق البحث عن الماء أهون مئة مرة من شيء مثل السجن الضوئي الذي حكيت لك عنه!

جادله العولقي:

- نأتيك بالدليل فتصف له الطريق ونسير وابقى أنت هنا!

حدثه إبراهيم عن فظائع كيفاد وعن أهوالها، عن من أين جاءت السيدتان التي معه، كيفاد لا ترحم أحد أبدًا، لا تحاول أن تفر من تلك الحقيقة!

اقتنع العولقي، ولكن معرفته أن هناك بشر آخرون ما زالوا على قيد الحياة ويمكن الوصول إليهم، ألهبت كل تفكيره وحماسه، لقد عاش طوال عمره يفر من تلك الحقيقة أنهم يستطيعون أن يفتكوا به، فلم علم أنهم انتهوا، أراد أن يذهب إليهم، يريد أن يعلم حقيقة الشبح الذي هرب منه طوال حياته!

لكن إبراهيم نهاه عن ذلك، أقطعه العولقي قطعة من الأرض في منطقة تسمى محبس الجن، هي عبارة عن أكوام من فنادق متهدمة وجبال مليئة بالأنفاق ومحطات الطائرات ذات المحرك النووي من الجيل الخامس عشر، البيوت شبه المتهدمة كثيرة، أعطاه العولقي تحت إمرته من الرجال ما يستطيع به أن يشيد بيتا له من بقايا تلك البيوت، فعل ذلك في ما يقارب الشهر.

مودة وبتول اللتان انتقلا من حالة السأم من تصرفات إبراهيم إلى حالة جني ثمار أفعاله، استراحتا تمامًا، تنفسا الصعداء بعد الموت اختناقًا، لله الأمر كله من قبل ومن بعد.

*****

أسوأ ما يمكن أن تعيشه في حياتك أن تكتشف أن حياتك قد ذهبت دون داعٍ لشيء، أن كل ما كنت تؤمن به كان كفرًا، أن تجد نفسك وحدك مع عقيدةٍ هشة، إن العقائد القوية هي العقائد التي تعيش مع الإنسان وإن كان وحده، أما هو فقد تركته حتى عقيدته، يشعر أنه بائس لا يستطيع التقدم خطوة ولا التأخر خطوة، عالق في اللا شيء، حينما يأتي عليه الليل يهيم في الصحراء المحيطة بالقرية وحده ليجد شيئًا ينقذه من اللا شيء هذا فلا يجده!

آمن كل قومه إلا هو، أحيانًا يذهب إلى القرية التي كانت قريته، ينظر إلى طلال ومهند فيتعجب من أمرهما، كيف يتركان الذين كادوا يقتلوهم؟ من أين لهم بتلك الثقة في القدرة على العفو، إنهم كسبوا كل شيء، هو كافر بهم وبعقيدتهم، نعم لم يعد يؤمن بكل شيء تربى عليه في سجنه المقيت، ولكنه لا يستطيع أن يؤمن بشيء فيما بعد الحرية أيضًا!

لا يؤمن... لا يؤمن، يكررها لنفسه كأنه يتكلم عن غريب لا عن نفسه في اليوم ألف مرة: لا يؤمن لا يؤمن لا يؤمن!

الصحراء التي تحيط بقرية مهند وطلال قاحلة، هو لا يعرف كيف قدما من الأساس إلى هنا، لا يملك أن يغادر، كأنه مسجون في سجن كبير، يحن لأيام السجن، كان مؤمنًا تمامًا، كانت لحياته هدفًا حتى لو كان مزيفًا، يتمنى الموت

في كل لحظة، رفاقه الذين آمنوا في البداية كانوا من أشد المؤمنين في السجن، كيف تحولوا هكذا؟

الذين آمنوا بعد الإنقلاب على مهند وطلال، بعد ذلك العفو، يستعجب منهم أكثر، توقع منهم أن يقاتلوا إلى النهاية، أن يموتوا على ما عاشوا عليه، شاهد تزعزع عقيدته في نفوس من آمن بها!

لم يطق التحمل فقرر قتل نفسه، منعوه، كأنهم حكموا عليه بالموت البطيء، - لماذا أعطاهم العهد؟

-لماذا لا يخالف العهد الذي أعطاهم إياه؟!

-لقد حاولوا إقناعه كثيرًا بالإيمان ولكن قلبه لا يلين، لقد شاهد زيف الإيمان بعقيدة باطلة طوال حياته في السجن، فما أدراه أن هناك عقيدة أخرى صحيحة؟!

-لماذا لا يكونون مثل من أقنعوه بالزيف في السجن!

تقرب من أحد رفاقه القدامي في السجن، كان من أول الناس الذين آمنوا بما جاء به طلال ومهند، حاول كثيرًا أن يقتنع بكلماته، ولكنه لم يستطع أن يقنعه بشيء، لقد كان حديث عهد بالإيمان فلم يكن لديه الأدلة العقلية الدامغة، كان يمتلك قلبًا لينًا وحسب.

ولكن تقربه هذا لم يكن بهدف أن يؤمن أو يكفر من الأساس ولكنه كان يطمح في شيء آخر.

-إنه في النهاية اقتنع أن الشيء الوحيد الذي يجب أن يؤمن به هو أن يغادر، عليه أن يتعلم كيف يغادر، كيف يسير في قحل تلك الصحراء وحده!

لذلك تقرب من هذا الرفيق القديم، يريد أن يسأله كيف قضى طلال ومهند أيامهما في الصحراء، وهم مطاردون، وفي حالة حرب بتلك الطريقة، إنه لا يستطيع أن يسير بعيدًا عن القرية بطريقة تغيب فيه أضواء القرية عنده، حينها

لن يستطيع العودة، والصحراء متشابهة، كيف عرفا مكان القرية بهذه السهولة؟

-الالتفاف حولها كيف؟

-المناورة؟

-ماهو الفن الذي في رأسهم؟ يمكنهم السير في الصحراء بدافع الصداقة كان يحبيه صديقه بكل ما لديه من علم تعلمه من طلال ومهند؟!

-علم أن اللغز يكمن في السماء، حتى دون الطائرات الصغيرة، تلك الأشباح التي يصنعها طلال ومهند، ينظران إلى النجوم ويهتديان بها!

الحل دوما في السماء عند هؤلاء المؤمنين!

تعلم الكثير عن الهدي في الصحراء، بدأ بمحاولة صغيرة، خرج في الليل مسيرة ست ساعات في الصحراء حتى غابت القرية تمامًا عن مدى بصره، ثم عاد وحده وكرر تلك التجربة مرتين أو ثلاثة بتجارب مختلفة ومن مواقع مختلفة من القرية، كاد يحفظ كل حبة رمل في الصحراء المحيطة بالقرية، يوميًا يغادر في الليل على مدار أكثر من شهر، قام برسم العديد من العلامات حول تلك المنطقة، لم يلتفت له أحد، فقط قلق طلال من غيابه في النهار دومًا فأخبره رفيقه أنه يحيا بالليل وينام طوال النهار، تعجب مهند حينما سمع ذلك، لم يعلق إلا بكلمة: كفر بكل شيء، حتى في سنة تعاقب الليل والنهار!

استردف طلال: لست عليهم بمسيطر، فقط لا تمل منه يا أخي، لا تمل منه!

خرج المنتحر، تنكر من رقمه الذي كان له في السجن فلم يعد له رقم، ولم يتخذ له اسم بعد إيمان قومه، شعر إن اتخذ اسمًا أنه يشابههم في شيء، فسمي بصفته، بفعله الذي ميزه عن قومه: المنتحر!

غادر من اللا شيء إلى اللا شيء، يحاول الوصول من حيث أتى طلال ومهند!

يسير في الليل ويأوى في النهار إلى أي كهف مظلم، إن كانت السماء غير صافية لا يغامر بالحركة ويبقى، ابتعد كثيرًا جدًا، يريد سيف البحر الذي أتى منه طلال ومهند!

الصحراء تصنع في الناس مالا تصنعه غيرها من البيئات، من يعيش حياة الصحراء يعرف قيمة كل شيء، ولكنه لا يستطيع أن يحمل كل شيء فيتخفف دومًا، كلما وجد بئر تزود بالماء وتزود بطريقة الاهتداء إليه كل ليلة.

ولكن السفر دون وجهة دومًا طويل، لا يعرف متى يصل، ولا يعرف كم بقي له لكي يصل، يشعر أنه تائه حتى لو علم الطريق!

يأتيه في جنح الظلام مالا يقوى بصره عليه ولا يستطيع تفسيره، لا يستعين بشجاعته بقدر ما يستعين بلا مبالاته!

ذئاب الصحراء تعوي عواءً طويلًا يشير إلى خواء أمعائها واقتراب عشائها، فيتشرس في الدفاع عن نفسه، يستأسد حينًا ويواجه، ويستذئب حينًا فيهرب، يموج في الصحراء بقلبه، يتقلب بصره في سمائها، القلب لا يمتلئ في ساعة واحدة، وقلبه ليس خاويًا فحسب، بل إن وعاء قلبه ذاته مفرغ من داخله، لا يستقر فيه سائل ولا صلب، كل ما يمكن أن يستقر هو الرياح، والرياح لا تثبت قلب يا رفيق، القلوب التي ملأها الرياح هي سفن بالية لا وجهة لها.

بعد شهور في العراء وصل إلى الشاطئ، شاهد البحر لأول مرة في حياته، لم يشاهد البحر منذ أن خلق، عرف أن من هنا جاء مهند وطلال، سار بمحاذاة الشاطئ، وجد الغابة الصغيرة التي عسكرا فيها، هو يعلم الآن محطة انطلاقهم إليه!

لم يكن يكذب مهند وطلال، هناك البحر الذي وصفاه لقومهم، وهذه هي الغابة الصغيرة التي جاءا منها، بحث أول ما بحث عن الكتب التي تحدثوا عنها، هذه أول مرة يشاهد الكتب، لقد عاش حياته كلها لا يفعل إلا الأشياء نفسها، يشاهد المصحف الشريف ولا يمسه، لا يحاول أن يقرأ حتى الكتب المكتوبة باللغة العالمية، برغم أنه تعلم القراءة، لكن لا يقرأ ولا يقترب، يبتعد

ثانيةً عن المكتبة، يذهب للبحر ويرى تقلب موجه، أحيانًا يكون هادئًا، حينما يكون البحر هادئًا فالجميع قبطان جيد، يدخل إليه فلا يجيد السباحة، يسير وحسب على قدميه، يشعر بالرعب الشديد والسعادة الشديدة، في لحظة تشتد حركة المد فيهرب إلى الشاطئ، هنا هو ليس قبطانًا بالمرة، يأتي عليه الليل فيخاف من شكله، لا يعرف كيف يخاف منه وقد رآه نهارًا، ولكن عتمة البحر في الليل غاية في الرعب، لا يرى شيئًا، يأتي صوت الذئاب ليكتمل الرعب، خيالات تتحرك أمامه، يُشعل نارًا، يترك دفئها يحلق عليه، استمتع بالحياة وحده، يفكر في أن يعبر البحر كل يوم، ولكن حياته تمنعه، يفكر في أن يمضي عكس حركة طلال ومهند لعله يجد ما لم يجدوه!

لم تعطه الأيام أكثر من ذلك، مشى على ساحل البحر، عطش أيام وارتوى أيام، بعد مسيرة شهر أو أكثر فوجئ بما لا يمكن أن يتخيله!

*****

جثث الثوار كانت معلقة في الشوارع، الناس تنظر إليها، الجميع يعلم أنه غدًا سيصبح في مكانهم، ثلاث ليالٍ متواصلة وسوالكوفا تفعل الأفاعيل بجثث الثوار، لدرجة أنها قامت بسلخ الجثث وحشوها من قش القمح لزيادة التمثيل بها، ما يضير الشاة سلخها بعد ذبحها!

كلما قامت حمية لرجل أخذوه ونكلوا به، أعادت النظام للمدينة من جديد، ولكن هذه المرة استحدثت الجيش، الآن أصبح يمكنها أن تصنع جيشًا، كان جيشًا صغيرًا ولكنه كان معزولًا خارج المدينة في معسكرات للتدريب يشرف عليها من تثق به!

التجنيد إجباريًا لكل الشعب، هناك منظمتان للتجنيد، المنظمة الأولى هي منظمة الشباب وهي خاصة بتجنيد الأطفال من سن الثانية عشر إلى العشرين عامًا لم يكن بها الكثير من الناس، فالمدينة لم يمت جيلها الأول بعد ولم ينضج جيلها الثاني والمنظمة الثانية هي منظمة التجنيد الحديث وهي بها الضباط العاملون الثقات، الدولة كلها جيش، الجميع مدربون للقتال!

في كيفاد لم يكن هذا موجودًا، كان الجيش بسيطًا ذلك لأنه لم يكن هناك عدوًا لكيفاد، العالم في كيفاد كان قطبًا واحدًا وحكومة واحدة ولا عدو إلا الشعب!

انتهت فكرة ألوهية سوالكوفا، ولم يكن هناك دين للناس، الدين هو المادة في بلاد الطغيان، حيث الجميع يدين للقمة عيشه، للبحث عن الوجبة القادمة، للبحث عن الفريسة، للإنتهاء من الواجبات القومية من الحراسة والتشييد والتصنيع!

في أحد تجارب صناعة المدفع قامت سوالكوفا بالحضور بنفسها، لم يكن المدفع الأول لكنه كان الأحدث والأكثر تطورًا، وقفت سوالكوفا لتعطي الأمر بالإطلاق، قام آمر الإطلاق بتوجيه المدفع نحو مجلس سوالكوفا، همَّ بالإطلاق فانتبه لذلك أحد القادة، أطلق النار على آمر المدفع، ارتبك الجميع، نجح آمر المدفع في الإطلاق نحو سوالكوفا، ولكن طاشت القنبلة لكي تكتفي بإصابة سوالكوفا بدلًا من قتلها، جن جنون سوالكوفا، قبضوا على جميع من اشتركوا في الإطلاق برغم أن الأمر كان من تدبير آمر المدفع وحسب، ولكن لم تصدق هذا سوالكوفا بالطبع تعرضوا لعمليات تعذيب أمام الجماهير، صنعت سوالكوفا ميدانًا سمته بميدان كيفاد الوطني، تفننت في تعذيب المعتقلين لكي يعترفوا، أوقدت النار على صفائح من حديد، وأمرتهم يمشوا حفاة عليها، رائحة شواء اللحم البشري وهو يذوب، محاولة الهرب كانت مريعة للجميع، أجاعت الكلاب البرية وأطلقتها عليهم، تنهش لحومهم، والدماء تتناثر في الفراغ، تخبر النور أن الظلام تحول لونه إلى اللون الأحمر، جلبت خطاطيف من حديد وغرستها في اللحم لتثقب بها الشريان الفخذي أو ما أحاطه ثم تعلقهم بها لينزفوا حتى يقاربوا الموت، ثم تأمر الأطباء بمعالجتهم، ثم تعيد عليهم الكرة، تفننت بكل الطرق في القتل، اعترفوا بكل شيء، ولكن هي لا تريد اعترافاتهم، إنها تعلم أنها اعترافات كاذبة لكي ينتهوا مما يحدث لهم، ولكنها تريد أن تمحي من العقل الجمعي

لهؤلاء الأفراد حتى فكرة قتلها، إنها تنجو في كل مرة لكي تثبت للجميع أن الشيطان هنا، وأنه جاهز للقتل في أي لحظة.

بعد حفلة تعذيب كاملة لمدة شهر، أمرت أن ينادى في القرية للخروج للحرب، جمعت جيش مكون من مئة جندي عليهم عشر ضباط من الذين تثق فيهم، أخذت زوجات الضباط والعساكر وأولادهم رهينة، اشترطت أن تكون الحملة لضباط لديهم أولاد، القائد العام للحملة كان ضابطًا وفيًا، تدريبه يعتبر راقي لأن تدريبه في الفرقة التي كانت تشرف عليها سوالكوفا بنفسها، لذلك هو من النخبة، هو يحمل شرف انطلاقة الجيش الأول لكيفاد الثانية!

إنه لا يعرف ما العدو الذي يحاربه، ولكن سوالكوفا وقفت تخطب أمام الجميع قبل تحرك الجيش قائلة: إن عقيدة كيفاد تنص على أن سيطرة كيفاد عند نصل آخر سيف يمتلكه جندي من جيش كيفاد، لذلك نحن نخرج للحرب الأولى التي ستبدأ أمجاد كيفاد من جديد، لقد منحتنا كيفاد الحياة، وعلينا أن نمنحها نفوذًا أكبر من الحياة، أن نمنحها الأرض التي تحتاجها لكي تنمو مجددًا!

تخرج الحملة وتسير خمسة أشهر في اتجاه الشمال، ثم تعود الحملة في الاتجاه المعاكس، خمسة أشهر يكتمل فيها القمر خمس مرات ثم خمس للعودة تلك عشرة كاملة، إن تأخرتم عن ذلك حقت عليكم لعنتي ولعنة كيفاد ويخرج الجيش الباقي لقتل كل من تبقى منكم، وتقتل نسائكم ويصبح أطفالكم عبيدًا لبقية جيش كيفاد!

كل من تواجهه الحملة إما أن يخضع ويأتي خاضعًا لكيفاد، وإما أن يقتل وتأتيني الحملة برأسه، لكي نزين بها عرش كيفاد وليصبح رمزًا لقوة كيفاد الأبدية!

٩

كلنا تائهون في هذه الأرض

ولكن ماذا لو كان اليقين هو ما أخاف منه؟

أيكون غير يقين يا رفاق؟

هذا الجيش يقين، وعلينا أن نخاف، علينا أن نخاف الآن

أرؤية الموت ليس بيقين؟ نحن نوقن أننا موتى ومع ذلك نخاف؟

نحن لا نخاف الموت، نحن نخاف ما بعده ولو أننا آمنا بما بعده ما خوفنا!

* * * *

التائهون يتحدثون:

التائه الأول

كتب يتحدث عن نفسه:

تشارلي هاريس هذا هو اسمي الذي أعطتني إياه كيفاد بعد رقمي، رقمي كان ١ ١ ٣، لقد جلست فترة إلى أن أعتاد على هذا الاسم، كيفاد أعطتني هذا الاسم منذ أن خرجت من السجن ووجدتني القائد سوالكوفا، في البداية اعتقدنا أنها إله كما أخبرتنا، ثم قالت أنها بشر ولكنها في منزلة الإله بعد أن

قامت الثورة ضدها، يوم الثورة كان يومًا عصيبًا، هي تسميه تمردًا، ولكنه كان ثورة، ثورة ضد الظلم الذي وجدنا أنفسنا عليه، لقد عشت طوال عمري في السجن أنتظر يوم الخلاص، أنتظره بفارغ الصبر، قالوا أن هذا لم يكن سجنًا، كان مصنعًا للرجال، حتى تأتي النخبة التي يمكنها أن تصنع عالمًا جديدًا، كان المحظوظ في هذا السجن هو من يولد من أم طبيعيًا، كانت أمه بائسة لأنهم كانوا يأخذون رضيعها منذ اللحظة الأولى في حياته، ولكنه كان ينشأ على الأقل وهو يعرف أن له أم وأب وليس مخلق داخل رحم امرأة اصطناعيًا، كل الذي حدث في السجن لا يمكنني تذكر معظمه، لقد كانوا يعطوننا أدوية تساعد على فقدان الذاكرة قبل الخروج بأيام، لولا أن النظام كان قد تخرب ولم يعد يلاحظ كثير من الإنحرافات التي تحدث لولا ذلك لفقدت ذاكرتي كليًا، كيف يمكن للمرء أن يفقد ذاكرته، أن يضحي بتاريخه وحياته كلها من أجل النعيم، نعم لقد قالوا لنا أن النعيم يتطلب أن تنسى كل الألم الذي حدث في السجن، ولكن لم أصدق؟

النعيم هو ما يجب أن يُنسيني الألم وليس تناول دواء، إذا لم ينسني النعيم الألم، لا يكون نعيمًا بالقدر الكافي، في الحقيقة بدأت حياتي حينما خرجت من السجن، سوالكوفا أعطتنا حياة، لم أسأل عن مدى حقيقتها، حتى حينما قامت الثورة برغم من قناعتي بأنها أوجدت نظامًا أكثر عدلًا، لكني لم أشارك، لم أرد أن أشارك، إن جاء التغيير كنت سأرحب به، ولكن إن فشل، فلا مانع عندي من البقاء، كنت أريد الأمان وحسب، ألا يكون هناك منشار، ألا يكون هناك خوف، أن أتزوج وأعش حياة طبيعية، لقد كان من المفترض أن يقتلوا في السجن، لذلك حينما هربت شعرت أنى دخلت الجنة!

تعلمت القراءة والكتابة بمجهود مضنٍ خلال فترة السجن، قمت بفك شفرات الحروف المكتوبة والمسموعة، سوالكوفا انبهرت بذكائي حينما علمت أنني أجيد الكتابة والقراءة برغم أنهم ممنوعون في جمهورية كيفاد الثانية ولكنها أعجبت بذلك.

في الظاهر أنا جندي مخلص ومنضبط، لا أخالف التعليمات، لم أعلن حقيقة أن قلبي انفطر من أجل الثورة، لم أعلن لأحد عن ذلك الجهاز اللوحي الذي وجدته في ثنايا الصحراء، لقد قمت بشحنه بالطاقة من جديد، سرقت الطاقة من معمل سوالكوفا، ثم تعلمت كيفية صناعة مولد للطاقة، يتطلب الأمر أكثر من ثماني ساعات من العمل لكي أقوم بتشغيل هذا الجهاز لمدة ساعة واحدة، أستخرج ما فيه، هناك لغات غريبة كان يتحدث بها العالم، هناك الإنجليزية الحديثة، وهناك الإنجليزية القديمة، وهناك العربية والصينية والهندية، حاولت فك رموز الصينية ولكني فشلت فشلًا ذريعًا، ولكني وجدت دروس للغة العربية والإنجليزية فتعلمتها، بدأت فك رموز اللغتين، وجدت كتبًا وأشعارًا، الثورة لم تكن فكرة شيث ووضاح وحسب، كان هناك المزيد من الثوار في العالم القديم

هناك قصيدة لشاعر يسمى أحمد مطر تقول: ~

المجد للشيطان.. معبود الرياح
من قال " لا " في وجه من قالوا " نعم "
من علّم الإنسان تمزيق العدم
من قال " لا " فلم يمت،
وظلّ روحًا أبديّة الألم!
معلّق أنا على مشانق الصباح
وجبهتي – بالموت – محنيّة
لأنّني لم أحنها.. حيّه!

لا أعرف من الشيطان؟

لا أعرف ولكني أتذكر مشانق الصباح، أتذكر الجثث وهي معلقة في الشوارع، والرصاص وهو يثقبها، كنت قائد فصيل الإعدام عشرة، كان هذا

الفصيل مكلف بإعدام وضاح، يشنق ويرمى بالرصاص ثم يغرق في الماء حتى تذوب جسده وتتحول إلى اللا شيء!

وقف وضاح يقول كلمته الشهيرة إلى العالم:

ليس بعد موت الثوار حرية!

هذه الكلمات التي أكتبها، أكتبها وإن وقعت في يد أحد فسيكون مصيري عدم، سوف أُلقى في العدم، من يتذكرني وأنا وحدي؟

تعلمنا في مدرسة الضباط أن عليك أن تدرس الأرض قبل الهجوم وها أنا ذا أغزو أرضًا لا أعلم عنها شيئًا!

تعلمنا أن عليك أن تعرف عدوك، وسأمضي إلى عدو لا أعرفه!

تعلمنا أن علينا توفير الإمداد اللازم للجيش، وسأخرج في مئة رجل دون طعام، سأخرج إلى حيث لا وجهة، سأخرج لكي أصارع الحياة لمدة تقارب العام، إن عدت عدت بالمجد لسوالكوفا، وإن مت سأهلك لأني ضابط فاشل لا يجيد الحرب!

أنظر إلى الناس وهم يودعوننا، الناس لا تعرف ما نحن ذاهبون إليه، مسكينة هي الجماهير، في مخطوطة لجوستاف لوبون على اللوح الرقمي كان هناك كتاب يسمى علم نفس الجماهير، كان يحكي كيف يقوم بسياق الجماهير إلى الهاوية، وكيف التحكم بها، سوالكوفا قرأت هذا الكتاب على الأقل ألف مرة لا شك!

سنخرج للحرب، سآخذ تلك القصاصات معي، حينما أصل لأبعد نقطة يمكنني الوصول إليها، لعل كلماتي تسبقني، وتبقى مثل ما بقت كلمات هؤلاء على الجهاز اللوحي الذي وجدته، أرجو أن تذكرني، وأن تعلم أن هناك من آمن بالحرية والثورة حتى لو حاربها!

*****

التائهة الثانية:

تكتب عن نفسها:

لم يكن لي اسم إلا بعد معرفتي إيفان، كنت قبل ذلك لا شيء، حتى الرقم الذي كنت أنادى به في كيفاد الأم، التي لا يؤمن بها كيفاد، والتي لا أؤمن بها أيضًا، لم يعد أحد يناديني به، لم أعد أسمع أحد يناديني، إيفان فقط يناديني زهرة، لقد سماني على اسم الورد باللغة العربية، أصبحت زهرة حينما عرفت إيفان.

هذا الهواء الأخرس الذي أحطت نفسي به منذ أن قدمت إلى هنا ساعدني كي أكون أنا، الطبيعة التي تصمت للجميع أصبحت تتحدث لي، لم أشعر أنني منبوذة حينما لم يختارني أحد من هؤلاء القوم لأكون زوجةً له، ولو حتى زوجة ثانية، تمنيت ذلك في أعماق قلبي، لقد عشت طوال حياتي وحدي، لذلك أريد أن: أكمل الحياة وحدي، أنا حرة استنشق الهواء بحرية، سأعيش بحرية، وسأموت بحرية، إنني أرى الجميع مهرجين، ما عبثية البقاء في هذه القرية؟ الجميع يخبرني أنني غريبة الأطوار، لا بأس.

حياتي كلها ذات وتيرة واحدة، حتى جاء إيفان، رائعًا في كل شيء منذ اللحظة الأولى التي رأيته فيها، إنه يعلم عن الإنسانية الكثير، وزود تلك القرية بالكثير من وسائل الرفاهية، ولكن هذا لم يكن يعنيني في شيء، بل في كثير من الأحيان اعتقدت أن هذا هراء، ما جدوى أن يتغير الإنسان، ما جدوى الطب الذي يعرفه؟ لنمت في سلام دون أي محاولة للبقاء في عالم يحاربنا فيه المرض، لكني كنت أحب حينما يحضر، أحب مجيئه، وخطواته الرائقة، وطريقة حديثه، ولكنته الطفولية التي لا أعتقد أنها تطورت معه كرجل ناضج، إننا نعيش أزمان صعبة للغاية، فقط نحتاج من يحنو علينا، أن نشعر أننا ما زلنا بشرًا، أن يكون لحياتنا معنى، إن أنجبنا لا نخاف على ذريتنا من الهلاك بسبب تلك الحياة!

جاء إيفان، جاء ليزهر حياتي بعد أن كادت تسقط آخر وريقاتها في غضون ألا أمل من أن أجد الرفيق الذي يخرجني من الحياة أحادية البعد إلى حياة ملونة!

فعل إيفان كل شيء ليجعل حياتي ملونة، ولكنها لم تتلون، ما بداخلي أخاديد عمق السنوات العجاف كلها قد ملئت بالكثير مما أرهق أمري كله، لقد رأيت الموت في كل ليلة، بل سمعت صوت الموت ذات يوم، حينما أخذوا أمي، أمي كانت ملحدة بكيفاد، لم تكن تؤمن بها، وهي ما زالت في السجن، كنت طفلة، ربما بنت الست سنوات، واكتشف السجان الآلي أمرها، حينما سمعها تقول لرفيقة لها، إن هذا الهراء متى ينتهي؟

كانوا يقولوا عنها أنها ملوثة، جاء السجان والتقطها، سمعت بعدها صوت صراخ فظيع، صراخ لا يمكن أن يتخيله بشر، سمعت صوت تكسر عظامها تحت مناشير كيفاد الضخمة، الموت اختطفها مني، الجميع أخبرني أنني يجب أن أنضبط في سلوكي أكثر من أي أحد بعد ذلك وفعلت، ولكن في داخلي أكره كيفاد، أكرهها في كل لحظة!

عشقت الورد، وأهداني إيفان كل البساتين، مع ذلك أحببت الورد وخفت منه، صنعت العطور لأول مرة في تلك القرية، سموه ماء الورد، ولكن في السجن كان لدينا عطر واحد نحرص على استخدامه أمام السجان الآلي لكي يحافظ على نضارة بشرتنا لأننا لا نتعرض للشمس كثير، الشمس غابت عنا كثيرًا، استخلصت لإيفان خليطًا خاصًا من الياسمين الخالص قدمته له، أحببت رائحته حينما اختلطت برائحة الياسمين، استندت رأسي على كتفه، وغفوت في سنة من النوم!

الأيام ظلت هادئة، حتى جاء ذلك اليوم.

كنا نصطاد في البحيرة، المياه صافية، الصيد هو متعة إيفان التي لا يمل منها، ايفان يجيد اصطياد كل شيء، سمعنا بعدها صوت ارتطام شيء ما بالأشجار، اعتقد إيفان أنه حيوان ما أو شيء من هذا القبيل، لولا أننا سمعنا بعدها صوت يشبه تهشم الزجاج، إيفان وحده كان يعلم كيف يصنع الزجاج، كان لدينا منه كميات قليلة في قريتنا، لذلك من الصعب أن يلقيه أحد!

ذهبنا إلى مصدر الصوت، لم يكن زجاجًا، كانت زجاجة مصنوعة من شيء يشبه الخزف أو الحجر النقي ولكنها كانت صلبة لدرجة أنها اصطدمت بجذع من شجر البلوط دون أن تتحطم، كان بداخلها صحيفة، تلك الصحيفة مكتوبة باللغة العالمية، تحكي عن قصة شخص يسمى تشارلين هاريس.

حينما قرأها ايفان شعرت أن عينه تكاد تسقط من محجرها!

وجهه تحول إلى جمرة قد أوقدت عليها النار ألف عام حتى اسودت كأنه نار مستطر، أخذ الرسالة في عنوة ولم يودعني، لم يهتم أن يوصلني إلى كوخي، لم ينظر إلى عينيَّ بعمق، لقد توجه إلى فاسكو دي جاما، الأمر أخطر من الموت، لأنني كنت حياته، ولا أحد يترك حياته، سوى أن يخاف عليها من الموت. أنا خائفة للغاية، لذلك أكتب تلك الرسالة، ولكن لن ألقيها لأي مكان، ستظل هنا، حبيسة كوخي الصغير!

*****

التائه الثالث: ~

اسمي الشيخ العولقي، أعرف اسمي حتى ينتهي التاريخ، وربما حتى بعد التاريخ نعرف أسمائنا، نسكن جزيرة العرب أنا وقومي منذ المهد، يمتد نسلنا إلى إبراهيم عليه السلام، ربما إلى أدم في جزيرة العرب، شهدنا انكساراتها وثوراتها، شهدنا عصورها الزاهية وعصور الجدب، حتى جاءت تلك الأيام التي هرب فيها الأجداد، لقد دبروا لأنفسهم مخرج للنجاة بعد الهلاك العظيم، لم يرتادوا الأدمغة المشوهة، لم يصبحوا آلات، حافظنا على أنفسنا، لا يوجد أحد في العالم يعرف الصحراء كما نعرفها نحن، نحن من البادية، نعلم حبات الرمال كما نعلم زوجاتنا وأولادنا، حتى بعد ما جاء الطوفان، بقت تلك المهارة فينا، خندقنا في الجبال، أحد جدودي، لم يرَ النور إلا ساعات طوال حياته، خندق أكثر من عشر سنوات في الجبل، في تلك الفترة كان النظام العالمي أشبه بطاعون يريد أن يقتل كل من في الأرض، لا يريد سوى

الذين قبلوا به، في عصر غابر كان زعيم القطب الأوحد يقول: إما أن تكون معنا أو تكون علينا!

أما في عالم كيفاد فكان الطاعون المسمى القائد العالمي يقول: إما أن تكون معنا أو لا تكون من الأساس!

حينما بدأت الطائرات تتوقف، وبدأت المستشعرات التي طورها أخي الصغير تتوقف عن رصد تحركات لكيفاد عرفنا أنها النهاية، كنا على اتصال ببعض الشيوخ في شرق أسيا، وأفغانستان، ولكنهم أطلقوا عليهم الصواريخ النووية لكي ينهوا كل ما تبقى فيها من حياة، لقد أذاعوا على شاشات الهولجرام أن الحرب مازالت قائمة على الأدمغة المشوهة!

كنا أدمغة مشوهة بالنسبة لهم، وكانوا أدمغة مشوهة بالنسبة لنا!

كنا مقاتلين أشداء وما زلنا، صنعنا من بقايا الكهوف وركام المنازل بيوتًا تبدو في شكلها للأقمار الاصطناعية ركام، لقد حاصرونا أكثر من مرة باستخدام تقنيات الاشعاع الحراري، ولكننا قاتلناهم بشراسة، ذهب الكثير منا، ضاع الكثير من أولاد العم!

ثم جاء إبراهيم، قال إن اسمه كان والتر، قال إنه أسلم، حكي لنا عن دمار كيفاد، لم أصدقه وإن كنت رأيت في عينه الصدق، ولكن من عاش في الصحراء ليس كمن عاش في البحر لا يصدق بسهولة، الصحراء مثل البحر تكون هادئة، ثم في ثانية تُريك من الغبار ما يعميك عن رؤية كف يدك، يأتيك المطر كل عام، ثم يأتي سبعة أعوام دون مطر، حتى يجف الضرع عن اللبن وتموت الشوارد والأوابد في القحال، كيف يمكن أن أصدق؟!

هل كنا نستحق الحرب حقًا طوال السنوات الفائتة، دفع أجدادي كل ما كدسوا من ثروات فقط لكي ينجو بعضهم من كيفاد ويتركوا البيت الحرام آمنا ظلوا يدفعون، حتى جاء حُرًا وقال لهم بصوت عال: للبيت رب يحميه!

مع ذلك لم يجرءوا على الدخول هنا، مكة عليها الحراس الذين لا يراهم أحد، مكة عاصمة الرهبة في القلوب، ثمانين عامًا عشتهم على وجه الأرض وكلما

دخلت مكة أشعر بالرهبة، لم أصدقه حينما رأيته يحج، تلك الدموع لا تسقط في مكة دون حاجة حقيقية لها.

حينما أسرت إبراهيم وزوجتيه لم أصدقه أكثر، كيف عبر البحر هذا كله بقارب صغير، سوالكوفا تلك، كيف تمكنت منه إلى تلك الدرجة، إنها امرأة يستطيع أن يقتلها وانتهى الأمر، كيف عرف الله وحده؟!

الأيام كشفت صدقه، ولكن أريد أن يطمئن قلبي، أريد أن أذهب إلى تلك القاعدة التي يتحدث عنها، لا أريد سوالكوفا، لقد سمحت له بالبقاء بيننا، ولكن عليه أن يصف لي الطريق، سأذهب فأريد أن أرى شيئا ما غير الصحراء ولو مرة واحدة قبل الموت!

اكتب هذا لك يا بن العم قبل أن أخرج باحثًا عن تلك القاعدة حسب وصفك أيها الغريب، أنت الآن سيد ما تبقى من جزيرة العرب وخادم الحرمين الشريفين!

تسلم إلى السيد إبراهيم ليلقيها على القوم

تحريرًا في رجب ٢٤٥٠ من هجرة سيد الخلق أجمعين!

*****

التائهة الرابعة

اسمي مودة، هذا اسمي الذي أعطاني إياه إبراهيم، قبل ذلك كنت رقم، كنت مجرد شيء يملأ أحد الغرف في ذلك السجن الكبير، يقدم لي الطعام، لم أعرف للطعام اسم، لم أشتهي يومًا الطعام، كنت أحلم بيوم الخلاص، ذلك اليوم الذي نخرج فيه، كفرت بالسجن منذ بلوغي العقل، لم أصدق يوما كل تلك القواعد التي تم تلقيننا إياها، دوما علمت أن هناك شيئًا خطأ، في البداية أخفيت ذلك، مع الوقت عرفت أني لست وحدي، مع قلة سيطرة السجان علينا أصبح عددنا يزيد أو قل، أصبحنا أكثر جرأة في إظهار تمردنا، في نهاية الأيام تأكد للجميع أن ما يحكمنا هو مجرد آلة، مع ذلك بقي مجموعة كبيرة

على ما هم عليه، وبقيت على تمردي، زاد تمردي أكثر وأكثر، أصبحت أدبر للهرب، وفجأة تغير كل شيء، فُتح السجن، انطلقت الكبسولات، استطعت أن أُلحق نفسي ببتول، أختى الاقرب لقلبي في السجن، تركت مصيري ومصيرها يجتمعان في مركبة مغلقة يقذف بها إلى المجهول، لقد واجهنا نحن الاثنتان المجهول بقلب شجاع جاء إبراهيم، أحببته منذ اللحظة الأولى، رأيت فيه ما لم يره أحد، رأيت شيخًا ليس من تفاوت السنين على شيبات شعره، بل شاخ من تفاوت الأفكار عليه، كفيه ككتاب عليه مئات من الذكريات، وقدمه قد زادت أخاديدها وشقوقها حتى امتلأت بالخطى التي انتقلت به من شرق الأرض ومغربها، كطير حر لم يجد أرض يأوى لها بعد، ولكنه لم يحبني، أحب أختي بتول، رغم أنها لم تدخل دين الإسلام برغم شعورها بصدقه، وكانت تردد ما أدراني ألا يكون أساطير الأولين؟

لقد عاش كل من حولي مؤمنًا بالأساطير فكيف أؤمن وقد علمت أن كل مؤمنًا في الأصل كافرًا؟

نعم تزوجنا نحن الاثنتين وعدل بيننا، ولكن كان يميل إلى بتول، رغم أنها أصبحت لا تشبهه وأنا أشبهه، لكن لا أستيقظ لصلاة الفجر معه وأستيقظ بمفردى، وهي تقف إلى جواره لتراه وهو يصلي، لا أمسك بيده وأنا أذكر ربه، شعرت أني غريبة عنهم، هذا الدين حق، قلبي اطمأن. أتوه، وأتيه في غابات من الظلام الذي لا أعرف له نهاية، شاهدته وهو يحج، ازددت إيمانًا ولكن في عقلي شيئًا ما يرفض البقاء كذلك.

بعد ذلك وقعنا في الأسر، ثم تبين لنا قومًا آخرين لا أعرفهم ولكنهم يشبهون إبراهيم، هذا الدين يجعل القلوب تتآلف بطريقة غريبة ولكني شعرت أني وحدي، لا أحد يشبهني

طلبت من إبراهيم أن أنفصل عنه ففعل، كنت أول من آمن على يديه ولكنه فعل، فعل وهو حزين ولكنه فعل، ذهبت إلى العولقي زعيم القبيلة التي أصبحنا في حماها حينما علمت أنه يريد العودة إلى القاعدة التي كنا فيها،

طلبت منه أن أعود معهم، لو كان في هذه الحياة شيء، فهو أن أبقى وحدي ما تبقى من تلك الحياة!

أكتب تلك الكلمات لكي يعلمها أي شخص سيمر من هنا، سأضعها في زجاجة وأتركها حينما أجد البحر مرة ثانية، فقد اشتقت كثيرًا لكي أرى هذا المخلوق العجيب، لم أكن أتصور أن هناك في الحياة مثل هذا الشيء!

*****

التائهة الخامسة

اسمي كيرا، أنا الخائنة، نعم أنا الخائنة، حينما تقرأون رسالتي تلك تقولون عني إني الخائنة، وأني لا أستحق الأمومة، لقد هجرت طفلي الرضيع وغادرت، ذهبت إلى هذا الجيش الذي نعرف أنه جاء يطلب كل الدماء التي تقابله، ذهبت أنجو بنفسي حينما ألقوا علينا تلك الرسائل، اظهروا لكم الأمان، نعم طلبت الأمان، ولكن لم يكن مفر غير ذلك، ماذا يمكننا أن نفعل أمام عالم متوحش هكذا؟

لقد عشت طوال عمري أنتظر الحرية، وحينما جاءت الحرية جاء معها الخوف، الخوف من إيفان، ثم الخوف من هذا الجيش، الخوف، الخوف، الخوف

الخوف عدو اليقين يا رفاق

ولكن ماذا لو كان اليقين هو ما أخاف منه؟

أيكون غير يقين يارفاق؟

هذا الجيش يقين، وعلينا أن نخاف، علينا أن نخاف الآن!

أرؤية الموت ليس بيقين؟ نحن نوقن أننا موتى ومع ذلك نخاف؟

نحن لا نخاف الموت.. نحن نخاف ما بعده ولو أننا أمنا ما بعده.. ما خوفنا!

لذلك أنا ذاهبة، ذاهبة وأنا في قلبي ما يقطر دمًا في كل خطوة أخطوها بعيدًا عن رضيعي، ذاهبة وأتمنى أن يسامحني ديرو، وأن يعتني برضيعي، عليكم أن

تختبئوا في مكان لا أعرفه، لأنهم بالتأكيد سيعذبونني من أجل الاعتراف، وبالتأكيد سأقع، في الحقيقة إن ما سأفعله من خيانة يعطيكم بعض الوقت، يعطيكم الفرصة لكي تهربوا من خوفكم، عليكم أن تغادروا وتستمروا في المغادرة، العالم الذي لم يحبنا يومًا، لأن فيه كل هؤلاء الذين يعتقدون أن التحكم بمصائر الناس سيوفر عالمًا رشيدًا، هؤلاء الأغبياء الحمقى المتخلفون، علينا أن نهزمهم، إننا الآن لا نملك السلاح ولا القوة ولا العدد لكي نهزمهم، ولكننا سنملك أن هرب بعيدًا حتى يمكننا أن نكر عليهم، ونقطع دابرهم.

التوقيع:

الخائنة

١٠

نحن من نسل القاتل الأول... ونحن من نسل من بقي بعد الطوفان أيضًا

وسوس له الشيطان قائلا: وقد فعلها أخ لك من قبل!

*****

العالم سيحترق، لم يتبق من هذا العالم سوى الرماد وتلك الملعونة تريد أن تحرقه، من ينتفع بحرق الرماد سوى المجانين يا إيفان... هكذا علق فاسكو دي جاما حينما قرأ تلك الرسالة التي أتى بها إيفان!

إيفان لم يكن يعلم سوى أنه خائف، إنه يعلم سوالكوفا جيدًا، إنها أمه وكادت تقتله، ذاك الحقد المتراتب عليه من سنين لما فعله، ستقتله بالتأكيد لو رأته، فاسكو دي جاما يعرف القصة أيضًا، ولكنه لا يعرف كيف يجيب دي جاما، ولكنه كيف يثق أن ما في هذه الرسالة ليس له يد فيها!

نظر إليه إيفان قائلًا:

-هل ستقتلني؟ أم ستقدمني قربانًا لها لكي تنجو بقريتك؟

عتب عليه دي جاما:

- من يُظلم لا يظلم، من ذاق مرارة الظلم، مرارة أن تكون منبوذًا يعرف كيف يجبر كسر الخاطر يا إيفان، سنقاتل سويًا، نُقتل معًا أو ننتصر معًا، هذا عهد، عاهد أنك لا تغدر.

إيفان: عهد الرجال يا رفيق!

في الأيام التالية تحولت القرية إلى خلية دفاعية، صنعوا السلاح، شيدوا القلاع والمتاريس، لن نخرج لكي نقاتل ولكن إذا جاءوا ستكون مقبرتهم التي لن يستطيعوا الخروج منها أحياء!

التدريب والتنظيم للعملية الدفاعية للقرية، تخزين المياه لم يكن فقط في سراديب المياه المعروفة، خصصت ملاذات آمنة للهرب، وسراديب خاصة أيضًا للمياه.

ولكن حتى بعد انتهاء كل هذا تذكر إيفان إخوته، إنهم في طريق هذا الجيش، هذا الرجل الذي كتب الرسالة وصل إلى مشارف تلك القرية، لو كان جاء من الجنوب الغربي لتلك القرية فإن إخوته وأهلهم هم في عداد الموتى، تذكر الحلم الذي كان يراه في المنام، يكون قد قتل إخوته حينما تركهم، يطارد الأفكار في رأسه، لو بقي معهم لمات معهم.

من قال إنهم ماتوا؟

من جزم بموتهم؟

الرسالة تقول ذلك، سوالكوفا أمرته أن يقتل كل ما يجد، أخذ خيل مروضة، أطلق لها الريح في البراري، صرخ عاليًا حتى وصل صدى الصوت إلى القرية، سأقتلك يا سوالكوفا لو مس إخوتي بسوء، سأقتل سوالكوفا، اللعنة على كيفاد!

الموت لكيفاد، تسقط كيفاد، يسقط العالم.

ظن القوم أنه قد جن إلا فاسكو دي جاما، أخذ خيلًا وذهب إليه، رأه جالسًا منهارًا يبكي بجوار فرسه، الخيل تهطع برأسها له، كأنها تحنو عليه، كأنها تواسيه في قلقه على إخوته!

هبط دي جاما من على فرسه، لم يفعل شيء، لم يكلمه، خلع قميصه ليكشف صدره أمامه، فاسكو دي جاما عاري الصدر أمام إيفان، تلك أول مرة يفعل ذلك دي جاما، بعكس أهل القرية كلهم، كان يخبىء ما بين ضلعيه!

نظر إليه إيفان، حينما نظر علم لماذا كان يخفي دي جاما صدره، قلب دي جاما كان خارج جسده، فاسكو دي جاما أضعف مما يتخيل أحد، إنه يعيش وهو يرى قلبه ينبض خارج جسده، يعيش لكي يشعر أن ما يبقيه على قيد الحياة هو أن لا أحد يقترب من تلك النقطة، لو ضمه أحد فقط بقوة يسبب له ألما، استيقظ إيفان من دهشته وهو ينظر له: لذلك كنت تكثر الحديث عن القلوب يا دي جاما، هل هذا يواسيني في مصيبتي، إخوتي الاثنين سأفقدهم!

عاتبه دي جاما: هل تظن إني غبيًا لتلك الدرجة، هذا القلب هو ما تبقى من الحكاية!

إيفان: أي حكاية؟

دي جاما: أنا من المشوهين الذين ولدوا في كيفاد، أرسلتني كيفاد هكذا، لكن الاختلاف في أنها لم ترسلني رضيعًا، حينما ولدت لم يكن قلبي بهذا المنظر، لقد تطور إلى ذلك حينما بلغت العامين، رق قلب أمي لكي لا ترميني في تلك السلة اللعينة لكي أُلقى هنا، أخفت الأمر عن الجميع، أبلغتني أن يظل هذا سرًا، بقي الأمر سرًا حتى بلغت الثامنة من عمري، حتى حدثت تلك المشاجرة الملعونة مع زميل لي يسمى روفيل، جذبني روفيل من قميصي قطعه؛ فظهر صدري، انكشف الأمر أمام الجميع في الحي، أبلغا عني، في أقل من ساعتين، كانوا قد أخذوني، أنا مشوه، لا أستحق العيش في كيفاد، وقفت وأنا طفل لم يتجاوز الثامنة أمام محكمة القيادة العالمية يا إيفان؟

هل تعرف ما الذي كنت أقوله؟

كان الحل الوحيد أن أقول إني لا أعلم أن البشر لا يكونون هكذا، وأني سألت أمي وقالت لي أن هذا طبيعي ولا يخالف القواعد!

إيفان: وماذا بعد؟

دي جاما: صدر الحكم بإعدام أمي وستة من اللجنة الخاصة بالكشف الطبي على المواليد الجدد في تلك الفترة، ونفذ الحكم بالإعدام غرقًا أمام عيني، ثم إرسالي إلى هنا.

مشهد أمي لا يفارق ذهني، أتعلم يا إيفان كنت أنتظر أن تحاول أمي حتى بالفطرة أن تقاوم الغرق، ولكنها لم تفعل، لم ترد أن أحمل شيئًا من ضعفها أمامي، لقد وقفت في ذلك الصندوق المملوء بالماء كما لو أنها تقاتل، لقد نظرت لقاتليها بثبات، ولم تنتظر أن يسقطوها، لقد قفزت بنفسها.

إيفان: لماذا تحكي لي تلك المأساة؟

دي جاما: لكي تعلم أن هذا هو قدرنا، أن ننظر في عين قاتلينا، اذهب بشراسة وأحضر إخوتك بشراسة، لو وجدتهم موتى عد أيضًا، سنذهب لقاتليهم، سنقتل من قتلهم، ومن قتل أمي!

إيفان: لماذا تضحي بأمانك الشخصي؟

دي جاما: أنا أحمي شعبي يا رفيق، أحمي الأهل والنسب من أن تسيطر كيفاد ثانيةً!

الجميع يعلم ما فعلته كيفاد بالأرض.

******

سنهرب، يجب أن نهرب، يقولها برانكوفيتش كما لو أنه يعرف كيف الهرب!

يرد عليه وايلد: حسنًا ماهي خطة الهرب؟ إلى أين نهرب؟

تلك العيون طالما قدمت إلينا فلتعلم أن هناك جيش ورائها، لقد هربت كيرا، ولا نعلم ماذا قالت لهم!

استحى برانكوفيتش من أن تكون كيرا هي من فعلت ذلك، لو كانت فعلتها ديرو لكان الأمر أهون، ولكن كيرا تحسب من قومه، يشعر أنه يجب أن يصمت، أن يتبع وحسب، وايلد وديرو كان لهم رأي آخر، أن يختبئوا، صنعوا للبيت قبوًا تحت قبوه، هذا البيت العتيق لن يتخيل أحد أنه موجود من

الأساس، لقد عرفوه صدفة، لقد نبتت الطبيعة على هذا البيت منذ أن غادر الإنسان، ربما من أتى لا يفتح له البيت، ولا خروج إلا للضرورة من البيت، القبو به مخزن للمياه، ومخزن للطعام، وانتهى الأمر سنختبئ هنا!

*****

ذهب إيفان إلى البيت الذي ترك فيه إخوته، كان يظن أنه وحده، ولكنه لم يكن وحده، أرسل فاسكو دي جاما وراءه من يتتبعه، وكانت هناك أخرى، كانت هناك زهرة، تتبعه وتحذر ممن يتتبع إيفان، إنها لا تريد أن تستسلم لفكرة أنه سيذهب، برغم أنه عاد وودعها وترك لها في عينها ما يطمئن أنه يعلم ما يفعل، برغم أنه احتضنها، لم تكن تعلم ما يعني ذلك؟

ولكنها اطمأنت حينما شعرت بذراعيه تضمها، العالم يختبئ هنا بين كتفيه، تمنت لو أن الوقت لا ينتهي، ولكنه سارع بالمغادرة فتتبعته، لم تنم إلا ساعات قليلة، كانت تخاف أن يتوه منها، أو بالأحرى تتوه منه، هو دليلها وهي لا تعلم، حينما وصل إيفان وجد المكان كما لو كان مهجورًا، اختفت كل آثار الحياة من المكان، رأت زهرة البيت الذي يتجه إليه، فتنت به منذ اللحظة الأولى، هنا كان يعيش إيفان إذًا، منذ اللحظة الأولى علمت أن وراء تميزه هذا شيء لا يمكن تفسيره إلا أنه يعلم ما لا نعلم، هذا البيت بالتأكيد من صممه وضع فيه الكثير من الأسرار، إن بيت الزعيم نفسه لا يوازي هذا البيت في شيء من الرفاهية، عن غير قصد وهي تراقب انكسر جذع الشجرة الذي تقف عليه، أحدث جلبة، وصلت إلى مسامع إيفان، ارتعش قلبه أن يكون هناك غرباء، أن يكون تحت العين، تحسس الخوف فابتعد، ثم أخذ يتقصى مصدر الصوت، التف بسرعة إلى مصدر الصوت، لم تستطع زهرة أن تختفي، وجدته أمامها، وجدها أمامه، خافت و تفاجئ

انزعج حينما ذهب ورع المفاجأة:

-ما الذي جاء بكِ إلى هنا؟ كيف جئت؟

زهرة: خفت عليك، فاقتصصت أثرك!

إيفان: الخطر من كل جانب، لو أردتك لجلبتك، زدت الهم هم يا رفيقة!

زهرة: النفس فداء، القلق كاد يقتلني يا إيفان!

إيفان: لم أعتقد أن تفعلي شيئًا مجنونًا كهذا، ربما لو تبادلنا الأدوار لصدقته في نفسي، أما أنت فاعتقدت أن تلك الرحلة جاءتك هدية من السماء لكي تتخلصي مني.

زهرة: هكذا اعتقدت أيضًا ولكن لو علمت رجفة القلب التي هزت أركاني حينما غادرت ما قلت هذا.

إيفان: حسنًا اتبعيني!

لم يجادلها أكثر ولكنه شعر أنه قد أخذ في الحذر أكثر، أحيانًا تكون نفس من تحب هي ما تشعرك أن لنفسك قيمة، فتخاف من الاقتراب أكثر!

دخل البيت فشعر أن كل شيء ساكن، نظر إلى بقايا طعام فوجده لم يتعفن بعد، رفع صوته عاليًا مناديًا: وايلد، ديرووو، برانكاااااا، كيراااا، هل من أحد هنا!

في بهو البيت يتردد الصوت عاليًا، يعرف نفسه دون حذر: أنا إيفان، أين أنتم؟!

سمع صوت تحت قدميه، خرجوا جميعا بإستثناء كيرا التي رحلت مبكرًا جدًا، اطمئن عليهم، نظر إلى الرضيعين، سأل عن كيرا، علم أنها غادرت إلى الجيش الغازي حينما قدمت العيون وتركت طفلها، وتركت رسالة تقول فيها أنها فعلت ذلك كي يرحل الجيش عنا، بمعنى أدق قدمت نفسها قربانًا قبل أن يأتي الجيش الذي يحمل علم كيفاد!

أطرق إيفان يفكر قائلًا:

- إذًا هم قريبون!

أردف وايلد: لو تركت أثرًا خلفك لربما اتبعوك، من تلك التي جاءت معك؟

إيفان: سأحكي لك لاحقًا الآن علينا أن نغادر، معي زوجان من الخيول، سنهرب بهما!

وايلد: الجيش أسرع من الخيل، ابق هنا ونغادر حينما يرحلوا!

إيفان: لسنا في منعة منهم، سنسلك طريق الصحراء، الجيش لا يستطيع أن يحمل مؤنته في كل تلك الصحراء!

غادروا، في الطريق أصرَّ أن يعلم وايلد قصة زهرة، في البداية اعتقد أنهم يهربوا وحسب، لم يعلم أن إيفان أصبح سيد قومه، إيفان الفاشل، إيفان مبتور النسل سيذهب بنا إلى حيث يكون السيد، ويكون له الفضل في كل شيء، هكذا دارت في نفسه الأشياء!

في شروق الفجر وبينما كان يأويان إلى مغارة حتى لا يسيروا بالنهار، لم ينم وايلد، غادر إلى حيث يواجه نفسه، الشمس حارقة، ولكنه لا يأبى بشيء، يسير وحده، يريد فقط أن يواجه نفسه، يغلبه النوم في العراء حيث الرمال تشوي جسده على مهل، يأتيه رجل كث اللحية أسود الوجه، أحدب، قدماه لا تستويان على بعضهما يوقظه الألم فيفزع منه، لا ينتظر أن يهدأ من فزعه، يخبره: يذهب بك أخاك إلى حيث يريد أن يكون عليك سلطانًا، يريد أن ينتقم مما فعلتموه فيه، اقتله فور أن تصل، لديك علمه، اقتله تحل مكانه!

من بعيد يهرول عليه أسدًا بقلب منثورًا خارج جسده، يزأر فترتعد الأرض ولكنها ثابتة تحت قدمي وايلد، يزأر ثانيةً فينخنق الأحدب مبتعدًا وهو يصرخ فيه:

– لست على شيء، القانون الذي تسير عليه من وضعه هو إيفان، وضعه لكي يحمي نفسه!

ينظر إليه الأسد، يمتلئ رعبًا منه، مع أن كل هذا الضرغام بكل حجمه لا يهاجمه، فقط ينظر إليه!

يأتيه رجلًا آخر ينفخ في عينيه فينام، فلا يرى صورته، ثم يطمئنه بمسحات حانيه على جسده كأنه ندى بليل معطر بياسمين في كل هذا القيظ ثم يخبره:

-إن كنت على غير شيء، فلعلك على فطرة سوية، إياك والدم الحرام، دم أخيك عليك حرام!

يستيقظ فجأة، لا يعرف إن كان استيقظ أم أنه مازال نائمًا، لا يرى الصور واضحة، يشعر بالحر، يشعر بريح باردة، الأسد يغيب كأنه غبار من ريح، كأنه عاصفة تذوب!

يعود إلى وعيه بالتدريج، يعود إلى المغارة، يجد أخاه نائمًا، وزوجة أخيه، والرضيعين، وأخته وزوجها، هو الوحيد الذي وحده وولده، يعرف خالته أكثر مما يعرفه!

سيبقى وحيدًا، سيعيش منفيًا كما كان يعيش إيفان، إيفان الفاشل، إيفان الذي تركنا وهرب ثم عاد ونحن وسط كل هذا الخطر، لماذا لم يعود إيفان قبل أن ترحل كيرا!

يفكر كيف سيفعل فعلته؟

تتردد الكلمة داخل أذنه ثانية، يسأل أخيه عن منامه، هو يعلم ما الذي رآه؟

لقد قرأوا سويًا كثيرا لهذا العربي ابن سيرين في تفسير الأحلام، هو يعلم ولكنه يريد أن يحذر أخاه نفسه، إيفان لم يفهم ظن أنه يفرغ ما في قلبه، إيفان نفسه مر بأشياء مرعبة مثل تلك، قصصها على أخيه، ظن وايلد أن إيفان يخبره أنه يهدده، وأنه إنْ فعل فعل مثله!

*****

المنتحر وصل إلى حيث كان طلال ومهند يعيشا وجد آثارهما، ولكنه لم يحاول أن يبحث عن شيء في البداية فرح فقط أنه استطاع الوصول وحده وأنه لم يتوه في الأرض مثلما توقع، هذه هي المرة الأولى التي يصنع شيئًا وحده،

يُحدث نفسه: ماذا على أن أفعل الآن، الرحلة ليست الهدف بالتأكيد، ما الهدف؟

مع ذلك في داخله لا يشعر بالندم على شيء مما فعل!

يغادر إلى اللا معلوم، إلى تلك المناطق التي لم يكتشفها طلال ومهند!

كان العرب يسمون الصحراء مفازة، لا لشيء لأن من يعبرها يكون قد فاز، هو يريد أن يعبر صحراء أخرى، يعرف كيف يعود، فلماذا لا يتقدم!

تحدثه نفسه أن يبقى حيث كانوا، يبقى قليلًا، يجد ناقة قد فرت من حيث لا تعلم ويقترب منها، ينظر لها ناقة عربية أصيلة، ينشدها قائلًا مما حفظ في الإبل:

يا حاديَ الرَّكبِ قد لانتْ لك الإبل...
واستأنسَ الليلُ وانقادتْ لك السبلُ
ورحَّبَتْ كلُّ أرضٍ كان يبلُغُها...
عذبُ الحداءِ وفيه البوحُ مشتعلُ
أصغى لك الرملُ واخضلَّت مدامعهُ...
شجاه منك الهوى يعدي وينتقلُ

يطعمها، يحملها بالزود، ويذهب، يواصل الذهاب، يمر بمدينة كاملة من المخلفات المتحللة، تلك المدينة كانت العالم، امتلأ العالم في لحظة من اللحظات بالقمامة لدرجة أن الحكومات اضطرت لتحميل الصواريخ المتجهة للفضاء بالقمامة، كلف التخلص من القمامة طاقة هائلة وأموال طائلة، انهار الاقتصاد بعد التضخم الهائل الذي حدث بسبب القمامة، من كان يصدق أن القمامة هي التي أدت إلى انهيار النظام الإقتصادي، لم تتحمل فقاعة التضخم هذا الكم الهائل من التضخم!

تلك المدينة كانت مخزن للنفايات قبل تعبئتها في الصواريخ!

عبرها وهو يشاهد تلك الأكوام من الأشياء المتحللة!

بعد المدينة بمسيرة يوم، هناك تل كبير من الهياكل العظمية لجثث بشرية قد تحللت تل كامل، يقترب منها، يريد أن يميز ملامحها، لا يرتعب منها، لم يعد يعرف الخوف، كل الجثث تتشابه، وكل القتلة تشابهوا، لم يستطع أن يميز منهم أحد، ما الذي فعلوه لكي يكون مصيرهم هكذا؟

كيف لم تبعثر تلك الجثث آكلات الجيف؟

لماذا هي مرتبة هكذا؟

حاول أن يبحث عن مصدر يعرف منه فلم يجد!

بعد مسيرة تل الموتى بيوم، وجد بقايا مبنى دائري، كتب على بابه:

مدخل مدينة المتمردين.

تحته عبارة مقتبسة من الكتاب العالمي تقول: كل من يتمرد نهايته الحرق!

ثم رسم المدينة، المدينة كان بها فرن كبير لحرق البشر أحياء، تل الجثث كان للعمال والمهندسين الذين يعملون على إرسال القمامة للفضاء، حينما حلت لحظة النهاية لم يقع اسم طائفتهم في المجموعات التي سترحل على السفن فتمردوا؛ أطلقوا صاروخًا على أحد السفن وحطموها، وهددوا بإطلاق بقاي الصواريخ على جميع السفن، ظنوا أن هذا من الممكن أن يرضخ كيفاد، ولكن كيفاد تحملت الخسائر التي تنتج من إطلاق صاروخ ثاني واقتحموا المقر الذي تحصنوا به، قتلوهم عن بكرة أبيهم، وحرقوهم بجوار مقر قيادة تمردهم، سموها مدينة المتمردين لكي تكون عبرة عبر الزمن لكل من يتمرد، لم يتبق أحد لكي يتمرد!

*****

علم طلال بفرار المنتحر، وجد آثار له على بعد ثلاثة أيام من قريته، لم يعلم ما الذي يمكن فعله؟!

ستهلكه الصحراء قبل أن يهلكه عقله، أخبر طلال مهند:

-أنه عليهم أن يواصلوا عمليات التصوير الجوي بالطائرات بحثًا عنه!

أجابه مهند:

-ماذا لو جلبنا الأسوأ؟!

طلال: تقصد من؟ سوالكوفا؟ كيفاد؟ هل هناك أسوأ مما شاهدناه في هذا العالم يا صديقي، لا، لا يوجد الأسوأ!

مهند: ما الفائدة؟ لدينا الآن كل شيء. هذا المنتحر هو شجرة أدم، لن نهدي الناس جميعًا، علينا أن نتوقف عن البحث عنه!

طلال: علينا أن نتوقف عن البحث عنه، ولكن علينا أن نستكشف العالم، أن يكون لنا دولة قوية، أن نصنع أمةً مسلمةً يمكنها أن تحكم، نحن معرضين للهجوم في أي لحظة، نحن رأينا ما تركنا خلفنا!

مهند: تلك أؤيدك فيها.

بدأ طلال ومهند في تشييد دولتهم، علموا كل من في الأمة، كل العلوم التي تعلموها، أرسلوا في طلب الكتب التي وجدوها، بنوا مكتبة ضخمة، ولَّدوا الكهرباء بشكل أكثر قوة، الطريق الواصل بين قريتهم وبين ذلك الشاطئ الذي رسوا عليه أصبح عامرًا، بحيث يمكن أن يغدوه الرجل ذهابًا وإيابًا كما يشاء، فبعد مسافة كل ست ساعات يجد المسافر نقطة ارتكاز فيها من الماء والغذاء ما يكفي!

دخل طلال المكتبة التي شيدوها، عامرة بآلاف المؤلفات من كل العصور في كل المجالات، لقد اكتشفوا كل كتاب دفن حيث رسوا، كانت الكتب مخزنة في أقبية تحت الأرض، جدران تلك الأقبية من البلاستيك، علموا قومهم كيفية ترميم الكتب والعناية بها، يمسك طلال الكتاب كما لو يمسك أبًا له، طالما كانت الكتب هي ملاذه، طالما كانت له المفر، حينما انتهى العالم لم تنته الكتب فلم ينته العالم، ينته العالم فقط في اللحظة التي تنتهي فيها الكتب.

يرد عليه مهند:

- الكتب تغنيك عن الناس!

يردف طلال: الكتب سلوى الحزانى وارتواء العطشى وزاد الجائعين، الكتب مدن لم تزرها وأعمار لم تعشها وأشخاص لم تقابلهم، الكتب رواحل المسافرين وخيام الجالسين تظلهم من قيظ تمرد الجاهلين وتأويهم من عتمة الضالين!

مهند: علينا أن نصنع شعبًا واعيًا، علينا أن نعيد تراث الإنسانية إلى مكانتها!

في تلك القرية لا يُظلم أحد، في كل يوما يطلقون فيها طائرات بدون طيار، يوجهوها، يقوموا بمسح كل ما استطاعت أن تجد أيديهم من أرض، يصعد طلال في جنح الليل إلى قمة تلة صغيرة تشرف على القرية، فليجتمع الناس، ويل لنا من شر قد اقترب، ويل لنا من شر قد اقترب!

هرع الناس وظنوه انقلاب آخر، ولكنه لم يكن انقلاب كان غزوًا، فزعه مهند: ما بك يا طلال؟

طلال: جيش مكون من فرقة من الرجال يحمل أعلام كيفاد، يجوب البلاد.

كشف طلال الصور التي كان يقوم بتفسيرها بعد أن التقطتها الكاميرات، تلك الطائرة كانت موجهة إلى البحر، هذه الطائرة وصلت إلى الساحل من الضفة الثانية، البحر الذي عبره طلال ومهند!

قال قائل القوم: لقد تركتموهم اثنين، كيف أصبحوا ولديهم جيش؟

أجابه مهند: كنا اثنين وذكور أيضًا؟ وقد ألقونا في البحر، فكيف أصبح لدينا طائرات تكشف مواقعهم ونحن في مواقعنا...

نظر طلال في الأرض منهارًا: متى تتوقف الأشياء السيئة عن الحدوث!

مهند: نحن مازلنا على الأرض، لا يوجد علاج لذلك يا رفيق!

صنعوا الجيش، قاموا بتدريب كل رجال القرية على أن يكونوا جيشًا!

كل حضارة لم تكن لها قوة تحميها انهارت، هم يريدوا أن يعيدوا حضارتهم، لذلك عليهم أن يسارعوا بوأد كل حضارة معادية قبل أن تلتهمهم!

بعد ستة أشهر كاملة، كانت القرية جاهزة للحرب، يخرج طلال بالجيش، ويبقى مهند، سيذهب بالنساء والأطفال إلى البقعة الآمنة التي لا يعرفها أحد سوى طلال ومهند، ثم يلحق بالجيش، فإن هزموا يكون هؤلاء هم من يعيدوا أمل البقاء، وحتى إن أُسر أحدهم وأجبروه على الاعتراف بعد الهزيمة لن يكون عنده المعلومات الصحيحة عن مكان القرية!

*****

مودة تخرج مع العولقي، ولكن كل منهم تختلف غايته كأن أن يكون السبيل واحدًا ليس شرطًا لأن تكون الغاية واحدة، يسلكان نفس الطريق، كل منهم سيصل المكان نفسه ولكن هي تصل إلى حيث تُنهي حياتها وهو يصل إلى حيث يبدأ حياته!

لم تلتحق بقافلة العولقي، فقط سارت في خطاها، فهم لا يشبوها، تشعر في داخلها أنها ليست منهم، هذا العولقي بثوبه الأبيض وعمامته من يكون؟

لم ترَ في حياتها رجل يرتدي هذا الزي منذ أن خلقت، لم تقف لتسأل نفسها، هل رأت في الأساس من قبل بشرًا مختلفين عنها، لم تعش إلا حياة السجن إلاي لا تؤمن بحرف منها ولا تؤمن بحرف مما بعده، لا تؤمن إلا بالله وأنه معها أينما كانت!

في وسط الطريق، توقفت عن متابعة سير قافلة العولقي فلم تتبعهم، ولم يلاحظ العولقي إلا بعد مسيرة ليلة جن جنونه، أخبره رفيق له:

-وما شأننا نحن؟ ليست منا.

توقف العولقي في مكانه ثلاثة أيام وأرسل العيون في طلبها، عادوا جميعًا إلا واحد، عاد في اليوم الرابع ليخبرهم أنه وجدها، ولكنها لم تأت معه، ستجد طريقها في الصحراء وحدها، أعطاها ما معه من ماء ودلها على أقرب بئر، زاد العولقي جنونًا، صرخ فيه: لماذا لم تجلبها بالقوة؟

أجاب: لم تأمرني بذلك يا شيخ!

هتف العولقي: نعم لم آمرك، وليس لديك عقل لتستنتج حقيقة إرسالي لك، ويل لرجل لا يملك من رجاله إلَّا دم يجب أن يأمرها

علينا أن نغادر، واصل العولقي الصريخ في رجاله، البقاء في الصحراء خطر، الطعام والمؤن ينفدوا، الصحراء لا تنتظر أحد، عليك أن تظل تتحرك، قانون الصحراء الأول أن القافلة تسير على خطوة الأسرع، لذلك ربما كل الذين مضوا في الصحراء انقرضوا، طواها خلفه في ذاكرة النسيان وواصل التقدم، قال في نفسه: الحر لا يترك وراءه أحد، ولكن الحر لا يُهلك قومه!

كانت تلك أول مرة يغادر فيها العولقي من جوار الحرم، واصل التقدم حسب الطريق، يسير على سيف البحر حتى يصل شمالًا، يعرف مكان المسجد الأقصى ولكن لا ينحرف إليه، يواصل التقدم، حنى يجد القاعدة، تلك أول مرة يشاهد فيها الشاشة السحرية التي حكى له الأجداد عنها، تلك أول مرة يشاهد آثار ما كان عليه العالم، لم يأمن طويلًا في هذا المكان!

١١

الموت مع الجماعة: رحمة

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [٤]

*****

عاد جيش تشارلي هاريس يحمل كيرا كأسيرة في مقدمته، كيرا لم تتفوه بكلمة عن موقع أي أحد، تشارلي تأكد أن قتلها لا فائدة منه، لذلك أخذها معه، في طريق العودة اصطدم تشارلي بما لا يمكن أن يتحمله، وادي عظيم لم يكن في طريق الذهاب إليه، شعر أنه تاه لا يمكن أن يصنع مثل هذا الوادي في يوم وليلة، فج عميق بغير ذي زرع و لا ماء، ولكنه يسير جنوبًا، هو متأكد أنه لم يخطئ، الليل شديد السواد، لا مفر من اجتياز الوادي، خيم بعسكره على طرف الوادي ينتظر أول ضوء للفجر فيجتازه، في حلكة الليل شاهد نار عند نهاية هذا الوادي، استأنس لحرب أخرى غير تلك الحرب التي لم تكن إلا ضد امرأة واحدة سلمت نفسها طواعيةً ولم تنطق ببنت شفه، لدرجة أنه على يقين أنها خرساء لا تتكلم، دخل الوادي وحده، على الطرف الثاني من ذلك الوادي كان العولقي وقومه، قارئ قرآن لهم كان يقرأ في سورة الجن:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾

صدق الله العظيم

[٤] الجن: ٦

هو لا يفهم العربية، لا يفهم ما يقال ولا معاني تلك الآيات، ولكنه يحن إليها كما لو أنه ينجذب بطريقة ما لها، خاف أكثر وصرخ في السماء: أنا وحدي، إن كان هناك خلق لا آراهم فإني أطلب حمايتك!

وصلت أصوات اللغة العالمية لقوم العولقي فاستنفروا، ليس بهم أحد يعرف لغة كيفاد، ظنوا أن الجن قد أزعجتهم السورة، وأن ما يسمعوه ليس من وحي البشر، كرر القارئ الآية لكي تستقر قلوب الناس، نزلت المعاني على القلوب، المعاني ارتبطت بمصيرهم وبتراثهم في نفس الوقت، في التراث التفسيري أن العرب كانوا إذا نزل بواد موحش في البراري فإنهم كانوا يتعوذون بالجن فكان الجن يزيدوهم خوفًا وعسرًا على أمرهم، تلك السورة نزلت في جن استمعوا إلى القرآن فاهتدوا، فكيف بقلوب البشر؟!

استقرت القلوب على التلاوة، وزاد القارئ صوته حسنًا كأنه مزمار من مزامير داود، يتلو وكأنه في الجنة إلا تشارلي ازداد رعبًا، تسمر في مكانه لم يستطع أن يتقدم فيستطلع أو يتأخر فيستجدي رجاله، اكتمل رعبه حينما وجد يد حانية على كتفه، التفت فوجدها كيرا، سقطت عيناه من حجرها من فرط الدهشة إنها تنطق:

وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا

كيرا استمعت إلى تلك الكلمات في بيت إيفان، كان به كل الحضارات، هي لا تعرف العربية ولكنها تعرف تجويد أصواتها، استمعت إلى ذلك مرات ومرات!

يرتعب منها تشارلي أكثر، يخبرها أن تذهب لهم، اذهبي ولا تعودين ابدًا، أخبريهم أن يصمتوا، لن أقاتلهم لن أفعل لهم مكروه، فليذهبوا وحسب!

تفرح كيرا بحريتها، فتنطلق، لم يكن يقيدها، ولم يكن يخاف من هربها أين تهرب؟!

انطلقت إلى نهاية الوادي، انطلقت مهرولة وهي لا تدري إلى أرض تذهب، ولكن كالعادة مصير غير معلوم قد يكون به أمل من الحياة خير من موت معلوم!

وصلت وقد انتهى القارئ من القرآن وبدأ في السمر يتلو من أحاديث الإمام الشافعي:

يا مَن يُعَانِقُ دُنيَا لا بَقاءَ لَها ... يُمسِي وَيُصبِحُ في دُنيَاهُ سَفّاراً.

هلاّ تَرَكتَ لِذِي الدّنيا مُعَانَقَةً ... حتى تعانقَ في الفردوسِ أبكاراً.

إن كنت تبغي جنانَ الخلد تســـ ... كنها فَيَنبَغِي لكَ ألا تَأمَنَ النارا

في السفر ليس لديك إلا الذكر لكي تنجو، نحن في هذه الأرض عراة، عراة دومًا، نتخيل أنفسنا وقد أغرانا المتاع أننا نملك شيئًا وأننا آمنين ولكن الحقيقة التي لا مفر منها أن لباس الخوف والجوع، ذلك الثوب الذي لا مفر منه، جاهز في أي لحظة ليغطينا من شيبتنا إلى أخمص أقدامنا، لا نملك أي طريقة للفرار سوى أن نتقبل، قافلة العولقي تعلم ذلك، لأنهم عاشوا ذلك، على الناحية الأخرى جيش تشارلي لا يعلم ذلك، هو في حيرة من أمره!

ذاك الوادي أصبح برزخ بين حياتين.

في الصباح عاد تشارلي إلى جيشه، أخبر الجميع أن كيرا هربت، ذلك الصوت كان شيء غريب قدم وخطفها في جنح الظلام، لم يكن بشر!

ولكن في قلبه زاد الشك، لو يستطع فقط معرفة معنى تلك الكلمات التي سمعها، لو يعرف بأي لغة قيلت، ما سر وقع تلك الكلمات على قلبه هكذا؟

كيف يمكن للقلب أن يخشع من كلمات لا يعرف لها معنى!

تلك المخلوقة كيف عرفت أن تردد الكلمات مثلهم، لم تنطق ببنت شفة منذ أن تم القبض عليها، الأسئلة تكاد من ثقلها تقصم ظهره وهو عائد إلى قريته، عرف أنه انحرف عن مساره قليلًا، ماذا ستفعل به سوالكوفا؟!

هل يعود، أم يهرب بالجيش؟

على مسافة شهر من قريته عسكر، عسكر دون سبب، فضل التخييم والبقاء قليلًا، لقد أسرع بجيشه كثيرًا أثناء العودة لكي يوفر قليلًا من الوقت يدبر فيه أمره، ويدبر فيه كل حرف سيقوله لسوالكوفا!

يرابط على عسكره وجنده، بأن حرفًا واحدًا خطأ قد يتسبب في الإعدام أو على الأقل السجن مدى الحياة حتى تضطر الحاجة للإفراج عنه!

لماذا لا يغير على سوالكوفا نفسها، لماذا لا يقوم بتمرد وينتهي منها!

السؤال لم يكن في الثورة ذات يوم، السؤال فيما بعد الثورة؟!

الباطل به الكثير من الغشم واليد البطشاء مما يسهل عملية السيطرة على الجماهير بينما الثورة تأتي لكي تعيد العدل، والعدل يده قصيرة لا يمكنها السيطرة على كبح النفوس الشاردة ولا على فساد الفاسدين!

لكن على الأقل لن يقوم بتسليم رأسه إلى سوالكوفا، لم يكن في وعيه حينما ترك كيرا تهرب، كان خائفًا، بذل جهدًا خارقًا لكي يحاول ترديد الكلمات التي سمعها، لعله يجد في نفسه ما يسلو به عم ينتظره، آية من سورة المعارج تأتي على قلبه: ~

-سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ

لا يعرف لها معنى ولكن قلبه يهتز عند سماعها، كتبها بحروف لغة كيفاد، لم يعرف نطق حرف "العين" بصعوبة شديدة يحاول أن ينطقه، الذاكرة داخله لم تسمع نطق الآية هكذا، ولسانه يتعتع فلا يجيد النطق، حلقه لا ينسجم مع اللغة التي يريد أن يخرجها!

ما الذي يمكن أن يمنعه!

*****

على الناحية الأخرى العولقي كاد يموت من عسر حظه حينما جاءته كيرا، لا تعرف إلا عدة كلمات ضعيفة للغاية من العربية، ولا تعرف معنى أغلبها،

فهم منها لفظة " ولدي-أهلي" وكلمة سوالكوفا، حينما قالت الاسم سقط عليه الأمر كصاعقة من السماء، ذلك الاسم الذي كان يحذر منه إبراهيم!

الأمر ربما يكون خطير، عليه أن يعود إلى إبراهيم، وحده يعلم اللغة العالمية، مودة كانت تعلم اللغة العالمية، لا يستطيع العودة للبحث عنها بأي طريقة، قافلته ستهلك في الصحراء قبل أن تجد بغيتها، لقد حذره إبراهيم، ليته استمع له، ليته بقي، معه الكثير من نسائه وبناته، كيف يمكن أن يتحرك هكذا!

أخبر كيرا أن الأمور ستكون بخير، هدأ من فزعها الذي كاد يقتلها، عليه أن يستغنى عن جزء من قافلته للعودة إلى إبراهيم بها، وإخباره عن كل ما حدث، إبراهيم يملك حرية القرار وحده، مع ثلاثة من أولاد العم وبنتان لهما وكيرا أيضًا عليهم العودة، عليهم خوض الصحراء وحدهم، زودهم بنصف مؤن القافلة، أخبرهم الطريق، يعرفون الصحراء كما تعرف الأم فطيمها!

يمرون على نفس الأطلال التي مروا عليها، كانوا يريدون عالم جديد، ولكن الله لم يرد، يستسلموا للأمر بسهولة، قد تكون رحلتهم تلك هي الأمل الوحيد لإنقاذ أحدهم، في كل معلم يقولون لأنفسهم سنعود، سنعود لكي نترك تلك الحياة!

بقايا مدينة البتراء وقد نثرها الريح، ومدائن صالح، والحنكة، وجسر الذهب، ويسيرون بمحاذاة الجبل، كلما ضاع منهم الجبل عادوا إليه!

وصلوا إلى إبراهيم، إبراهيم نظم المدينة بطريقة كبيرة، يعيد للبيت الحرام الكثير من الاتساع حوله، وجدوه عند حجر الكعبة، حينما رآهم لأول مرة، حمد واسترجع، ظن أنهم هلكوا جميعًا ولم يتبق إلا تلك الحفنة من البشر!

حكوا له ما حدث؛ فحمد وحزن، لقد فقد مودة، أخذ يردد" إن الله لن يضيعها يختنق الدمع في عينه، تفاهم مع كيرا وعرف قصتها، هناك جيش يتحرك، هذا الجيش بجوار العولقي، بل لقد تقاربا لدرجة أن كلاهما سمع صوت الآخر ولكن لسبب ما لم يستطع أن يشتبكا، هذا الجيش منطلق من عند سوالكوفا، خفق قلبه من الرعب حينما سمع صوت سوالكوفا، غضب

وسخط وهو يضرب الحائط بقبضة يده، كأنه يريد أن يتصدع الجبل من ضرباته، لقد استقر لدرجة أنه زرع جزء من أرض مكة، مكة ذات الأرض الصخرية، وجد منها ما يمكن زراعته، الآن عليه أن يتحرك لينقذ العولقي من هجومها عليه، لو هجمت عليه لاستأصلت شأفته من الوجود!

سيغادر ويترك جوار البيت، جهز رحاله حينما أذن المؤذن ردد بعد الصلاة قائلًا: صلوا في رحالكم، ولم يصلوا في البيت الحرام.

بكى، فلقاء البيت بكاء، وفراقه بكاء، والجلوس بجواره بكاء، ليس بكاء ندم، وإنما هو بكاء فرحة، بكاء يغسل كل ما في القلب من معاصي بكاء للراحة، بعد الطواف عند مقام إبراهيم، وقف يصلي، غادر الجميع وتبقى هو، هم عاشوا أعمارهم جميعًا هنا، هو لم يعش الكثير، هنا فقط شعر بالأمان، راودته فكرة أن يرسل من يحذر العولقي، ولكن العولقي يحتاج لجيش أكثر مما يحتاج لتحذير، لا يملك السلاح الحديث ولم يصنعه ولكنه يملك العدد، قوم العولقي وعددهم كبير، وبنيتهم قد خشنتها الصحراء وزادت من صلابتها!

لكنه سيتحرك للحرب، حرب من لا يبالي على شيء، سوالكوفا هي الشر كله!

أخبر كيرا أنه لا يستطيع أن يجد بيتها لأنها لا تعرف مكانه، ولكن سيأخذها معه، كل أملها أن يلتقي بذلك الجيش ويهزمه ليعرف من قائده وأين وجدها ليعيدها لولدها ولزوجها!

عرف أنها لا تتبع أي دين، شرح لها الإسلام وعرضه عليها، سألته إن كان لن ينقذها إن وافقت؟

أجابها بمعنى قوله تعالى: لا إكراه في الدين!

إنه فقط يعرضه عليها، أخبرته أنهم تركوها خارج مكة مع أحد الفتيات وحدهم في الصحراء حينما علموا أنها ليست مسلمة!

أخبرها: أن للمكان قدسية، لا يجوز أن يدخله غير المسلمين، ولكن الضرورة كانت تقتضي أن يدخلوك، فأنتِ بحكم الرسول الذي معه الخبر، ولكنهم مقلدون في الفقه غير مجتهدين!

ردت: دعني أتعرف على هذا الدين أكثر.

وافق على طلبها، مكلومة في أهلها، ثكلت الزوج والولد، ليس لها في الناس عضد، خافت أن تؤمن فيكون الإيمان بدافع المصلحة لا بدافع الرغبة في الإيمان، بعد عدة أيام في قرارة نفسها أقرت أنها ستدخل الإسلام، حدثها ابراهيم:

(الله لطيف بعباده)

ومن لطفه سوق الناس إليه بالترغيب تارة وبالتخويف أخرى (وما نرسل بالآيات إلا تخويفًا)، لعل الشريد يعود، والغافل يفيق، من ظن انفكاك لطف الله عن قدره فذلك لقصور نظره، الناس تنسى لكن الله يعد لهم عدًا، والعاقل من يكون ذاكرًا لا ناسيًا، ولا يكون ممن قال الله فيهم (نسوا الله فأنساهم أنفسهم)

بعد مسيرة شهر اعتنقت الإسلام، الكلام بقصد أو بدون قصد، وضح لها أن لعل كل ذلك حدث، لكي يسوق الله الرسول لكي تؤمن، فآمنت!

*****

وايلد ينظر للسماء كل ليلة، ثم يعود وينظر للأرض، الإيمان الذي يتبعه لم ينزل من السماء، لقد كتبه إيفان، الدستور الذي يأمره وينهاه هو فعل إنساني كتبه أخاه نتيجة لخبرة سابقة ولا رادع له سوى الكلمات، إنه القانون مقابل الشريعة، القانون فعل بشري التحايل عليه يجعل البشر يظنوا أنهم تغلبوا على قواعد اللعبة التي صنعها بشر مثلهم، أما الشريعة فهي أمر رباني صنعه الله، لا مفر منه، ولا تحايل عليه.

وايلد ليس لديه شريعة، ولكن لديه القانون، لذلك قرر فعلته ولكنه يريد أن يفلت من القانون، يريد أن يسرع بقتل أخيه، عاد للقرية حيث أصبحت لهم ملجأ، أشركه إيفان في كل أمره، ولكن الحقد ملأ قلبه، اشتعلت شرارته، لدرجة أنه أصبح يرى الأفعال الطيبة ورائها الشر ذاته، يقول لنفسه: إيفان يفعل ذلك، لأنه يعلم ما سأفعله به، إيفان ربما يحاول قتلي أولًا ولكن يريد أن ينزع الشك من الجميع، من في القرية لديه العلم سواي أنا وايفان!

الجيش سيتحرك، على الجيش أن يذهب لقتال سوالكوفا، لاسترداد كيرا إن كانت على قيد الحياة، بدأت القرية تستعد للحرب، وضع إيفان تصور لمركبات تجرها الخيول، وبعد ذلك يمكنها أن تسير من خلال مولد كهربائي صغير موجود في داخلها، اخترعها بنفسه، كانت غاية في التقدم، لدرجة أن من يراها من غير أهل المدنية كان يظن أنها سحرًا وليست حقيقة، صنع العديد من التفاعلات الكيميائية لكي يتمكن من صنع البارود، أنشأ المكاحل لصناعة مواسير البارود التي يمكنها أن تطلقها، حملها على تلك العربات.

سأله فاسكو دي جاما: أن يبقوا ويدافعوا عن المدينة أطول فترة ممكنة!

أجابه: خير وسيلة للدفاع هي الهجوم!

دي جاما: من أين لك بتلك الكلمة؟

إيفان: لقد قرأت، قرأت كثيرًا عن فنون الحرب، معظم المعارك كان فيها المهزوم مدافعًا!

دي جاما: حتى لو نظمنا دفاعنا نهزم؟

إيفان: أنت لا تعرف سوالكوفا تلك، لقد خاضت الكثير من المعارك، درست في كيفاد نفسها، ذكية للغاية فقد كانت طبيبة، مع ذلك لديها من المعارف العسكرية ما يمكنها أن تدرس كل الدفاعات، وتحطمها، لا يوجد نظام دفاعي لا يوجد به ثغرة مهما كانت قوته، نحن سنستفيد من عامل المفاجأة، ستجدنا أمامها مباشرة!

دي جاما: قلت إنها مستعدة دومًا للحرب.

إيفان: مستعدة لكي تهاجم، لكي تقتل، الآن سنفاجئها بأننا سنكون مستعدين لقتلها.

دي جاما: سنذهب لقتل والدتك.

إيفان: سنذهب لتخليص العالم من الطاغية!

جيش إيفان يمتلك سرعة الحركة أكثر من أي أحد، إيفان لا يمتلك مفاهيم القوامة، ولا يمتلك أي نوع من تراتيب الأفراد بين قوي وضعيف، الجميع جيش، لقد تحرك بالقرية كلها، ليس لديه ما يبكي عليه، القرية كلها ذاهبة للغزو، القرية كلها ستنتصر لنفسها، أو تموت لنفسها!

الجميع تحرك معه، الجميع يحبه، لم يظلم أحد ذات يوم، لم يجور على أحد، ما فعله للقرية جعل الجميع يشعر أنه يرد الجميل لإيفان!

يأخذ إيفان زهرة قبل التحرك، يخبرها أنه لا يريد أن تذهب، هو لا يراها مثل الناس، لقد تعلق بها. يخبرها: الطريق خطر يا رفيقة، الموت قد يهلكنا!

زهرة: فيما تتركني!

إيفان: آمنة في تلك القرية حتى أعود، سأبقي الصغار معك!

زهرة: لنتحرك جميعًا، لنحيا جميعًا أو نمت جميعًا!

تحركوا، تحركوا كوحدة واحدة، إيفان ووايلد وفاسكو دي جاما كل منهم على رأس كتيبة، وزهرة وزوجة فاسكو دي جاما على سيارات تحمل الأطفال، إيفان يتحرك ليعلم الجميع كيف يمكنهم العودة، وكيف يتفرقوا في الأرض.

وايلد ينظر له، الجميع يحبه، وزوجته جميلة، ومختلفة كثيرًا عن الجميع، وكيرا غير موجودة الآن، ديرو وبرانكوفيتش منسجمان مع بعضهم أيضًا، الحركة السريعة جعلته أول من يصل للقتال. يرسل العيون أمامه يستطلع الأرض التي يمر عليها، يرسم الخرائط بدهشة، لديه تصور كامل عن قلعة

سوالكوفا، سوالكوفا على غير علم بما سيحدث. ولكن لحظة الوصول سيهتز لها الجميع!

*****

وصل إبراهيم إلى العولقي أيضًا، أخبره العولقي بالمكان الذي وجد فيه كيرا، أراد أن يوصلها إلى حيث وجدوها، ثم يعودوا بها إلى أهلها ولكنها رفضت فهناك ظلام، هناك حياة بلا معنى، هنا الحياة حياة أخرى، حياة تتجسد في الكثير من المعاني التي لم تعرفها بعد، تواصل الطريق معهم، العولقي وجيشه وإبراهيم بجيش هزيل للغاية، معداتهم بدائية برغم أن إبراهيم يعلم مالا يعلمه الكثير على الأرض، ولكن لم يحول علمه إلى شيء، لم يأت على باله أن سوالكوفا تطورت أكثر مما تركها عليه سوى أنها زادت في العدد مثله، في الطريق أمسك به العولقي قائلًا له: أمتأكد أنت بما نحن ذاهبون إليه؟

أجابه: سوالكوفا أفعى رقطاء يا رفيق، سوالكوفا تلك قتلت طفلة لها لمجرد أنها لن تستطيع الحياة، لن تترك على الأرض حي أو ميت قبل أن تفنيه، ستفني الموتى، لو وجدت جثة لأحرقتها حتى لو كانت محروقة قبل ذلك!

العولقي: ألا نستتر، الجبال تعصمنا منها.

إبراهيم: لا عاصم إلا الله. تعصمنا الجبال اليوم، ومن يعصمنا غدًا، لديك الخيار لتعود بقومك وأحاربها وحدي!

العولقي: تخشى أن تطلبك بعد أن تفرغ من الأرض، لا تستعجل الموت، لعل عدو لها يفنيها قبل أن تفعل!

إبراهيم: انتظار الموت موت يا رفيق، إن كنت تحب العودة وأهلك فتلك حربي وحدي!

العولقي: الموت مع الجماعة رحمة.

إبراهيم: ما الجماعة؟!

العولقي: جماعة المسلمين يا إبراهيم.

إبراهيم: ظننتك تركتنا بحثا عن الملاذ.

العولقي: تركتكم لكي أبحث لجماعتي عن الملاذ.

إبراهيم: بيت الله ليس بملاذ؟!

العولقي: هو الملاذ الوحيد ورب محمد يا إبراهيم، إنما بحثت عن الدعم لأهلي، جئت أرى ما لم أرَ، لست مثلك يا إبراهيم، لقد ولدت مسلمًا، أريد أن أرى كل ما لم أرَ

إبراهيم: لو رأيت ضللت.

العولقي: أو اهتديت أكثر يا إبراهيم، يا إبراهيم الفتن بحار لا يخوضها إلا قبطان، يخرج منها إما عالمًا بأمرها فتزيد قدرته على تجاوز غيرها أو يغرق فيها فيكون قد أضل وضل!

إبراهيم: وما الحاجة لمخاطرة إثمها أكبر من نفع!

العولقي: النفس يا رفيق، النفس وما تهوى!

إبراهيم: الآن سنحارب، في الحرب لا يجب ألا تفتن بغير الحرب، الحرب فتنة والمؤمن لا يجتمع عليه فتنتين!

العولقي: دع الأيام تدور دورتها، الله عاصم!

إبراهيم: الله غالب، لا غالب إلا الله.

واصلوا الحركة، يستقصوا الأثر، آل العولقي يعرفون الصحراء كما يعرفون أهلهم، الرجال فقط هي من تتحرك، تركوا النساء والأطفال عند القرية التي كانت عند العولقي، والتي كانت مقرًا لإبراهيم من قبل.

إبراهيم يشاهد البحر الذي عبره، هناك طريق بري آخر، ولكنه لم يكن يريد إلا البحر، البحر عكس الصحراء، الصحراء يمكن من خلالها تقصى أثرك، البحر يبتلعك ويقطع دابرك، من يقاتل في البحر؟

البحر حلم المغامرون ووطن يجعلك لاجئًا في كل لحظة؟

من يأمن للبحر؟

لقد آمن إبراهيم في البحر، وهاهو يسير بسيفه، يخبره أنه يدين بالفضل له أنه يحبه، البداية كانت هنا.

العولقي ينظر للبحر، هو لم يرَ البحر كثيرًا، ينظر للصحراء أكثر، إنه يعرفها، يعرف أنه يخوضها ثانيةً للبحث عما لا يدري.

في الطريق أصيبت الإبل بالهيم، تشرب ولا ترتوي، مهما أعطوها من ماء لا ترتوي، ثم تهزل الإبل وتموت، وقف الجميع في ذهول، اعتقد القوم أن الحل عند إبراهيم، إنه يعلم أكثر، ولكن ليس بمعرفة الإبل شيء، أمر العولقي الناس باصطياد نوع من الثعابين يعرفه العرب، ثعبان صغير يصطاده ويضعه في جوف الإبل ثم يضع عليه الماء، يموت ذلك النوع من الثعابين في جوف الإبل ويفرز سمه فيعالج الإبل، فتعود وترتوي، فتشرب من جديد.

يستعجب إبراهيم، يجيبه العولقي: في الصحراء الكثير، من لا يعرف يداوي الإبل لا يسير في الصحراء!

إبراهيم: لقد خضت الصحراء دون أبل!

العولقي: ماذا كانت سرعتك؟!

يهيم إبراهيم في الملكوت أكثر، ينظر إلى أفعى تقترب منه فيخاف منها، ولكنه يتأمل حركتها، يتذكر البداية الأولى حينما جاءت الأفعى، حينما أخرجتنا من جنة الخلد، يتذكر سوالكوفا، كل منا كانت له أفعى ما أخرجته من جنته، كل منا خرج ذات يوم من جنة خلد ما عاشها على تلك الأرض، لم يؤذ إبراهيم الأفعى، نهاها ثلاثًا، فانتهت في الثانية وغادرت لم تؤذه، علم أنها شيطان في أفعى، ألم تكفه الشياطين حتى تأته الآن!

اقتصَّ القصاص آثار الأقدام، قصاصين الصحراء يعرفون كل من مر، عيونهم تشم رائحة الآثار قبل أن ترى!

وصلوا إلى قرية سوالكوفا، حذرهم القصاص: هناك ثلاث جيوش مرت من هنا. منهم جيش على مركبات حديثة الصنع، مركبات تنتمي لعصر الطاقة!

*****

من يتوه في الصحراء بإرادته، من يملك ذلك العقل الذي يترك الجماعة؟!

من يملك الشجاعة أن يموت وحده؟!

الذي لم يعرف نفسه بعد ربما

مودة!

في الليل خرجت وتركت العولقي، وأصبحت وحدها، شاهدت جن الصحراء تحوم حولها فلم تخف، أتتها الذئاب من كل حدب تطلب نهش جسدها العاري من كل خوف!

لم تكن أول مرة تواجه الذئاب، ولكن في كل مرة كانت تمسك بشيء لتقتلها، وتمسك الذئاب بأنيابها طالبة تقطيع جسدها، هذه المرة لم تواجه، سكنت.

الذئاب تحوم حولها، دائرة من الموت هي مركزها، تخيل أن تكون مركز الموت، لا تتحرك ولا تفزع، تتحرك من مركز الدائرة إلى أحد الذئاب، نوع من ترويض الوحوش أن تثبت لها، كل شجاع خاف ذات يوم مما سيقدم عليه، تنظر في عين قاتلك في اللحظات الأخيرة هو قمة الفزع لعدوك.

تتراجع الذئاب عنها، كأنها أوحي إليها أن ليس لها في جسد تلك المرأة طعام، تعجبت من أمر الذئاب، تقترب منها أكثر، تنظر لعيون أحدهم، يبدو كبيرهم، تحدثه: لماذا لم تقدم إلى وليمتك؟ لن أهرب، أنا مستسلمة تمامًا.

عيناي الذئب لا تنطقان، يأخذ قطيعه ويهرب، كأنه هو الذئب الذي هاجمها من قبل، كأنه يعرفها، أو كأنه خاف من نظراتها.

تقلب وجهها في السماء، لماذا النجاة لقد أتيت لكي أموت، هائمة على وجهها في الصحراء، لا تعرف أين تذهب؟!

أرادت أن تعود في لحظة من لحظات العطش فلم تجد، غلبها الظمأ ضاعت من الماء، وضاع منها الماء، وجدت إبل هائمة في الصحراء، نحرتها، شربت من بطنها ما كانت تختزنه لقلبها من الماء، أشعلت النار وأنضجت ما تمكنت منها على النار، كم تكفيها لكي تعيش، يومًا أو بعض يوم.

كل الذين بقوا في الصحراء هلكوا، استمرت في الحركة، تهيم في الليل على وجهها، تنظر في النجوم، مصابيح في السماء تدلها، وجدت تل الجماجم الذي كان قد وجده المنتحر هنا إذن، بقايا المدينة هنا، استكشفت المدينة، عند أول بئر استراحت، اتخذت من خرائب البقايا التي في المدينة كهفًا لها، غرقت في النوم، منذ زمن طويل لم تغرق في النوم هكذا!

*****

في طريقه للقرية اصطدم طلال بجيش تشارلي، استطلعته العيون، واستطلعت عيون تشارلي جيش طلال، طلال يمكنه أن يعصف بكتيبة تشارلي، وتشارلي يكاد يموت خوفًا، أيعود إلى سوالكوفا، أم يبقى ويقاتل.

طلال انتظر ولم يهاجمه، يعرف ماذا به أولًا، في غضون أيام استطلعت العيون أنهم ليسوا وحدهم، جيش العولقي من جهة، إيفان وأخوه من جهة وهم من جهة ولكنهم الأبعد ذلك أن تشارلي كان قد اقترب جدًا من سوالكوفا ولكنه مازال أيضًا بعيدًا.

قرر طلال التحصن بالصحراء هو ومهند، حتى يستكشفوا حقيقة كل جيش جيدًا.

١٢

لو احتاجت كل معرفة للبرهنة، لاستحال العلم

الإنسان كائن لا يتحمل البقاء دون معني، دون غاية، سيفعل أي شيء لكي يكون له ذلك أو يسقط كورقة شجر لم يصل لها الماء منذ أن خلقها الله.

*****

الجميع حولها كالموت، لا تجد نفسها لمفر من الناس، قريتها محصنة، تستطيع أن تدافع عن نفسها ألف شهر، لن تترك النصر لأي فريق مما حولها، جمعت الناس، كل القرية ستحارب، الشعب هو الجيش والجيش هو الشعب، القتال لآخر طلقة ولأخر رجل، علمت عيونها بمعسكر تشارلي، أرسلت إليه:

من ملكة البحار والديار، من صورة الإله على سطح الأرض، قد عفونا عن تأخيرك، وقبلناك في جيوشنا، اتبع قريتك ودافع عنها ولا تكن من الخائنين.

وصلت الرسالة إلى تشارلي، تشارلي ازدادت حيرته، يمتلك جيش صغير وسط كل الجيوش، جيش طلال يمكنه أن يعصف به بين عشية وضحاها، لو أغاروا عليه في الليل يكاد يفنوه، لو ذهب إلى سوالكوفا ما أدراه بها، تقتله وتترك ما معه من رجال، هو لا يأمن رجاله أنفسهم، لذلك يجعل رسل

سوالكوفا تلقي إليه بالرسائل ولا تقترب من معسكره، معسكره مغلق بسياج، ليس لديه إلى بئر واحد، يخرج ليصطاد ولكن لن تظل الأرض ترضعه من خيرها كل الوقت، فضرعها كاد يجف، وإن أضنت عليه هلك بمن معه!

في الليل غير تشارلي موقعه، لم يعد في الخط الواصل بين جيش طلال وقلعة سوالكوفا، لن يقف أمام ما لا يستطيع، تحرك لكي يقف أمام جيش العولقي، جيشه صغير وقدرته على الحركة سهلة حتى في الأودية الضيقة وعيونه مدربة فقد سار في الصحراء كثيرًا وعرف كيف يستطلع الأرض قبل القتال فيها!

انزعجت سوالكوفا من حركة تشارلي، لقد كانت تعتمد عليه في إبطاء تقدم جيش طلال، استيقظت ذات يوم لكي تجد جيش طلال على مرمى البصر منها، طلال ومهند لم يكونا غير متقدمين خيفة، ولكنهم كانوا يريدون أن يحاصروا تشارلي حتى لا يجهدون أنفسهم بتكسيره، يجعلون الشجرة تموت من العطش بدلًا من قطعها، لكن على ما يبدو أن الشجرة اختارت لجذورها تربة أخرى.

استيقظ العولقي لكي يجد جيش تشارلي قد التف في ظهره، أصبحت القلعة من أمامه وجيش تشارلي خلفه، قال إبراهيم للعولقي:

-هذا من ترتيب الأفعى.

أجابه العولقي:

- نؤمن ظهرنا قبل أن نتقدم.

إبراهيم: هذا يرهقنا، لقد اعتمدت خطتي على الحصار المنفرد، واستنزاف سوالكوفا، فإمكانياتنا ضعيفة، لا أعلم من أين أتى كل هؤلاء.

العولقي: ألا تعرفهم؟

إبراهيم: بلى، في الليلة السابقة ذهبت إلى المعسكرات المحيطة بنا، أردت أن استفهم من هم، فالجهة الشرقية عليها طلال ومهند، تغير شكلهم قليلًا، لا

أعرف كيف نجوا من البحر، إنهم مسلمون بالمناسبة، وعلى الغرب منا، إيفان ووايلد وديرو، الثلاثة هم من نسلي، إنهم أولادي يا أخي!

العولقي: هل كنت زوج تلك المرأة؟

إبراهيم: نعم تزوجتها بعد النجاة في ضلالي القديم، لقد كنت كافرًا.

العولقي: لماذا لا نتحد سويًا؟ هؤلاء من نسلك وهؤلاء على ديننا.

إبراهيم: أما النسل فقد تركته وغادرت وأما الدين فقد تركت سوالكوفا تلقي بهذان الشابين إلى البحر ذات يوم.

لم يكونا يكملا الكلمات حتى جاءهم الرسول من قوم طلال بالرسالة نصها:

بعد حمد الله والثناء عليه، إن كنتم أعداء لنا فقد جئتم وجئنا لتدمير تلك البقعة الخبيثة من على وجه الأرض، وندعوكم لعبادة الله الواحد الأحد، وإن كنتم رفاق لنا إخوة لنا في الدين، فلننسق للقتال سويًا، الله أحد، الله حق، الله عدل لو كره الكافرون.

قام إبراهيم بقراءة الرسالة على العولقي، لم يترك العولقي لإبراهيم مساحة من التفكير، كتب لهم:

الحمد لله مالك الملك الذي جمع الإخوة، بل إخوة في الدين ولو كنا أعداء من قبل، جئنا نخلص العالم من القرية الظالم أهلها، نجتمع وتكون كلمة السر صلاة الله وسلامه على سيد الخلق محمد

ذهب الرسول إلى طلال بالرسالة، بعد ذلك بيوم وصلت رسالة من إيفان، مكتوبة باللغة العالمية نصها:

من فاسكو دي جاما ونائبه إيفان، ما جئنا لحربكم ولا لحرب أحد منكم، فاتركونا لها، فإما نكون قد أرهقناها لكم وهزمتنا، أو أن نهزمها ونرفع عنكم الدماء.

أجابه العولقي:

إنه بسم الله الرحمن الرحيم

نجتمع ويدبر الله الأمر من فوق سماوات سبع

وصلت الكلمات إلى فاسكو، سأل فاسكو إيفان: هل تعلم الرحمن؟

أجابه إيفان: نعم إنه قول المسلمين، إنهم من هذا الدين.

دخل عليهما رسول من عند طلال يحمل رسالة تحمل نفس المفاد، دعوة إلى الإجتماع، نظر له فاسكو دي جاما: على ما يبدو أن الجميع يكره سوالكوفا.

إيفان: هل ترى أننا يجب أننا نذهب للمعركة؟

فاسكو دي جاما: هل هناك خيار؟

إيفان: لو أطبق علينا الجيشان لأفنونا، إنهم لهم نفس الدين، هذا الدين كل ما فيه إخوة!

فاسكو دي جاما: حدثني عن هذا الدين يا إيفان.

إيفان: لا أعلم عنه الكثير، يعبدوا رب لا يروه، موجود في السماء، لديهم شيء يسمى القرآن الكريم، يقولوا إنه كلام الله.

فاسكو: كيف عرفت هذا؟

إيفان: قرأت عنه!

فاسكو: هل تعرف المزيد؟!

إيفان: لا.

فاسكو: كلمات الحمد التي يقولوها في البداية تلك ما عهدت مثلها، ليست من فعل البشر

إيفان: نذهب لهم ونرى.

على مائدة رُسم عليها خارطة كاملة للمكان، اجتمعوا، تمركز الجيوش ووضعهم، بل كان لدى طلال ومهند علم بأعداد الجيوش وتسليحها، وخارطة أخرى تفصيلية للمدينة، انبهر فاسكو دي جاما بم كتب على

الخريطة ودقتها، إبراهيم يعرف تلك الطريقة وعنده مثلها، ولكن عيونه لم تجلب له كل المعلومات.

الخريطة كانت رسالة من طلال للجميع: نعرف عن الجميع كل شيء!

نظر فاسكو دي جاما لطلال:

- دعك من الحرب، حدثني عن دينك.

نظر طلال إليه:

-الإسلام هو أن تسلم وجهك لرب العالمين، أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد ﷺ رسوله، خاتم الأنبياء، وسيد المرسلين، تتبع ما أمر وتبتعد عما نهى، إنه دين يخرج العباد من عبادة العباد لعبادة رب العباد.

فاسكو دي جاما: أهذا الكون خالق؟ فإن كان له فلماذا يرضى أن يتحطم العالم هكذا؟

طلال: سبحانه لا يُسأل عما يفعل، علومنا قاصرة عن علمه، هو العالم الواحد الأحد، له في أمره الحكمة.

فاسكو دي جاما: يا هذا إنني حينما أجوب الصحراء في الليل، أعلم أن هناك قوة ما تدير هذا الكون!

طلال: سل إبراهيم كيف آمن، كان اسمه جون والتر!

إيفان نزلت الكلمة عليه كالصاعقة، قبل أن ينطق نظر لها بحدة: جون والتر، هذا اسم أبي!

إبراهيم: أمازال بك شيئًا من محاولتي قتلك يا طلال؟ لم أكن أنا الإسلام يحجب ما قبله يا طلال!

إيفان: لذلك رحلت؟ أسلمت فرحلت وتركت أولادك!

إبراهيم: لا يا إيفان، لم أرحل بعد أن آمنت، لقد رحلت أولًا ثم آمنت، لقد رحلت بحثًا عن نفسي أولًا!

إيفان: هل يترك الرجل بنيه بحثًا عن نفسه؟!

إبراهيم: الرجل بلا إيمان يا ولدي كشجرة معلقة في الهواء لا جذر له، من أين لي بالماء يروي عطشي؟ من أين لي بالغذاء يشد رمقي، لا تؤاخذني يا ولدي فلو بقيت لفنيت!

إيفان: تركتنا لتلك الحمقاء.

إبراهيم: الكل يواجه مصيره.

تدخل طلال: ما مضى مضى، كل ابن أدم خطاء، لولا الخطأ ما كانت التوبة.

إيفان: أنا لا أؤمن بم تقول.

طلال: بماذا تؤمن؟

ايفان: أؤمن بنفسي.

طلال: ماذا تقول نفسك؟

إيفان: أن عليّ أن أغادر من هنا لكي أقتل سوالكوفا، ثم ألتفت لكي أقتل من تركني لها.

طلال: لذلك خلق الله الدين يا إيفان، لترويض النفس، نفسك تدفعك للانتقام لا للحق!

إيفان: لو كنت مكاني لفعلت الشيء نفسه.

طلال: من قال إنني لست مكانك؟!

إيفان: هل هو أبيك أيضًا. هل أنت أخي؟!

طلال: لقد رأيت من والدك صنوفًا لا تعلمها من التعذيب، جون والتر تركنا لسوالكوفا تلقينا في الماء أمام عينه مقيدان ولم يتحرك!

إيفان: هل فعلتم هذا حقا؟ رميتم بشر في الماء مقيدان وهم أحياء؟!

إبراهيم: جون والتر من فعل، لست أنا.

طلال: اسمع يا إيفان، هذا الدين يجعل من أشد الناس جاهلية أشد الناس إنسانية، هذا الدين يُفجر في الإنسان غلبة عقله على نفسه.

إيفان: لن أتبع، ديني ما في رأسي، وخير ما أفعل من عفو ألا أقتله.

فاسكو دي جاما: يا إيفان، ما رأيتك إلا على الحق يومًا، أنا أتبع هذا الدين حتى يتضح لي ما فيه من شر، فلنتبع!

إيفان: لا، والجيش جيشك، أنسحب بإخوتي وأقاتل مفردًا، إني مستعد للهلاك ولا أتبع هذا الدين!

طلال: إنك لا تهد من أحببت!

يتفطر قلب إبراهيم على ولده، يتذكر قصة نوح، يردف بجملة لا يفهمها أحد: لا عاصم اليوم إلا الله!

يفهم الجميع ماعدا إيفان وفاسكو دي جاما الذي يغير دفة الحوار: لننتقل إلى الحرب، كيف نقتحم قرية سوالكوفا وهي بتلك الحصانة؟

طلال: يمكن أن نحاصرها ألف عام دون أن تنكسر، نحن في العراء، وهي في الداخل لديها الماء والغذاء

إيفان: لا سبيل إلا الاقتحام، الاقتحام في أسرع وقت، كل يوم تزداد فيه قوة أسوارها، إنهم لا يتوقفون عن العمل!

طلال: هو الرأي اقتحام من ثلاث جهات بإستثناء جيش صغير يجب أن يبقى في ظهر ناحية العولقي لإيقاف تشارلي هذا.

إيفان: من تشارلي هذا؟

طلال: هذا هو الجيش الذي اختطف كيرا زوجة وايلد، بالمناسبة لقد هربت منه، هي مع جيش العولقي، لقد أنقذها.

إيفان: على ما يبدو أن عيونكم على الجميع، كيف تعتبرنا أصدقاء وأنت تتجسس علينا

طلال: لا تخطئ، إنها الحرب، من يعرف أولًا يتحرك أولًا

إيفان: ليس هناك جيش أسرع من جيشنا، تعرفون أولًا نعم، ونصل قبل منكم.

طلال: الجميع يحتاج الجميع، نحن نحتاج عرباتك، وأنت تحتاج طائرات استطلاعنا، والعولقي يحتاج كليهما، ونحن نحتاج شدة مقاتليه وكثرة عتاده.

العولقي: ما أصوب منك رأيًا.

إيفان: أريد زوجة أخي.

العولقي: هي في ضيافة أبيك حتى تنتهي الحرب.

إيفان: أخي سيفرح بها.

العولقي: يمكنك أن تبلغه بنجاتها، ويمكنك أن تجمع عليه فرحة النصر نصرين!

إيفان: تريدها رهينة؟!

إبراهيم: هل تكون زوجة الابن رهينة عند والد زوجها؟!

إيفان: لن اتركها عندكم، ولو اضطررت للحرب عليكم قبل سوالكوفا.

طلال: أعطه طلبه كرامةً لي يا شيخ.

العولقي: له ما طلب.

اتفقوا على الحرب وتفاصيلها بعد ذلك، في المساء يبدأ القذف، يستمر القذف طوال الليل، سوالكوفا في الداخل كفأر مذعور، لم تسرف في الرد على القذف، أرسلت إلى تشارلي ثانية وثالثة ولم يجب، تشارلي كان لديه خطة أخرى، حينما يسأله مساعده يجيبه: الانتظار يجلب النصر، النصر صبر ساعة وانتظار ساعة أخري!

القذف يضيء السماء، ينظر طلال لمهند، هذا العالم آن له أن يتخلص من شره، من كان يتوقع أن سجينين في عرض البحر يمكنهم الآن أن يقتلا ما تبقى من الشر في هذا العالم يا رفيق!

أصوات التكبير تعلو وتشق الفضاء مع كل إطلاقة، جبهة العولقي كانت الأكثر كثافة في الإطلاق، إبراهيم ينظر للسماء، السماء ملبدة اليوم بالموت، العولقي يستعيد أمجاد أجداده، الحرب خُلقت للعرب، العرب أفضل من يحاربون، هكذا أخبره أجداده!

بزغ الفجر واقتربت ساعة الهجوم، ستقوم طائرات طلال ومهند بإشارة البداية، تم تحميلها بأكياس من البارود وفتيل يشعلوه، هذا أول قصف استراتيجي فيما بعد كيفاد!

رعدة الحرب تجري في الأوصال، الموت يستعد ليعصف بالأرواح، عربات إيفان قاموا بتحميلها بأسنة مدببة لهدم الأسوار، وسوالكوفا قوتها ليست بالقليلة، ولكن لا قبل لها بما أمامها.

بدأ الهجوم البري، خيول مطرزة وإبل عليها هجانتها ومجانيق تقذف، تشابكت الجيوش على الأسوار، وأُلقي البترول من فوق الأسوار واشتعلت النار، ومدافع سوالكوفا بدأت في حصد الأرواح، وطائرات طلال ومهند بدأت في حصد المدافع، تصب عليها اللهيب وتحترق، سوالكوفا لم تتوقع الطيران أبدًا، إحدى الطائرات تم توجيهها إلى مخزن ذخيرة البارود وسط المدينة، فانفجر البارود، وانفجرت معه القلوب وتطايرت الأشلاء، العولقي يحث الناس، وصيحات التكبير تختلط بهتاف "عاش إيفان" وهتاف " تحيا سوالكوفا، تحيا كيفاد" والصراخ يملأ الأرض.

المعركة تستمر، بدأت الشمس تتوسط السماء، لهيبها يحرق ما تبقى من الناس لم يحرق بعد، بني أدم قد أعلنوا الحرب، منذ فجر التاريخ ونفوسهم قد سولت لهم أن يقتلوا بعضهم بعضًا، من بداية التاريخ وهم يقتتلون، بعضهم على حق، وبعضهم على باطل، ألم يكن أولى لهم أن يتعظوا من أول سقوط لهم، ألم تكن تكفي خطيئة أدم كل البشر؟!

حانت لحظة النصر، سقط السور المقابل لجيش إيفان، تهدمت المقاومة بجيش طلال، وسقطت الأسوار بفعل عربات إيفان، انسالت جيوش العولقي على

الأسوار التي تسيطر عليها، حوصرت سوالكوفا ومن معها من رجال وسط المدينة.

حانت لحظة النهاية، لحظة أن يموت الشر للأبد، وايلد يترصد أخيه، أخوه الذي جلب له زوجته، أخوه الذي أسقط أول الأسوار، سيكون السيد بعد تلك المعركة، سيكون قطب العالم مع فاسكو دي جاما، ويكون طلال القطب الآخر، سيتصارعان لا محالة، كان ينتظر أن يقتل إيفان لكن إيفان لم يقتل!

كلفه إيفان بمهمة قنص سوالكوفا لو امتدت لهم يد قبل يد جيشه أثناء المعركة، وكلف فرقة بحراسته لتأدية هذا الغرض، سهم طائش في المعركة ينهيك يا إيفان، قال وايلد لنفسه!

اشتد ساعده وانتفخت أوداجه، جمع شتات ضربات قلبه، سيطلق على أخيه، أطلق السهم ليستقر في قلب أخيه، وليكن الغراب هذه المرة آثار المعركة يواري سوءة أخيه، يهرب من فعلته أمام العالم، لم يلاحظه أحد، نظر للسماء، صرخ من أعلى جوفه، هل تراني؟!

لقد فعلتها كما فعلها أخي لي من قبل!

ألسنا من نسل من فعلها؟

هل كان للمقتول نسل؟!

نحن من نسل القاتل؟

لماذا نحن هنا، حينما انتهت المعركة، أُسرت سوالكوفا، جاء جيش تشارلي مطيعًا مهطعًا منضمًا لجيش طلال، أخبره تشارلي: أفسحت لك فأنا معك، أردت أن آمن ظهرك!

سوالكوفا في الأسر انتهى قومها، انتهت شوكة كيفاد!

صيحات النصر تلوح في الأفق، كل من عاش ليرى النصر قد حصل على جائزته، النصر هو المياه الوحيدة التي تروى ظمأ كل مقاتل على سطح الأرض.

في ثانية وجد الجميع مالم يكن في الحسبان، امتلأت السماء بطائرة ضخمة تحمل شعار اللون الأخضر وشهادة الحق، حولها العديد من المروحيات، طوافات محملة بمدرعات يمكنها أن تمحي كل الجيوش المتحاربة ومن جهة أخرى طائرة باللون الأسود، معها مثل ما مع الطائرة الخضراء من المروحيات، هبطت الطائرتان بشكل عمودي، نزل من الطائرة الخضراء شيخ أشيب الرأس أبيض اللحية كثها وكثيفها، يرتدي الثوب الأبيض وقد توسطها جبته وقفطانه، شيخ من العصور الوسطى وخلفه رجال بالزي العسكري، ومن الطائرة السوداء نزلت جنود تحمل رتبة كيفاد يتقدمهم القائد العالمي!

تهللت ملامح سوالكوفا، لم يمهلها مهند من فرحتها شيء، أخرج خنجره ورماه بها، في وسط حلقها، أسقطها تختنق نظر لها، أطلق بصره في عينيها: حتى لو كيفاد مازالت حية، ستموتين، الموت السريع لكِ رحمة!

أقلعت إحدى المروحيات المحيطة بالطائرة غضبًا وأطلقت صاروخًا ضوئيًا في الهواء، صرخ القائد العالمي: انتهت الحرب توقفوا عن القتل!

ذُهل الناس واجتمع القادة في دائرة، طلال ومهند ووايلد وإبراهيم والعولقي والقائد العالمي والشيخ وفاسكو دي جاما

كسر الصمت الشيخ ذو اللحية البيضاء موجهًا الكلام للجميع: أنا الشيخ بن قاسم ولد محمد قائد السفينة هرميجدون، ما كنتم عليه هو معركة افتراضية لحقن الدم، ولاكتشاف ما على الأرض من بقية الخلق، أطلقناه طبقًا لمعاهدة كابيتول بيننا وبين السفينة كيفاد، هرميجدون تنتصر، من حقنا أن نأخذ كل ما تبقى من الخلق في سفينتنا ونستقوى بهم، كل سفن كيفاد تستسلم الآن!

القائد العالمي: خذوا من أسلموا وحسب!

الشيخ: وما مقابل من نعطيكم من أهل الكفر، نقتلهم ونبيدهم، انتهت كيفاد، بينما تتحدث الآن أنت تعلم أن برنامج تسليم سفنكم لنا.

القائد العالمي: ندفع لكم.

الشيخ: كم ثمن انتهاء كيفاد؟!

طلال مقاطعًا: كنتم تعلمون منذ البداية؟

الشيخ: لا ليست لعبة شطرنج، لقد أطلقناكم بغرض حقن الدماء، رجلان من هرميجدون ورجلان من كيفاد يتحاربوا في الأرض ومن ينتصر يسلم للآخر، فنحقن دماء الجميع، لو أطلقت كل السفن ما عليها لهلكت الأرض زيادة على هلاكها.

طلال: كل هؤلاء الناس لم تكونوا تعلموا عنهم شيء!

القائد العالمي: جميع الأقمار الصناعية تحطمت ولم يعد في الأرض ما يمكننا من توجيه المزيد من الأقمار!

طلال بصراخ: قتل الإنسان ما أكفره، قتل الإنسان ما أكفره، كل هؤلاء المساجين، كل تلك الخرائب، كل تلك المعاناة، أي أنتم؟!

مهند: كنا في لعبة، تظنون أن السيطرة هي اللعب بمصائر الرجال!

وايلد: أي دين هذا الذي تتبعون؟!

العولقي: الجهاد فرض، أنا أول من يصعد لهرميجدون

إبراهيم: لن أصعد، أعود إلى مكة ولو حبوًا وحدي.

الشيخ: من حق الجميع تقرير مصيره، انتهت الحرب، كيفاد انتهت، نحن نملك حق تقرير المصير، ونترك للجميع حق تقرير مصيره.

القائد العالمي: لن أسلمك نفسي ولو استوليت على سفني!

الشيخ: لا جدوى منك دون سفنك!

وقف الجميع، فهم الجميع ما حدث، من أراد الصعود لهرميجدون صعد، نعم بالحياة عليه بكل الرفاهية، من بقى بقى في الأرض.

طلال ومهند صحبا أهلهم للمكتبة، شعرا باللاجدوى، فقط القرب بجوار كلمات الله، العلم كلمات الله في الأرض، فالخشية هي العلم، الحكمة بجوار

الكتب، كل هذا العالم هو لا شيء، هم من لهم الفضل في الانتصار، لو أرادوا ملك هرميجدون ملكوها، ولكن بعد الصراع تزهد، كانوا يريدون عالم جديد لدينهم، لنشر كلمة الله في الأرض، فوجدوا العالم موجودًا بالفعل، هم فقط قاموا بإطلاقهم من إحدى السفن لبدء المعركة، كانوا رمزًا للجيش المسلم كم قاتلوا، لقد كانت معركة البقاء كبيرة جدًا، الآن يستريحا مع أهلهم بجوار الكتب!

عاد إبراهيم إلى مكة وهناك اعتكف، وهناك سيقضي بقية عمره، كانت كلمته الباقية، كل البيوت ليست لنا، البيت الوحيد الذي لنا هو بيت الله الحرام.

ذهب وايلد بجثة إيفان إلى الشجرة التي دُفنت فيها أخته كيفاد، حمله وهو يردد في الأفق كلمات الشيطان: وقد فعلها أخ لي من قبل، وقد فعلها أخ لي من قبل، كأنه يقول لنفسه أنه لم يكن الأول الذي فعل ذلك، كأنه يعتذر لنفسه بفعلة أخيه فلم يؤمن ولم يكفر، تائه بلاغاية، دفنه عند نفس الشجرة، وسقاها من دمعه، احتضن الشجرة التي بها دماء أخويه، لم يكن هناك جدوى، لقد ظن أن إيفان سيسطر، امتلأ قلبه حقدًا، ولكن اكتشف أنه وإيفان وأخته في غاية الضلال، ظل يبكي ستة أيام، تحنظل حلقه بالمر كله، في اليوم السابع مات كمدًا من حزنه، الإنسان كائن لا يتحمل البقاء دون غاية!

آمنت ديرو ولحقت بطلال ومهند ومعها برانكوفيتش، عاشت تحمل ذكرياتها وأخوتها، لقد هلك النسل كله، لم يتبقَ الكثير، عاشت في جوارها كيرا، لم تفرح بشيء مثل فرحتها بالعودة إلى أولادها.

فاسكو دي جاما صعد إلى السفينة، آمن بالإسلام واتبع، لقد كان حجر الزاوية بينه وبين الإيمان هو إيفان، انكشف له الإيمان بعد وفاة إيفان؛ فآمن!

قتل الشيخ قاسم القائد العالمي ومن تبقى من رءوس الكفر، علق رءوسهم على رأس السفينة هرميجدون.

وقف الشيخ على رأس هرميجدون يصرخ في العالم: هل من في الأرض من يملك تكسير هرميجدون؟

شعر بالقوة، الشعور بالقوة هو بداية تكوين كيفاد أخرى، هرميجدون كانت مدينة عائمة في البحر، يمكنها أن تغطس، ويمكنها أن تطير، الآن استسلمت لها كل سفن كيفاد، لقد انتصروا بدون خراب.

ما لم يكن يعلمه الشيخ أن هناك من خرج عن سيطرته، من خرج عن قوته، كان المنتحر يقف خلف مفاتيح العديد من الصواريخ النووية التي مازالت تعمل، لديه قمر صناعي وحيد لم يعلم أحد عنه شيء، يرى العالم ويستعد أن يطلق، على بعد منه بمسافة صغيرة تعيش مودة، تشعر أن هناك من يحيط بها.

الشيخ يعتقد أنه يسيطر بهرميجدون.

المنتحر يعتقد أنه يملك مفاتيح القوة، يمكنه أن يحصد من أراد في أي لحظة دون ردع، دون حتى أن يعلم من أين أتى له بالموت.

مودة بآلة حادة صغيرة يمكنها أن تتسلل إلى المنتحر لتقتله.

مودة يمكن أن يقتلها الذئب.

الذئب لا يعي أنه يسيطر، لأنه يعي أنه من الممكن أن يقتل في لحظة، لعل الذئب أكثر رضا وأمانًا من بني أدم!

أدم الذي خرج من الجنة وهو يقول: لا أدري ماذا يفعل بي ولا بكم؟!

خرج أولاده في هذه الأرض وقد وسوست لهم نفوسهم أنهم يملكون السيطرة، في الحقيقة إنهم ضعاف للغاية، لعل أصلح ما يمكن أن يفعله أولاد أدم أن يهرعوا لاستقاء الحكمة من الكون، أن يهرعوا بكاء على خطيئتهم، فتجبرهم زاد الحدود، لقد علوا وأفسدوا في الأرض وعتوا عتًوا كبيرًا، ونسوا أن:

الله غالب الله حق الله عدل

إنا لله...

الفهرس

يوم القيامة ٧
إني ذاهبٌ لكي أجدني ١٨
كل من سعى بصدق سيصل الصدق ٤٥
من يستطيع سجن الروح؟! ٧٧
تلك رقصة الموت فمن يبالي؟! ٩١
عليك أن تعرف ما الذي ستفعله بعد الثورة. ١٢٣
العفو هو زكاة النصر يا رفيق ١٤٨
ولكنه يعرف أن الألم خير معلم للناس، من يتألم أول من يتعلم! ١٨٤
كلنا تائهون في هذه الأرض ٢١٢
نحن من نسل القاتل الأول... ونحن من نسل من بقي بعد الطوفان أيضًا ٢٢٤
الموت مع الجماعة: رحمة ٢٣٨
لو احتاجت كل معرفة للبرهنة، لاستحال العلم ٢٥٢